الرمـــز الفلســـفى
فى منطق الحيـــوان والطيـــــر
عنــــد
إخوان الصفاء وابن سينا والغـزالى وفريد الدين العطار

دكتــــور

محمـــــود ســــــلامه

مجلس نشريات إسلام
كراتشـــــى
١٩٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــــــة

إن بحث موضوع الفلسفة والأدب قد يبدو فيه بعض الغرابة، فـالنظرة المتعجلة قد تنتهى إلى إن العلاقة بين الجانبين علاقة منبته، وقد يقول الإنسان لأول وهلة إن الأدب مرده الخيال والعاطفة والوجدان ، أما الفلسـفة فإنهـا فـى صميمها تنزع إلى التجريد العقلى الصـرف ، أمـا الفلسـفة فإنهـا فـى صميمهـا تنزع إلى التجريد العقلى الصرف ، ومن هنا قد يعجب البعض من موضـوع هذه الدراسة (الرمز الفلسفى).

ولا أسارع إلى الدفاع والتبرير ، فالدراسات الحديثة جدا فـى الدوائـر العلمية الغربية تطالب الأدباء اليوم أن يكون للأديب مغزى فلسفى فيمـا يكتبـه سواء أكان شعرا أو نثرا ، أو سواء أكان أدبا موضوعيا أو كان أدبا وجدانيا . فلقد مضى عهد الخفقات العاطفية المبعثرة التى لايجمعهـا جـامع ، ولايربطهـا رابط ، وإلا فما الفرق بين التصـرف الفطـرى التلقـائى عنـد البدائييـن ، وبيـن الأدباء الفنانين الذين يوظفون الدفقات الشعورية لكى تخدم الفكر وتبنى الحياة.

ومـن هنـا كـان التفـات البـاحث إلـى الـتراث الفلسـفى فـى المحيـط الإسـلامى، وإذ بـه يعثر علـى كنـوز ، بصـرف النظـر عـن محتـوى هـذه النصوص الأدبية الفلسـفية ، أى بصـرف النظـر عمـا إذا كـان البـاحث يوافـق على ماتحمله النصوص الأدبية الفلسفية من أفكار أو لايوافق عليهـا، غيـر أن الموضوع فى حد ذاته موضوع يسـتحق أن يقـف أمامـه الإنسـان نـاظرا إليـه بعيـن الإعجـاب ، ولايعنـى مـرة أخـرى أن تكـون عيـن الإعجـاب هـى عيـن الرضـا، فالإنسـان قـد يعجـب بعـدوه ، لكنـه يكرهـه فـى نفس الوقـت . وهـذا الموقف يذكرنا بفروسية الأسلاف .

وقد وقفت طويلا أمام ماحوته نصوص رسائل إخوان الصفاء من مغزى قد لايكون كله خيرا، ومع ذلك كنت أفتح فمى إعجابا واحتراما. بالرغم مما كان يكمن تحت هذه النصوص من أخطار .

ولذلك صممت على أن أقدم للقارئ نتيجة هذا الإعجاب المتعقل فدرست طبيعة الرمز الفلسفى خاصة على ألسنة الحيوانات والطيور . عند إخوان الصفاء وابن سينا والغزالى وفريد الدين العطار. وقبل أن أخوض خضم الموضوع عند هؤلاء آثرت أن أمهد له بتمهيد يكشف عن طبيعة الرمز الفلسفى عموما ، سواء أكان على ألسنة الحيوان الأعجم أو الطير الصادح أو كان غير ذلك من ألوان التعبير الرمزى الذى اخترعه الإنسان منذ قديم الزمان .

ثم خصصت فصلا للحديث عن الرمز الحيوانى الفلسفى عند إخوان الصفاء فى تلك القصة الطريفة التى دارت حول مشكلة متخيلة نشبت بين الإنسان وسائر الحيوانات، وكان الحكم بين الفريقين هو ملك الجن . وقد استطاع إخوان الصفاء من خلال أحداث القصة أن يقولوا مايريدون ميتافيزيقيا ودينيا واجتماعيا وسياسيا واقتصاديا .

وجاء الفصل الثانى ليتناول الرمز الفلسفى بواسطة لغة الطيور عند ابن سينا ، وقد حرصت لبيان الفكرة على عقد مقارنات بالنصوص طويلة مدعمة بالنصوص، حتى يمكن استكناه ماأراد الشيخ الرئيس أن يقوله من آراء فلسفية أو دينية أو اجتماعية أو سياسية أيضا.

ثم إذا انتقلنا الى الفصل الثالث نجد أمامنا أباحامد الغزالى هذه الشخصية العجيبة فى تاريخ الفكر الإسلامى ، التى حاولت تحويل أنظار

الباحثين من الخط المشائى إلى الخط الإشراقى الصوفى مغلفة كلامها بغشاء دينى رقيق ، وقد حاول البحث فى هذا المضمار أيضا أن يبين كيف أن الغزالى قد وظف لغة الطير من أجل بث آرائه التى ربما لو أعلنها صريحة لكانت عليه المآخذ التى لايريدها .

وأخيرا جاء الفصل الرابع ليبحث هذا الرمز الفلسفى الطيرى عند فريد الدين العطار ليتبين أن التوظيف هو التوظيف وأن الخط هو الخط.

ولعل باحثا غيرى يأتى ليغطى مالم أتناوله من فلاسفة الرمزية الطيرية خاصة أو الحيوانية عامة ..

والله أسأل أن يكون الهدف من وراء هذه المحاولة خالصا لوجهه لإنه وحده نعم المولى ونعم النصير .

*****

تمهيـــــد

تمهيـــــد

يبدو أننا هنا بصدد أدب مقارن، أو بالأحرى ، فلسفة مقارنة - اذا صح هذا التعبير الأخير - فالفلسفة ، أو تاريخ الفلسفة ان هو الا سلسلة لاتنتهى من المقارنات بين أفكار سابقة لفلاسفة سابقين، وأفكار لاحقة لفلاسفة لاحقين .

وإذا كان موضوع الدراسة هنا يتناول حقائق موغله فى القدم ، ثم متدرجة عبر الزمان فى حقبات متلاحقة ، فان هذه الحقائق تتشابك فيما بينها سواء فى شكلها التجريدى، أو فى صورتها الحية بما تحتويه من رموز. ونعنى بهذا التشابك أن الأفكار والآراء متأثرة ببعضها البعض، كما أن الشكل التعبيرى الذى ظهرت فيه هذه الأفكار والأراء متأثر هو الآخر ببعضه البعض.

ومن البين أن بدء ظهور الفلسفة عند اليونان . لم يكن يونانى الأرض والإقليم ، وإن كان يونانى اللغة . فقد ظهرت الفلسفة أول ما ظهرت فى المستعمرات اليونانية فى الشاطئ الأسيوى من جهة وفى المدن الإيطالية وجزر البحر الأبيض من جهة أخرى([1])، ولعل وجهة اليونان عندما بدأوا فىتكوين حضارتهم ، كانت وجهة شرقية وان كان بعض مؤرخى الفلسفة يصفون الأفكار والنظريات الفلسفية قبل اليونان بأنها تنتمى إلى عصر ماقبل الفلسفة ، حسبانا منهم بأن التفلسف محصور فى العقلية اليونانية([2])، وربما

([1]) وورنز ، ريكس : فلاسفة الاغريق ، ترجمة عبدالحميد سليم ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥، ص ٩ .

([2]) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

كانوا قد أصابوا بذلك نصف الحقيقة وأغفلوا نصفها الآخر . فبالنسبة للنصف الذى اصابوا فيه فإن معظم مأثر عن اليونان من أدب وفن وفلسفة قد قيض له من اهتم به ونقله الى لغات أخرى، وإلى بيئات أخرى ، على حين افتقد كثير من الحضارات السابقة مثل هذه الميزة . أما نصف الحقيقة الذى أغفله هؤلاء فهو أنه من غير الممكن أن تقوم حضارات سابقة على الحضارة اليونانية - وهذاأمر ثابت تاريخيا - دون أن يكون لهذه الحضارات ، فكر أو دين أو فلسفة أو فن . بل إن الدراسات الحديثة ، بالإضافة الى ماظهر من نصوص وماتم اكتشافه من آثار يبرهن برهنة لا تدع مجالا للشك على أن اليونان لم يكونوا بمعزل عن الحضارات السابقة عليهم فى هذه المجالات وغيرها مما يمكن أن يسمى لحمة الحضارة وسداها .

ولم يكن (توملين) بمعزل عن الصواب ، عندما أخذ يوازن بين آراء فلاسفة اليونان الطبيعيين فى القرن السادس قبل الميلاد حول نشأة الكون، وبين ماعثر عليه علماء المصريات من نصوص تنتمى الى مصر القديمة فى هذا الموضوع ليجد أن المصريين كانوا أكثر تقدما فى هذه القضية.

فعلى حين يذهب (طاليس) Thales إلى إرجاع أصل العالم إلى الماء، ويرى (أنا كسمندر) Anaximanderأن العالم نشأ من الضباب ، وأرجع (أنا كسمينز)Anaximenes نشأة الكون إلى شئ غامض سماه اللامحدود The Boundless ، على حين رأى هؤلاء مارأوه، نجد المصريين القدماء الذين سبقوا فلاسفة اليونان بثلاثين قرنا ، يذهبون إلى أن الفكر هو أصل نشأة العالم ، ويستدل على ذلك بما بوجهه كهنة (منف) إلى الإله (بتاح) من توسلات ، على أنه نائب عن الآلهة ، ويصورونه على أنه

" قلب ولسان الآلهة " فقد" أعلن أسماء كل الأشياء، خلق بصر العينين ،وسمع الأذنين ، وتنفس الأنف ، حتى يمكن أن تنتقل إلى القلب ، وهو القلب المتسبب فى أن كل نتيجة يجب أن تظهر ، وهو اللسان الذى يعلن عن فكر القلب".([1])

ولعله مما يسترعى الانتباه ذلك التصوير الذى صوره المصريون القدماء للنفس أو الروح ، والذى لايفرق عندهم بين جانب النفس الذى هو مصدر الحيوية والنشاط الجسمى ، وبين جانبها الذى هو (العقل) أو أداة التفكير ، فانهم يرمزون للاثنين معا برمز واحد هو طائر، له رأس إنسان وذراعاه،وقد صوروه داخل القبور ، فوق توابيت الموتى ،وهو يمد بإحدى ذراعيه إلى خياشيم المومياء بشكل (قلع) أى شراع سفينة ، وهى الصورة التى تعبر عن كلمة(النفس) بفتح الفاء ، ويمد باليد الأخرى حاملة (صورة) ترمز الى كلمة (الحياة)([2]). وبهذا يمكن إدراك أن الجانب الخفىمن الإنسان الذى يمكن أن يسمى نفسا أو روحا أو ما إلى ذلك قد رمز إليهاالمصريون القدماء بصورة (طائر) ، وفى نفس الوقت لايمكن تحديد التاريخ الذى ترجع إليههذه الفكرة، وإن كانت ، على أية حال، أكثر إيغالا فى القدم من الحضارة اليونانية.

ومن الثابت تاريخيا أن أفلاطون قد زار مصر وتتلمذ على كهنتها كما تجول فى بلاد الشرق وتعرف على الفكر الشرقى القديم، بل إن أفلاطون وسقراط قد تأثرا بتلاميذ مدرسة " فيثاغورس الذىوفد من جزيرة (ساموس)

([1]) أتوملين . و . ف : فلاسفة الشرق ، ترجمة عبدالحميد سليم ، القاهرة، دار المعارف، د. ت ، ٣٨، ٣٩ .

([2]) بريسند، جيمس هنرى : تطور الفكر والدين فى مصر القديمة ، ترجمة زكى سوس ، القاهرة ، دار الكرنك ، ١٩٦١، ص ٩٣.

Samos حوالىسنة ٥٣١ق.م واستقر به المقام فى جنوب إيطاليا، وهناك أسس مايشبه طائفة دينية ، ويبدو أن مجتمعه كانت له أهداف سياسية إلى جانب أهدافه الدينية والفلسفية ... وقد استطاع من بقى من أفراد ذلك المجتمع أن يستمروا فى نشر تعاليمهم فى بلاد الإغريق ذاتها ، وكان سقراط يعرف بعض هؤلاء الأفراد ، ومما لاريب فيه أن كان لمبادئهم تأثير على أفلاطون... ويبدو أن هناك حقيقة واحدة مؤكدة هى أنه ، لأول مرة حول الفلسفة إلى شئ يمكن أن ندعوه دينا ، أو طريقا للحياة ... لاشك أنهم تحدثوا عن الآلهة ... ومع ذلك فإنه يبدو أن شيئا قد حدث فى القرنين السابع والسادس ق.م... شيئا يمكن أن يوصف بأنه إحياء دينى ... كما نلاحظ أيضا أنه نظر إلى الإنسان نظرة مختلفة ، فلقد ظهر تمييز دقيق بين النفس والجسم وقد اعترف (بالغيبوبة) Acstacy التى لايحس فيها المرء بوجوده – على أنها حقيقة ، ونظر إليها على أنها توحى بفكرة عن أصل قدسى فى النفس ، وكان هناك تأمل فى الحياة بعد الموت ، كما وضعت قواعد للمعيشة الطاهرة التى يمكن أن تحقق فوائد من كل هذه الحياة الدنيا والحياة الآخرة "(1).

ويكاد المرء أن يضع يده على السبب الحقيقى لإعدام سقراط، وهو أنه قد جلب فكرا جديدا عن الدين والفلسفة ويخالف المألوف لمعتقدات الأثينيين ومصدر هذا الفكر كان شرقيا فارسيا ، ومن ثم أتى بفكر الاعداء لكى يدمر به معتقدات اليونان ، ومن ثم يكون اليونان قد هزموا مرتين مرة أمام الجيوش الفارسية، ومرة أخرىأمام الفكر الشرقى عموما والفارسى على وجه الخصوص وإلا لماذا جنح فيثاغورس إلى العمل السرى هو وجماعته؟،

---

(1) وورنز، ريكس : المرجع السابق ، ص ١٩،٢٠.

ولعل ماتعرض له أفلاطـون مـن جـانب السـلطة مرتيـن : الأولـى فـى أثينـا ، والثانية فى جنوب إيطاليا لمحاولة البطش به لاتخفى على اللب البصير.

والذى يهم البحث هنا، هو ماذهب إليهأفلاطون مـن هـذا النـوع مـن التصوف الذىظل علما على مذهبـه الفلسـفى ، وكذلـك مـاذهب إليهمـن القـول بتناسخ الأرواح Transmogrification وهـى تلـك العقيـدة التـى قـال عنهـا البيرونى (إنها شـعار الهنـد)[1]. والأكـثر مـن ذلـك أهميـة هنـا هـو تصويـره للنفس الإنسانية ، فى أسطورة العربة بأن هذه النفس ذات ثـلاث قـوى : هـى العقل ، والغضب ، والشهوة وأن العقل هو قائد العربة ، ومن مهمته المحافظة على التوازن بين القوتين الأخريين ، وأن النفوس السماوية متوازنة بطبعهـا ، أما النفوس الإنسانية فهى التى فـى حاجـة إلـى مـايحفظ هـذا التـوازن ، وذلـك بواسطة العقل ، والطريف هنا أن هذه العربة مجنحـة حتـى تسـتطيع الطـيران إلى السماء حيث تحاول الاتحاد بأصلها وهى الـروح الكليـة أو النفـس الكليـة، ومن ثم فقد تنجح، وإذا ماتم لهـا النجـاح فبهـا، والا فإنهـا تهـوى إلـى الأرض بشدة فتتكسر أجنحتها . ولايتهيألهـا محاولـة الصعـود مـرة أخـرى إلا بعـد أن تنموهذه الأجنحة من جديد.[2]

اذن فإن عقيدة تناسخ الأرواح دخيلة علـى الفكـر اليونـانى ، ومـن ثـم فإن مصدرها شرقى ، هندى؛ كذلك فان التفرقة بين الروح أو النفس والجسـد ليس لليونان عهد بها ، قبل فيثاغورس سـرا ثـم سـقراط جهـرا ، وأخـيرا فـإن تصوير النفس طائرا أو عربة لها جناحـان مـن الأفكـار الجديـدة علـى الفكـر

([1]) البيرونى : تحقيق ماللهند من مقولة ص ١١٥.

([2]) قاسم، محمود: فى النفس والعقل بين فلاسفة الاسلام وفلاسفة الاغريق ، القاهرة مكتبة الأنجلو مصرية ، ١٩٦١، ص ٧٨.

اليونانى، كما جاءت فى أساطير أفلاطون وينبغى ألا يفوتنا أن التعبير عن الأفكار والآراء الفلسفية فى شكل الثوب الأسطورى مرده أيضا إلى الشرق، وربما ذهب البعض إلى أن الذى حدى بأفلاطون لاختيار القالب الأسطورى للتعبير عن آرائه الفلسفية هو أنه كان فى شبابه يريد أن يكون شاعرا غير أنه فشل فى ذلك، ومن ثم فانه لجأ إلى هذا القالب لكى يحقق رغبة حبيسة فى نفسه. فأفلاطون – دون شك – قد امتلأ إعجابا بالفكر الشرقى ، وبطرق التعبير الشرقى ، غير أن هذا البعض لايريد أن يعترف للشرق بما له من أصالة سواء فى جانب الفكر الفلسفى أو قوالب التعبير الأدبى . ومهما يكن من شئ فإن القالب الأسطورى المستخدم للتعبير الدينى والفلسفى لم يكن أيضا . غريبا عن الفكر اليونانى ، خاصة اذا تذكرنا أن إلياذه هوميروس وأوديساه كانتا النموذج الملحمىأمام أرسطو وهو يقنن فن الشعر . وهذا بالطبع يجرنا إلى القول بأن الأسطورة بما تعبر عنه من أفكار كانت هى السمة الغالبة للعصور القديمة سواء فى مصر القديمة كما تمثلت فىأسطورة (ايزيس وأوزوريس) ، أو فى (عدو البشر) وغيرهما ،وفى الهند وبلاد فارس ،وبلاد مابين النهرين بما لهذه البلاد من أساطير لايتسع المقام هنا لسردها وتحليلها .

ولعل من أهم من تأثر بأفلاطون من بين فلاسفة الإسلام فى تصوير النفس بالطائر كان الرئيس ابن سينا ، وماقصيدته التى يصور فيها النفس هابطة من السماء لكى تتلبس بالبدن وأنها كانت تغرد تغريدا حزينا لفراقها حماها ولغربتها فىهذا البدن الذىافقدها كثيرا مما كانت تنعم به فى حياتها السابقة حيث كانت طليقة حرة لايعوقها عن الإدراك شئ، من عوائق المادة وأنها تشتاق إلى يوم خلاصها من سجنها الذى قدر لها أن تقع

فى شراكه،ولذلك فهى تعمل على التخلص مما علق بها من هذه الشراك،وسعادتها لاتتم إلا عندما ترجع إلى أصلها صعدا فى عالم السماوات.([1])

([1]) هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاءذات تعزز وتمنع

محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ولم تتبرقع

وصلت علىكره إليك وربما كرهت فراقك وهى ذات تفجع

أنفت وما أنست فلما واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع

وأظنها نسيت عهودا بالحمى ومنازلا بفراقها لم تقنع

حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها من ميم مركزها بذات الأجرع

علقت بهاثاء الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلول الخضع

تبكى إذا ذكرت ديارا بالحمى بمدامع تهمى ولم تتقطع

وتظل ساجعة على الدمن التى درست بتكرار الرياح الأربع

إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها قفص عن الأوج الفسيح المربع

حتى اذا قرب المسير إلى الحمى ودنا الرحيل الى الفضاء الأوسع

سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ماليس يدرك بالعيون الهجع

وغدت مفارقة لكل مخلف عنها حليف الترب غير مشيع

وبدت تغرد فوق ذروة شاهق والعلم يرفع كل من لم يرفع

فلأى شئ أهبطت من شامخ سام الى قعر الحضيض الأوضع

إن كان أرسلها الاله لحكمة طويت عن الفطن اللبيب الأروع

فهبوطها – إن كان ضربة لآرب – لتكون سامعة بما لم تسمع

وتعود عالمة بكل خفية فى العالمين فخرقها لم يرقع

وهى التى فطن الزمان طريقها حتى لقد غربت بغير المطلع

فكأنها برق تألق بالحمى ثم انطوى فكأنه لم يلمع

أنظر : مقدمة الناشر لكتاب منطق المشرقيين لابن سينا ، القاهرة ، المكتبة السلفية، ١٩١٠، ص : كب ، كج .

وبهذه الصورة الرمزية للنفس الإنسانية ، عرف العالم الإسلامى مـاذا يعنى ذلك الرمز .

مما سبق يتضح أن تصوير النفس فى صورة طـائر قد دخل المجـال الفلسفى ابتداء من الشرق ثم انتقل إلـى المجـال الثقـافى اليونـانى ثـم عـاد إلـى الشرق مرة أخرى كما هو واضح من استخدام ابن سينا له.

وتجدر الإشارةهنا إلى أن عادة العرب قبل الإسلام فى ضرورة الأخذ بثأر القتيل من قاتله ، قد دفعتهم إلـى اصطنـاع أسـطورة كـانت بالنسـبة لهـم بمثابة العقيدة . وهذه الأسطورة مغزاها أن روح القتيل تظل تحوم حـول قـبره أو تقف على هذا القبر باكية تنادى أهل القتيل وتقول لهم اسقونى وتظـل هكـذا مالم يأخذ أهل القتيل بثأره، فإذا أخذوا بالثأر كفت عن هذا البكـاء أو النـداء . وهذا يعنى أن الجاهليين من العرب كانوا يعتقدون أن الجسد شـئ والـروح أو النفس شئ آخر، وأن هذه الـروح تظـل حيـة لاتمـوت ، وأنهـا لاتبـارح مكـان صاحبها بعد موته .

من أين للعرب هـذه العقيـدة ، وذلـك الرمـز ؟ونعنـى بـالعقيدة اسـتقلال الروح عن الجسد ، أما الرمز فهو الطائر الذى لايفتأ باكيا مناديا أهـل القتيـل. ولاشك أنه كان للجاهليين فكرهم وعقائدهم التى إن لم تكن من بنـات أفكـارهم ، فهم قد تأثروا فيها بما كـان منتشـرا حولهـم مـن عقـائد وأفكـار مجوسـية أو هندية أو يهودية أو مسيحية أو مصرية قديمة ، أو كلدانية ، فقد ذكر الجـاحظ قصـة الحمامـه والغـراب فـى سـفينة نـوح التـى رواهـا هـو عـن النضـر بـن

الحارث([1]) ولها أصل فىالتوراة فى سفر التكوين([2])، فلم يكـن العـرب إذ ذاك بمعزل عن هذه الثقافات ، خاصة أن القرآن يحدثنا عن عقائد اعتنقها كثير من العرب تتصل بهذه الثقافات .

والحـق أن إنطـاق الحيـوان بعامـة والطيـور خاصـة بالحكمـة والآراء الفلسفية انطلق أصلا من الثقافة الهندية مارا بالفهلوية وأصلا إلـى اليونـان ثـم إلى العرب .

وفـى مجمـع الأمثـال للميدانـى كثـير مـن الأمثـال العربيـة الجاهليـة الموجزة التى كانت تلخص تجارب وأفكار السابقين ، ومن هذه الأمثال ماجـاء علـى لسـان الحيـوان والطيـور فضـلا عـن الآدميين ، وقـد عنـى المؤرخـون العرب القدماء ودارسو الأدب بمثل هذه الأمثال حتى عدوهـا فنـا أدبيـا ونثريـا مستقلا بذاته ، وعكفوا على تشريح هـذه الأمثـال ممـا أطلقوا عليه مضـرب المثل ومورده ، وقد قصدوا بمضرب المثل ، الموقف الذى يصـح فيـه التمثل به، أما المورد فقد عنوا به القصة الأصلية التى انطلق من خلالهـا هـذا المثـل وهى فى الأصـل خرافـة أو أسـطورة ، غالبـا ماكـانت علـى لسـان الحيـوان ، ولاشك أن هذه الخرافـات أو الأسـاطير كـانت سـائدة فـى ذلـك العصـر ، لأن تركيز المثل فى جملة قصيرة دون شرح أو تطويل يعنى أن أصل قصة المثل الأسطورية كانت ماثلة فى عقول وضمائر السـامعين، فليسـوا فـى حاجـة إلـى سردها وعرضها .

([1]) الجاحظ : الحيوان ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ١٣٥٦هـ-١٣٦٦هـ، ج ٢، ص ٣٢٠ - ٣٢٤.

([2]) سفر التكوين ، اصحاح ٨ ، آيات ٦-١٢.

وقد أصبحت القصة على لسان الحيوان عموما فنا أدبيا مستقلا مع نهاية العصر الأموى وبداية العصر العباسى بعد أن قام ابن المقفع بترجمة كتاب (كليلة ودمنة) من اللغة الفهلوية إلى اللغة العربية ، وكان هذا الكتاب مترجما من الهندية إلى الفهلوية . وقد اهتم العرب بهذا الكتاب اهتماما عظيما، وأصبح منذ ذلك الحين فنا معتبرا من فنون النثر فى الأدب العربى. ويذكر بعض الباحثين أن كتاب كليلة ودمنة له ترجمات أخرى غير ترجمة ابن المقفع لكنها لم تصل الينا([1]). ولم يقتصر اهتمام العرب به على ترجمته بل إن منهم من ألف خرافات على ألسنة الحيوان كما فعل سهل بن هارون فى تأليفه شعرا لكتاب " ثعلة وعفرا" وقد نظم كتاب كليلة ودمنة شعرا على يدى ابن الهبارية.([2])

ويذكر الباحثون أن كتاب (ألف ليلة) الذى يرجع الىأصل فارسى فى كتاب يسمى(هزار أفسانة) يشبه إلى حد بعيد كتاب كليلة ودمنة ، إذ إنه "متأثر – فى أصله وقالبه العام – بالقصص الهندى كما تدل علىذلك طريقة التقديم لكثير من القصص بالتساؤل ، على نحو مافى كليلة ودمنة ، ثم تداخل القصص فى كلا الكتابين ، إذ إن كل قصة رئيسية تحوى قصصا عديدة ، وكل قصة من هذه القصص الفرعية قد تحتوى على قصة أو أكثر متفرعة منها كذلك، ويتبع ذلك دخول شخصيات جديدة إذ كانت القصة لشخوص من الناس ، أو دخول حيوانات كذلك ، بدون انقطاع ولأدنى مناسبة ،ثم إن فى

([1]) هلال ، محمد غنيمى : المدخل الى النقد الأدبى الحديث .، ص ٥٣٣.

([2]) المرجع السابق ، نفس الصفحة ، وانظر محمد غنيمى هلال أيضا : الأدب المقارن ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ص ٩٦-٩٨.

(الف ليلة وليلة)- وخاصة فى مقدمتها - كثيرا من قصص الحيوان التى تشبه نظيرتهافى كليلة ودمنة "([1]).

ويبدو أن التأثير والتأثر قد حدث فى الفلسفة كما هو فى الأدب ، بين الفرس واليونان منذ عهد بعيد ، حين كان الصراع محتدما بين الجانبين فى حروب متواصلة . فيذهب بعض الباحثين إلى أنه ربما يكون كاتبو ألف ليلة وليلة قد تأثروا بالأساطير اليونانية ([2])، مثل قصة السندباد البحرى ومخاطراته فىالجزر المهجورة ، المسكونة بالوحش ذى العين الواحدة ، وبالمخلوقات العجيبة، ثم نجاته منها بأعاجيب، وفوزه بالثراء الطائل ، ففى القصة شبه كبير - فى بعض مواضعها - بملحمة الأوديسا لهوميروس ويذهب هذا الباحث إلى أنه من المحتمل أن تكون هناك ترجمة عربية للأوديسا وقلد المؤلف لهذه القصة من قصص ألف ليلة وليلة ما جاء فى أساطير الأوديسا([3])إذ يفترض هذا الباحث أن قصة ألف ليلة وليله قد أضيف إلى أصلها الفارسى بعض القصص التى ألفها المترجم الذى ترجمها إلى العربية .([4])

ويلاحظ هنا أن كتاب كليلة ودمنة يختلف فى مضمونه الفكرى عن ألف ليلة وليلة . فألف ليله وليلة زاخر بالخيال والمخاطرات وعالم السحر والعجائب والرابطة بين حوادثها مصطنعة تمتد فى الزمن الذى يحل فيه

([1]) هلال ، محمد غنيمى : مدخل الى النقد الأدبى الحديث ، ص ٥٣٤.

([2]) المرجع السابق ، نفس الصفحة.

([3]) محمد غنيمى هلال : مدخل الى النقد الأدبى الحديث ، ص ٥٣٤.

([4]) المرجع السابق ، ص ٥٣٤.

القاص حكايته متتابعة كما يشاء[1]أما كليلة ودمنة فجميع قصصه ذات مضمون فلسفى ، حيث إن القاص هو (بيدبا الفيلسوف) كما جاء فى جميع هذه القصص . ومن ثم فإننا نتوقع أن تكون هى صاحبةالأثر الكبير فيما ظهر بعد ذلك من قصص علىألسنة الحيوان عامةوالطيور خاصة عند إخوان الصفاء وابن سينا والغزالى وفريد الدين العطار ، لامن حصة المضمون الفكرى الفلسفى بل من جهة اصطناع هذا القالب الرمزى للتعبير عن المضمون الفلسفى لدى هؤلاء، إذ من المتوقع أن يكون لكل مذهبه الفلسفى الخاص به وإن كان ثمة علاقة من قريب أو بعيد للخط الفكرىالعام لديهم. أما الذى وشج الروابط بينهم فهو القالب الرمزى التعبيرى المتمثل فى إنطاق مالاينطق .

إذ ليس الهدف هنا فقط هو رصد القصص الرمزى على لسان الحيوان أو الطيور فحسب، بل رصد هذا النوع من القصص الذى يعبر عن مذهب فلسفى متكامل ، أو علىالأقل، عن وجهة نظر فلسفية ، كما أنه ليس الهدف كذلك رصد القصص الفلسفى عموما .وإلا لدخل معنا هنا قصة حى يقظان لابن طفيل ،وقصة سلامان وإبسال لابن سينا ،وكذلك قصة حى بنيقظان لابن سينا ، كما جاء فى رسالة القدر[2]، وحى بن يقظان ،وكذلك كان من الممكن أن يدخل معنا فى هذا السباق رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى. فجميع هذه القصص يحمل طابعا رمزيا فى الشكل ،وطابعا فلسفيا

---

[1] المرجع السابق ، ص ٥٣٤ وانظر :
Forster, E. M., : Aspects of the Novel, London , 1942, p. 227.

[2] انظر ابن سينا ،رسالة القدر ، ليدن ، ١٨٩٩ وانظر : أمين ، أحمد: حى بن يقظان لابن سينا وابن طفيل ، والسهروردى، القاهرة ، دارا لمعاف ، د. ت .

فى المضمون . ولكن من الأوفق الإشارةإلى هذا النوع من القصص فى هذا التمهيد ، لأنها وإن بعدت عن الجانب الرمزىمن خلال الحيوان أو الطير ، فإنها تقترب من موضوعنا فى جانب مضامين هذه القصص الفلسفية، علىأنه مما يقرب بين هذا النوع من القصص الفلسفى الرمزى ، وبين النوع الأول الذى يتخذ الحيوان والطيرخاصة، قالبا رمزيا له، هو أنه ربما يكون الدافع الذى حدا بأصحاب هذين النوعين واحد أو هو اصطناع الرمز عموما للتعبير عن المضامين الفلسفية التى قد يضن بها أصحابها عن أن يطلع عليها من ليس أهلا لها،[1] أو تحرز من مؤاخذة الجمهور لهؤلاء الفلاسفة على مايذهبون إليهمن آراء فلسفية تخالف معتقد العامة، أو غير ذلك من الدوافع لاسيما اذا تذكرنا أن إخوان الصفاء قد كتموا أسماءهم مما دفع الباحثين منذ نشر رسائلهم إلى تخمين أسماء هؤلاء، وربما كان الدافع السياسى هو الذى حدى بهؤلاء الإخوان إلى كتم أسمائهم على هذا النحو.

وعلينا إذن أن نشرع فى عرض هذه القصص الرمزية الفلسفية التى لم تلتزم الرمز الحيوانى أو الطيرى ، لأنها وإن كانت مختلفة عما نحن بصدده، فانها مع ذلك – كما سبق – لاتبعد كثيرا عن المغزىالذى قصده بها أصحابها من التعبير عنه فىالنوعين السابق الإشارة إليهما . خاصة أن بعضها كان ذا مؤلف واحد مثل ابن سينا مثلا الذى اتخذ الطير رمزا له فى إحدى قصصه، واتخذ رمزا آخر غير الطير فى البعض الآخر.

([1]) انظر ابن سينا رسالة العهد الذى أخذه على من يطلع على آرائه ، ضمن مجموعة أرسطو عند العرب ،تحقق عبدالرحمن بدوى ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، ص ٢٢٧.

ومن هنا نبدأ بعرض قصتين لابن سينا ذواتي طابع رمزى لم يكن الرمز فيهما طيرا أو حيوانا وهما قصة (سلامان وإبسال) و (حى بن يقظان).

أما قصة سلامان وإبسال فإن لها مشكلة مهمة نشات بسبب إشارة ابن سينا إليها، تحت الفصل الأول من (مقامات العارفين) من كتابه (الإشارات والتنبيهات) حيث يقول:" إن للعارفين مقامات ودرجات يخصون بها وهم فى حياتهم الدنيا ، دون غيرهم ،فكأنهم وهم فى جلابيب من أبدانهم ، قد نضوها وتجردوا عنها ،إلى عالم القدس ،ولهم أمور خفية منهم ، وأمور ظاهرة عنهم، يستنكرها من ينكرها،ويستكبرها من يعرفها ، ونحن نقصها عليك واذا قرع سمعك فيما يقرعه ،وسرد عليك فيما تسمعه ،قصة لسلامان وإبسال ، فاعلم أن سلامان مثل ضرب لك وأن (إبسال) مثل ضرب لدرجتك فى العرفان، إن كنت من أهله، ثم حل الرمز ، إن أطقت "([1]).

ومع إشارة ابن سينا هنا إلى قصة(سلامان وإبسال) ، ونصه علىأنها قصة رمزية ، وسلامان هو الإنسان على العموم ،وإبسال هو درجته فى الترقى نحو المعرفة ، أقول مع ذلك فقد وردت قصتان كلاهما باسم (سلامان وإبسال) وقد أوردهما نصير الدين الطوسى ، شارح كتاب الإشارات والتنبهات وذهب الشارح إلى أن إحدى القصتين مختلقة والأخرى صحيحة وذلك لعدة أسباب :

([1]) ابن سينا : الاشارات والتنبيهات ، تحقيق سليمان دنيا ، القاهرة ، دار المعارف ، ج ٤، ص ١ ، وانظر أيضا ، على سامى النشار ، ومحمد على أبوريان : قراءات فى الفلسفة،القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ط ١ ، ١٩٦٧ ، ص ٥٧٢.

١- أن القصة المختلقة رويت على أن حنين بن اسحاق ترجمها ، من اليونانية إلى العربية،أما الثانية فإن أبا عبيد الجورجانى تلميذ ابن سينا قد ذكرها ، ضمن مصنفات الشيخ الرئيسى فليست إذن مترجمة .

٢- أن القصة الأولى لاتتفق مع ماذكره الشيخ الرئيس فى قصة نصه السابق من أن سلامان ضرب مثلا للإنسان، وإبسال ضرب مثلا لدرجته فى العرفان . بل العكس - كما سيتضح من عرض هذه القصة فيما بعد- فإن إبسال هو يعادل من ناحيةالرمز - البدن الذى من شانه أن يصرف الإنسان عند تعلقه به عن العرفان .

أما القصة اثانية ، فإن رموزها تتطابق مع مايريده ابن سينا من الترقى فى مقامات العرفان .

٣-إن ابن سينا لايدعو القارئ لكتابه الاشارات إلى أن يتعلق بالمستحيل " والذى ذكره الشيخ هنا (أى القصة الأولى) التى تذكر فيها صفات يختص مجموعها بشئ اختصاصا بعيدا عن الفهم ، يمكن الاهتداء إليه، ولاهى من القصص المشهورة ، بل هما لفظتان وضعهما الشيخ لبعض الأمور، وأمثال ذلك مما يستحيل أن يستقل العقل بالوقوف عليه ، فإذن تكليف الشيخ حله يجرى مجرى التكليف بمعرفة الغيب ".

٤- ذهب بعض المفسرين للقصة الأولى ، إلى أن المراد بسلامان آدم عليه السلام وإبسال الجنة فكأنه قال المراد بآدم نفسك الناطقة، وبالجنة درجات سعادتك ، وبإخراج آدم من الجنة عند تناول البر ، وانحطاط نفسك عن تلك الدرجات عند إلقائها إلى الشهوات ،وكلام الشيخ مشعر بوجود قصة ،يذكر فيها هذان الاسمان . وتكون سياقتها مشتملة على ذكر طالب

بالمطلوب لايناله الا شيئا فشيئا ، ويظفر بذلك النيل لكمال بعد كمال ، ليمكن تطبيق سلامان على ذلك الطالب ، وتطبيق إبسال على مطلوبه ذلك، وتطبيق ماجرى بينهما من الأحوال على الرمز الذي أمر الشيخ بحله .

٥- إن القصة الأولى يمكن أن تنطبق على ماروى عن العرب من قصص وحكايات لأن هاتين اللفظتين: سلامان وإبسال تجريان عند العرب مجرى المثل . فقد سمع نصير الدين الطوسى من بعض الأفاضل بخراسان يذكر أن أبن الأعرابى أورد فى كتابه (النوادر) قصة ذكر فيها رجلين وقعا فى أسر قوم ، أحدهما مشهور بالخير ، اسمه سلامان ، والآخر مشهور بالشر اسمه إبسال من قبيلة (جرهم) فقدت سلامان لشهرته بالسلامة وأنقذ من الأسر ، وبقى إبسال فى الأسرلشهرته بالشر، حتى هلك ، وصار لكل منهما فى العرب مثل يذكر فيه خلاص سلامان وهلاك إبسال.

ويعلق الطوسى على هذه الرواية بأنه لم يسبق له أن سمع بهذا المثل. كما أنه لم يطلع علىهذا الكتاب ، ولايفوت الطوسى أن يبدى رأيه فى أصل القصة الأولى بقوله " وهذه قصة اخترعها أحد عوام الحكماء، لينسب كلام الشيخ إليهعلى وضع لايعلق بالطبع ، وهى غير مطابقة لذلك "([1]).

أما القصة اولى - التى هى من وضع أحد عوام الحكماء - فتدور أحداثها على النحو التالى :

كان فى قديم الدهر ملك لليونان والروم ومصر ، وكان يصادقه حكيم فتح بتدبيره له جميع الأقاليم ،وكان الملك يريد أن يكون له ابن يقوم مقامه ،

([1]) أنظر تعليق الطوسى على القصتين فى آخر كتاب . تسع رسائل فى الحكم لابن سينا، القاهرة ، هندية ١٩٠٧.

من غير أن يباشر امرأة ، فدبر الحكيم تدبيرا ، حتىتولد من نطفة الملك ابن من غير رحم امرأة ، وسماه سلامان ، فأرضعته امرأة اسمها إبسال، وربته،وعند بلوغه عشقها ولازمها ،ودعته إلى نفسها ، ونهاه أبوه عنها ، وأمره بمفارقتها ، فلم يطعه ، فهربا معا إلى ماوراء بحر المغرب ، وكان للملك آلة يطلع بها على الأقاليم ومافيها، فاطلع بها عليهما ، فرق لهما ، فأعطاهما ماعاشا به ، ثم إنه غضب من تمادى سلامان فى ملازمة إبسال ، فجعلهما بحيث يشتاق كل إلى صاحبه ، ولا يصل إليه، مع أنه يراه فتعذبا بذلك برهة ، وفطن سلامان إلى ذلك لابد أن يكون من فعل أبيه ، فرجع إليه معتذرا ، ونبهه أبوه إلى أنه لايمكنه الوصول إلى الملك الذى رشح له مع عشقه لإبسال الفاجرة، فأصاب الغم " سلامانا لذلك ، فوضع يده فىيد إبسال . وألقيا نفسيهما فى البحر ، فخلصته روحانية الماء بأمر الملك ، أما إبسال فقد غرقت ، فاغتم سلامان لغرقها ، فلجأ الملك إلى الحكيم فى أمر سلامان. فقال الحكيم لسلامان،اذاأطعتنىأوصلت إبسالا إليك ، فأطاعه فأراه صورتها فيتسلى بذلك ، رجاء وصالها ، إلى أن أصبح مستعدا لمشاهدة صورة (الزهرة) فأراه الحكيم إياها بدعوته لها، فشغفه حبها، وبقيت صورتها معه دائما،وبذلك أصبح لايشتاق لخيال إبسال ،ومن ثم صار مستعدا للملك، وبنى الحكيم الهرمين بإعانة الملك له،فأخذ الملك هرما لنفسه ، ثم وضعت هذه القصة مع جثتيهما فىهذين الهرمين ، ولم يتمكن أحد من إخراجها، غير أرسطو ، فإنه أخرجها، بعد أن علمه أستاذه أفلاطون سر فتح الهرمين. وانتشرت القصة منذ ذلك ، ونقلها حنين بن إسحاق من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية .

أما القصة الثانية – التى يذكر الطوسى أنها وقعت إليه بعد عشرين سنة من شرحه لكتاب (الإشارات) عن طريق أبى عبيد الجوزجانى كما سبق. فتدور أحداثها على النحو التالى :

كان سلامان وإبسال أخوين شقيقين ، وكان إبسال أصغرهما وقد تربى بين يدى أخيه ، ونشأ صبيح الوجه عاقلا متأدبا عالما عفيفا شجاعا ،وقد عشقته امرأة سلامان ، وقالت لسلامان زوجها : اخلطه بأهلك ، ليتعلم منه أولادك، فأشار عليه سلامان بذلك، فأبى إبسال من مخالطة النساء ، فقال له سلامان: إن امرأتى لك بمنزلة أم ، ووافق إبسال ،واختلط بأهل أخيه ، فأكرمته زوجة أخيه ، وبعد فترة صارحته بعشقها له ، فأعرض عنها إبسال ونفر منها ، فعلمت أنه لن يطاوعها ، فقالت لسلامان : زوج أخاك من أختى، فزوجها له ، وقالت زوجة سلامان لأختها : إنى مازوجتك لإبسال ليكون لك خاصة، بل لكى أشاركك فيه. ثم قالت لإبسال:إن أختى بكر حيية ، فلا تدخل عليها نهارا ولاتكلمها إلا بعد أن تستأنس بك . وليلة الزفاف ، باتت زوجة سلامان فى فراش أختها ، ودخل إبسال عليها ، فلم تملك نفسها ، وبادرت بضم صدرها إلى صدره ، فارتاب إبسال ، وقال فى نفسه: إن الأبكار الحواب لاتفعل مثل ذلك ، وحدثت بعد ذلك أحداث لايتسع المقام لسردها .

إن الرأى الذى يميل إليهالمرء، هو أنه ربما كان المثل العربى الذىيشير إلى هذه القصة وماكتبه ابن سينا يرجعان إلى أصل واحد ، بل ربما كانت القصة التى استبعدها الطوسى عن النسب لابن سينا ايضا ، الثلاثة مجتمعة ترجع إلى أصل مشترك هو فى الأغلب يونانى ، بل ربما كانت هذه القصة التى نسبها الطوسى إلى بعض عوام الحكماء هى الأصل ، ثم استفاد

منها ابن سينا ، وغير فى أحداثها حتى يتواق الرمز فيها مع مايريده الشيخ الرئيس من طرحه لبعض آرائه هو .

والذى يسند هذا الاحتمل ، هو ماحدث لقصة حى بن يقظان لابن طفيل الذى عاش مابين بلاد الأندلس والشاطئ الإفريقى فى عصر الموحدين. فقد عثر أحد الباحثين الأسبان وهو أميليو جدرسيه جوميز فى مكتبة الأسكوريال ، على قصة بعنوان " قصة ذى القرنين وحكاية الصنم والملك وابنته " وبعد دراسة هذه القصة ومقارنتها بقصة (حى بن يقظان) لابن طفيل وجد هناك بعض أوجه الشبه وبعض اوجه الخلاف بينهما فرجح أنه ربما كانت قصة الصنم هذه هى الأصل الذى استلهمه ابن طفيل . وأيده فى هذا الفرض من بعيد د. ك . بتروف فى تعليقه على الترجمة الروسية لقصة (حى بن يقظان) لابن طفيل .([1])

ولننتقل الآن إلى نمط آخر من قصص الرمز الفلسفى شاع فى أوساط الفلاسفة المسلمين، وكان له أثر بعيد على المستوى العالمى إذ إن بعض قصص هذا النوع قد ترجم إلى عدة لغات أجنبية([2]) ونعنى بهذا النوع قصة(حى بن يقظان) لابن سينا وابن طفيل والسهروردى التى أشرت إليها سابقا ،ويظهر أن (حى بن يقظان) الرمز كان شائعا فى الأوساط الفلسفية قبل ابن سينا نفسه بدليل أنه يتحدث عنه مرتين : الأولى فى رسالته (القدر)([3]) أو (رساله فىالقضاء والقدر)([4])، والثانية تخصيص قصة بهذا

([1]) أمين، أحمد : حى بن يقظان لابن سينا ، وابن طفيل ، والسهروردى، القاهرة ، دار المعارف ، د. ت. هامش ص ١٢ .

([2]) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

([3]) انظر، ابن سينا : رسالة (القدر) ط ليدن ، ١٨٩٩م .

الاسم (رسالة حى بن يقظان)([1])، ففى الأولى يشير ابن سينا الىأن (حيا) هذاهو شيخ جاء من بعيد بعد أن احتدم الجدل بينه وبين أحد المتكلمين حول (القضاء والقدر) . وإذ بهذا الشيخ يوجه كلامه إلى المتخاصمين قاطعا الشك باليقين مبينا الرأى السديد فى هذه المشكلة وبالطبع أن ماجاء فى كلام الشيخ هذا ، ليس الا مايريد ابن سينا أن يقوله ، وإن كان رمز ابن سينا كما هو واضح إلى أن ماذهب إليهمن الرأى ليس إلا من طريق العقل الفعال الذى رمز إليه بالشيخ الذى سماه (حى بن يقظان) .

أما الثانية فجريان القصة كلها حول محور واحد هو (حى ابن يقظان الرمز).

ويذهب بعض الباحثين إلى أن قصة (حى بن يقظان) لابن سينا " تشبه فى جوهرها كتابا يونانيا اسمه (إيمن دريس حافظ الناس) منسوبا إلى (هو ملص) وهو محاورة امتزج فيها المذهب الأفلاطونى بمذاهب قدماء المصريين ، وقد عرف هذا الكتاب وأشار إليهاالقفط فى تاريخ الحكماء"([2]) والقارئ لمستهل القصة كما ذكر ابن سينا يلحظ أن (حى بن يقظان) كانت معروفة قبل ابن سينا إذ يستهلها بقوله " وبعد فإن إصراركم معشر إخوانى على اقتضاء شرح قصة حى بن يقظان هزم لجاجى فى الامتناع ، وحل عقد عزمى فى المماطلة والدفاع ، فانقدت لمساعدتكم ، وبالله التوفيق".([3])

([4]) انظر : النشار وأبوريان : قراءات فى الفلسفة ، مصدر سابق ، ص ٦٠٥-٦٢٢.

([1]) المرجع السابق : ص ٦٢٣.

([2]) أمين ، أحمد: حى بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهر وردى ، ص ١٧.

([3]) المرجع السابق ، ص ٤٣، وانظر أيضا ، النشار وأبوريان ، قراءات فى الفلسفة ، ص ٦٢٣.

وتدور أحداث القصة حول ابن سينا ومن كان معه من رفاق يتبادلون الطرائف ، إذ ظهر لهم شيخ من بعيد ، لم ينل الضعف منه وإن كانت عليه سيما الرزانة والوقار، وقد وجد منه ابن سينا حلاوة فى الحديث ، حتى انتهى بهم القول إلى سؤاله عن اسمه ، وسنه ،وبلده ، فأجابهم الشيخ : بأن اسمه (حى بن يقظان) ، وأن بلده هو (مدينة بيت المقدس) ،وأما حرفته فهى السياحة فى الأقطار والعوالم حتى أحاط بها خبرا ، وأن وجهه دائما إلى أبيه الذى اعطاه كل مفاتيح العلوم .

ومازال ابن سينا ورفاقه يطارحونه البحث فى مختلف العلوم حتى انتهوا إلى علم الفراسة ،الذىوصفه الشيخ بأنه علم يعود على صاحبه بالنفع الكبير، وليس الناس فيه هنا متساويين ، بل " يعلن مايسره كل من سجيته ، فيكون بتسلطك إليه، وتقلصك عنه بحسبه . فالفراسة لتدل منك على عفو من الخلائق، ومنتقش من الطين، وموات من الطبائع، وإذا مستك يد الأصلاح أتقنتك ، وإن خرطك العار فى سلك الذلة انخرطت ، وحولك هؤلاء الذين لايبرحون عنك ويسترسل (حىبن يقظان) فى تصوير حال مخاطبه الذى هو ابن سينا ، فيبين له أن رفقاءه - رفقاء ابن سينا - ثلاثة : واحد أمامه ، وواحد عن يساره ،وواحد عن يمينه ، أما الأول فلابد له منه ،ولايمكن الاستغناء عنه ،مع وجوب الحيطة والحذر ، لأنه يخلط الحق بالباطل ، فهو الذى يقوده ويزوده بالمعارف ، غيرأنه ينبغى له ان يتحسس ويفحص كل مايأتى به من المعارف ، حتى يتبين الصحيح من الخطأ. والحق من الباطل ، أما الذى عن يساره فهو الغضب والذى عن يمينه ، فهو الشهوة ، ويتوجه الشيخ إلى نصيحة ابن سينا بأنه لابد له من ضبط هذين الصاحبين : الأيمن والأيسر، فالأيمن من طبيعته أنه أهوج، بينما الأيسر من طبعه أنه شره نهم ،

فإذا كان له أن يروضهما إلى أن يحدث توازن بينهما، فعليه أن يسلط الأهوج على الشره النهم ، أى يسلط الغضب على الشهوة ، أما الصاحب الثالث الذى هو فى جهة الإمام ، فلا تقبل منه أية معلومات يزجيها إليك، حتى يأتيك من الله موثقا غليظا.

ويقرر ابن سينا فى سياق عرضه أنه فعلا قد استثبت من صحة كلام الشيخ ، حينما بدأ يتعامل مع هؤلاء الثلاثة ، على الطريقة التى نصحه بها (حى بن يقظان) .

ثم أخذ ابن سينا يسأله عن سبيل السياحة، فأجابه بأن سبيل السياحة مسدود عنك، إلا إذا تفردت عن هؤلاء الثلاثة الرفقاء ، ولن يحدث ذلك إلا بموعد محدد لايتخلف ، ومع ذلك ، فما دمت مصاحبا لهؤلاء الثلاثة ، فإن سياحتك لن تكون إلا الفينة بعد الفينة، لأنك تكون مشدودا إليهم حينا ، وإلى السياحة تجاهى حينا آخر، إلى أن يأتى اليوم الذى تتبرأ فيه منهم نهائيا.

ثم سأله ابن سينا أن يصف له الأقاليم التى يعلمها، فأجابه بأن حدود الأرض ثلاثة: حد يحده الخافقان ، وهذا الحد قد ترامت أخباره إليكم بالتواتر، وأصبح كل مايحتويه معلوما ،أما الحدان الآخران فهما حد المغرب وحد المشرق ، وبين كل من هذين الحدين وبين البشر منطقة محرمة ، لايجوزها من البشر إلا الخواص الذين اكتسبوا فضلا لايتاح لهم بمجرد الفطرة ، ولن يستطيع الإنسان اكتساب هذا الفضل إلا بالاغتسال فى العين الخرارة التى توجد فى القطب ، فمن خاضها واغتسل بها خف علىا لماء والجبال الشواهق، وهذه العين يحف بها النور من كل جانب .

ثم سأل ابن سينا (حيا) عن الحد الغربى ، فأجاب بأنه بحر حامئ، تغرب الشمس فيه ، لأنها تغرب فى عين حمئة ، عماره غرباء والظلمة معتكفة فيه ، وسكانه متناوبون ، يذهب سكان ويأتى آخرون ، فيه حيوان ونبات وإنسان ،وهو إقليم خراب سبخ مشحون بالفتن والخصومات ، ووراء هذا الإقليم من جهة محط السماء ، اقليم آخر يشبه الأول من بعض الوجوه، وسكانه غرباء أيضا ،إلا أنه يسترق النور من شعب غريب، ولكنه أقرب إلى كوة النور من الإقليم السابق ، وإذا كان الإقليم السابق هو مرسى قواعد الأرض ، فان هذا الإقليم هو مرسى قواعد السماء ، وليس بهذا الإقليم خصام، ولا يغتصب أحد من أحد شيئا، ولا يعتدى أحد من مسكانه على غيره، والأمم التى تسكن هذا الإقليم، لايتغالبون على بعضهم البعض، وينقسم هذا الإقليم تسعة ممالك : ثمان منها معمورة ، والتاسعة لم يصل إليها أحد حتى هذا الزمان ، وسكانها من الملائكة الروحانيين، لاينزلها البشر، ومن هذه المملكة ينزل على ماليها من الممالك الثمانية الأمر والقدر .

أما إذا توجهت تلقاء المشرق ، فإنك تجد إقليما لايعمره بشر ولا نجم ولا شجر ولاحجر ، وإنما هو بر رحب ويم غمر، ورياح محبوسة ونار مشبوبة ، ويليه إقليم من الجبال والمعادن الثمينة والخسيسة، لكنه لانبات فيه، والإقليم الذى يليه فيه من الأصناف السابقة فى الإقليم السابق ويضاف اليها أنواع النبات والأشجار ، لكنه خال من الحيوان بجميع أصنافه. والإقليم الذى يليه تجتمع فيه أصناف المعادن والنبات بالإضافة إلى جميع أصناف الحيوان الأعجم، فلا أنيس فيه ، ثم تخلص منه إلى عالمكم هذا الذى تعرفونه عيانا وسماعا.

فإذا قطعت سمت الشرق ، وجدت الشمس تطلع بين قرنـى الشيطان: قرن يطير وقرن يسير ، فالذى يسير فيه قبيلتان عن يسار المشرق ، إحداهمـا فى خلق السباع، والأخرى فى خلق البهائم .

والقرن الذى يطير تقع عن يمين المشرق منه خلق يبدو فى خلقيـن أو ثلاثة أو أربعة كإنسان يطير ، وثعبان له رأس خنزير وهكذا ،وفى هذا الإقليم سكك خمس مثل سكك البريد ، تصـل الأخبـار بواسطتها إلـى قيـم فـى كتـاب مطوى لايعلم هذا القيم من محتواه شيئا ، وكل ماعليه أن يوصلـه إلـى خـازن يعرضه بدوره علىالملك .وماهو مدون فى الكتـاب مـن الأخبـار منـه مـا هـو أسرى ومن ماهو آلات لهؤلاء الأسرى، فالأسرى يتكفل هذا الخازن بحفظهـا، وأما آلاتها فيتكفل خازن آخر بحفظها وكلما استأسروا من عالمكم أصنافا من الناس والحيوان وغيره تناسلوا على صورهم مزاجا منها .

على أن هذين القرنين المشار إليهما سلفا ، وهما السيارة والطيارة فإن لهما زيارات إلى عالمكم . فالسيارة يزينون للناس الظلـم والجـور أو يسـولون لهم الفحشاء والفجور . أما الطيارة فإنها تسـول للإنسـان خلـط الحـق بالبـاطل والسجود للأصنام والتكذيب بالآخرة .. وهكذا .

وهناك طوائف منتسبة إلى القرنين السيار والطيـار ، وهـذه الطوائـف تسكن حدود إقليم وراء اقليمكم وهذا الإقليم تعمره الملائكة الأرضية ،وهـذان القرنان يسـيران بسير الملائكـة تركـت غوايـة المـرأة وسـارت سـير الطيبيـن وهـؤلاء الطوائـف اذا خـالطوا النـاس لايعبثـون بهنـم ولايضلونهـم ،بـل إنهــم يساعدونهم على التطهر . ومن توغل وراء هذا الإقليم إلى إقليم الملائكة يجـد أن هناك حدا فى هذا الإقليم متاخما للأرض وهـذه المنطقـة تسكنها الملائكـة

الأرضيون وهم طبقتان : إحداهما عن اليمين وهى علامة أمارة والثانيــة عـن اليسار وهى مؤتمرة عمالة ، الأولى تحكى والثانية تكتب .

ومن يستطيع أن يعبر هذا الإقليم إلى ماوراء السماء فإنه سيجد ذريـة الخلق الأقدم ،ولهم ملك واحد مطاع وله خدم عاكفون علىالعمل المقرب إليه زلفى وهم أطهار ، لا نهم أو غلمة أو ظلم أو حسد ، وكل واحد منهم قد وكل بعمارةمنطقة من مناطق هذه المملكـة ، ويـأمون إلـى قصـور طينتهـا لاتشـبه طينة اقليمكم . وقد مد لهم فى أعمارهم ، وبعد هؤلاء خدم مختلطون بـالملك. يخدمون المجلس لايتبدلون بالعمل . وقد مكنوا مـن النظـر إلـى المـلأ الأعلـى والحفوف حوله ومتعوا بالنظر إلى وجهالملك وصالا ، لا فصال فيه ،وقد حـد لكل واحد منهم حد محدود ، ومقام معلوم ،وأدناهم منزلة من الملك واحـد هـو أبوهـم وهـم أولاده وحفدتـه، وعنـه يصـدر خطـاب الملـك ومرسـومه والملـك أبعدهم مذهبا ،ومن عزاه إلى عرق فقـد زل ،ومـن ضمـن الوفـاء بمدحـه فقـد هذى . قد فات قدر الوصافس عـن وصفـه ، وحـادت عـن سـبيله الأمثـال ... وكان حسنه حجاب حسنه ، وكان ظهوره سـبب بطونـه ، وكـان تجليـه سـبب خفائه ... ولربما هاجر إليه أفراد من النـاس فيتلقـاهم مـن فواضلـه مـاينوبهم، ويشعرهم احتقارمتاع إقليمكم هذا ، فإذا انقلبوا من عنده إنقلبوا وهم كارهون .

قال الشيخ (حى بن يقظان) لولا تقربـى إليـه بمخـاطبتك منبهـا إيـاك لكان لى به شاغل عنك ، وإن شئت اتبعتنى إليه والسلام.

وبهذا انتهت قصة (حى بن يقظان) لابن سينا ، ولعـل مـن هـو علـى وعى بآراء ابن سينا فى الطبيعة ، وماوراء الطبيعة والنفس الإنسـانية وعـالم الأفلاك، فإنه يستطيع بسهولة أن يحل رموز هذه القصة . فحى بن يقظان هذا هو عقل ابن سينا نفسه ، فابن سينا هنا قد جرد من ذاته شـخصية خياليـة هـى

حى بن يقظان . ولايقصد ابن سينا نفسه بما له من جسم ونفس ولا نفســه بمـا فيها من مختلف القوى بل يقصد بذلك القوة العاقلة من قوى نفسه.

إن ابن سينا يحشد فى هذه القصة فلسفته الوجودية والعرفانية بطريقـة رمزية مركزة ، والذى يهـم فـى هـذا الصـدد هـو أنـه يـرى أن الوصـول إلـى معرفة الحقائق انما يتاتى بالاكتساب، عن طريق تصفية النفس والخلاص مـن القوى الشهوية والغضبيه ، والسيطرة على القوة المتخيلة ، وتلقى العرفان مـن خلال العقل الفعال صعدا إلى أن يصـل السـالك إلـى حقيقـة الحقـائق أو الملـك الأعلـى أو الأب كمـا يصـوره مـن خـلال عرضـه لقصتـه هـذه . وأن هـذا الخلاص والصعود العقلى لايتاتى الا للأفراد القلائل ،ومـن ثـم فيكـون كلامـه مطابقا كل المطابقة لما جاء فى الجزء الرابع من كتابه (الإشارات) وخاصـة ذلك النص المشهور "جل جناب الحق عن أن يكـون شـريعة لكـل وارد ، أو يطلع الا واحد بعد واحد"([1]).

واذا ماانتقلنا بعد ذلك إلى قصة (حى بـن يقظـان) لابـن طفيـل فإننـا نجده يقدم لها بمقدمة رائعة يبين فيها الاختلاف بين طريقين فى الوصول إلـى المعارف أولاهما طريقة البحث والنظر ، والأخرى طريقة المجاهدة وانكشاف المعارف، انكشافا من غير ترتيب براهين أو أدلة عقلية ، بـل إنـه يذهـب إلـى أن الطريق الثانى أبلغ وأنجح وأن ماينكشف فيه من العلوم والمعارف أوضح.

ثم يبين أنه يقتفى أثر الشيخ الرئيس ابن سينا فيما ذهب إليهفى قصتيـه الرمزيتين (حى بن يقظان) و (سلامان وإيسال) اللتين سبق الحديث عنهما .

([1]) ابن سينا ، الإشارات والتنبيهات ، مرجع سابق ج ٤ ، ص ١٠٩.

وفحوى قصة (حى بن يقظان) عند ابن طفيل أن (حى بن يقظان) فى وجوده هو أصلا احتمالان ، إما أنه نشأ نشأة طبيعية نتيجة زواج سرى بين أبيه وأمه، ولما خافت عليه أمه وضعته فى صندوق تقاذفته الأمواج إلى جزيرة مهجورة، فعطفت عليه ظبية فقدت وليدها حديثا .... واما أنه تولد تولدا غير طبيعى ، فلا أم له ولا أب له ، وإنما نتيجة لتفاعلات كيميائية بين تربة معينة قابلة للضوء وانعكاسه ،وذلك على طريقة الفيض الروحى علىالمادة أو الهيولى عند استعدادها لقبول الفيض،فابن طفيل فى هذه النقطة، يرى مايراه ابن سينا من أن الفيض الروحانى يحدث عندما تتهيأ الهيولى لقبول هذا الفيض يقول ابن سينا" النوعية كالإنسانية مثلا ،أو النارية،كلها واحدة، والمادة كذلك واحدة ، لا اختلاف فيها، وهى مستعدة لكل صورة من حيث هى مادة ، واذا تعينت مادة لصورة ما، فإنما يكون ذلك بسبب، وذلك السبب حادث يعد مالم يكن ،وكل حادث بعد مالم يكن فحدوثه فى مادة، فيجب أن يكون السبب لتشخص تلك الصورة فى تلك المادة شيئا حادثا فى المادة لا فى تلك الصورة "([1]).

ويلاحظ أن ابن طفيل يحدد الجزيرة التى حدث فيها التوالدعلى فرض كونه طبيعيا أو غيرطبيعى، بأنها تقع دون خط الاستواء، وهذه إشارة ربما نحتاج إليها فيما بعد عندحديثنا عن استخدام الرمز الحيوانى بعامة أو الطبرى بخاصة عند (إخوان الصفاء) وهو بذلك يسير على درب مطروق ، خاصة أنهيعلل تعليلا علميا على حسب زمانه يتفق فيه مع آراء (إخوان الصفاء).

([1]) انظر ابن سينا : التعليقات ، تحقيق عبدالرحمن بدوى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣، ص ٧٧.

على أية حال فقد شب الطفل متعلقا بهذه الظبية تعلق الابـن بأمـه كما تعلقت هي به أيضا تعلق الأم بوليدها .

وابن طفيل يتتبع حياة حي‌بن يقظان تتبعا دقيقا في تعرفه على ماحوله حتى ينتهي به الأمر إلى أن يصل به إلى المعرفة العقلية البحثية وهو في كل ذلك تلميذ أمين لابن سينا سواء في الطبيعة أو مابعد الطبيعة ، أو في الوجـود المطلق، والوجود المقيد .

ومن ثم أخذ – حي بن يقظـان – علـى حسب مـايراه ابن طفيل – يترقى في المعرفة العقلية حتى اهتدى إلى واجب الوجود لذاته ، فعكف على مشاهدته والإنسي به ، وإن كـان مـايزال يشـعر بوجـود ذاتـه هـو حتـى وقت استغراقه بمشاهدة الموجود الأول الحق الواجب الوجود، فكـان يسـوؤه ذلـك . فظل يعالج هذه الحالة، حتى غابت ذاته وتلاشـت ، وأصبحـت هبـاء منثـورا ، ولم يبق إلا الواحد الحق الموجـود الثـابت الوجـود ، وهـو يقـول بقولـه " لمـن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار".

لكنه عندما عاد إلى حالته الأولى، وبدأ في ملاحظـة الأغيـار " خطـر بباله أنه لا ذات له يغـاير بهـا ذات الحـق تعـالى ، وأن حقيقـة ذاتـه هـي ذات الحق ، وأن الشئ الذى كان يظن أولا أنه ذاته المغـايرة، لـذات الحـق ، ليـس شيئا في الحقيقة ، بل ليس شئ إلا ذات الحق ، وأن ذلك بمنزلة نـور الشـمس الذي يقع على الأجسام الكثيفة، فتراه يظـهر فيها".(١)

---

(١) ابن طفيل : حي بن يقظان ، ضمن كتاب (حي بن يقظان) لابن سينا وابن طفيل ، والسهروردي، تأليف أمين ، أحمد، القاهرة، دار المعارف ، ص ١١٥.

ويبدو أن ابن طفيل يحاول أن يبرر بعض الشطحات الصوفية من أمثال " أنا الحق " وغيرها . فيقول " ومتى حدث جسم يصلح لقبول ذلك النور قبله، فإن عدم الجسم ذلك القبول، ولم يكن له معنى ، وتقوى عنده (عند حى بن يقظان) هذا الظن ربما قد كان بان له من أن ذات الحق عز وجل لاتتكثر بوجه من الوجوه، وأن علمه بذاته، هو ذاته بعينها ، فلزم عنده من هذا أن من حصل عنده العلم بذاته ،فقد حصلت عنده ذاته، وقد كان حصل عنده العلم، فحصلت عنده الذات ، وهذه الذات لاتحصل إلا عند ذاتها ،ونفس حصولها هو الذات، فإذن هو الذات بعينها، ... وكادت هذه الشبهة ترسخ فى نفسه لولا أن تداركه الله برحمته ، وتلافاه بهدايته ، فعلم أن هذه الشبهة انما ثارت عنده من بقايا ظلمة الأجسام وكدورة المحسوسات ".([1])

وظلمة الأجسام وكدورة المحسوسات تسببان إطلاق لفظ الكثرة على المحسوسات، ولفظ الوحدة على المعقولات المجردات لأن لفظ الكثرة إذا أطلق على المحسوسات، فإنه يعنى أنها متغايرة وهذا حق ، أما لفظ الوحدة إذا أطلق على المفارقات فإن ذلك يعنى أنها متصلة ، واللغة تضيق عند ذلك، فإذا عيرت عن تلك الذوات المفارقة بصيغه الجمع حسب اللغة العادية أوهم ذلك معنى الكثرة فيها ،وهى بريئة عن الكثرة وإن أنت عبرت بصيغة الإفراد أوهم ذلك معنى الاتحاد وهو مستحيل عليها.

فبعد مشاهدته الأولى لذات الحق، أخذ يتدرج نزولا ناظرا إلى العقول الواحد تلو الآخر حتى انتهى إلى العقل المشرف على ماتحت فلك القمر وقد رأى أن كل العقول هذه كأنها هى الحق ومع أنها غيره كالمرايا المنعكس فيها

([1]) المرجع السابق ، ص ١١٥، ١١٦.

ضوء الشمس، يخيل إليك أنها الشمس وليست هى الشمس. غير أن هذه المرايا تتدرج نزولا فى الصقل فأعلاها أكثرها صقلا ، وأدناها أقلها فى ذلك.

وهكذا إلى أن وصل إلى عالم الكون والفساد فرأى لنفسه ذاتا مفارقة، ولولا أن هذه الذات حدثت بعد أن لم تكن لقلنا إنها هى (الذات المفارقة ذات الحق) ولولا اختصاصها ببدنه عند حدوثه، لقلنا إنها لم تحدث (بل قديمة) وقد شاهد فى هذا المقام أصناف الناس ممن هم فى درجته من السعداء، ومن هم أقل منها وهكذا نزولا " فرأى هولا عظيما وخطبا جسيما ،وخلقا حثيثا وأحكاما بليغة ، وتسوية ونفخا ، وإنشاء ونسخا فما هو إلا أن ثبت قليلا فعادت إليه حواسه ...".([1])

وقد اشتاق بعد ذلك إلى العودة إلى مشاهدة الحق، فكان عوده أسهل من المرة الأولى ، ولكن رجع إلى المحسوس بعد ذلك ، ثم اشتاق إلى العودة إلى المشاهدة ، فكان ذلك أسهل من المرة السابقة وهكذا حتى أصبح فى مقدوره المشاهدة متى شاء والعودة إلى عالم الحس متى أراد .

ويلاحظ أننا هنا بازاء تصوف عقلى مثل ذلك التصوف الذى تحدث عنه ابن سينا – كما أشير قبلا – فى القسم الرابع من كتابه الإشارات ، فكأن ماذكره ابن طفيل لا يعدو أن يكون شرحا وتفسيرا لما ذهب إليهابن سينا هناك.

أما إكمال القصة ، فإن (حيا) قد التقى بعد ذلك برجل اسمه (إبسال) كان من جزيرة قريبة من جزيرة (حى) وكان لإبسال صديق يقال له (سلامان) وكانا من ذوى الفضل والرغبة فى الخير ، غير أن (سلامان) كان

([1]) المرجع السابق ، ص ١١٩.

يجنح إلى الالتزام بظاهر الشريعة فحسب، أما (إبسال) فمع التزامه بهذا الظاهر ، فإنه كان يجنح إلى التعلق بالباطن ومن ثم رأى أن يختلى بنفسه حتى لايزعجه شئ أو إنسان مما يعوقه عن الخلوص إلى عالم الباطن ، فذهب لذلك إلى الجزيرة التى بها (حى بن يقظان) حتى لقيه وتعرف عليه، وسمع منه فوجد (إبسال) أن كل ماعنده من علوم عن العالم الأعلى وحقيقة ذات الحق ، وحقيقة الإنسان، يدل على ماجاءت به الشريعة دلالة واضحة من أمر الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وجنته وناره وأن كل ماجاء فى الشريعة من هذه الأمور هى أمثلة هذه التى شاهدها (حى بن يقظان)." فانفتح بصر قلبه، وانقدحت نار خاطره ، وتطابق عنده المعقول والمنقول وقربت عليه طرق التأويل".([1])

ومن هنا خضع(إبسال) صاحب الشريعة، لحى صاحب الحقيقة " فالتزم خدمته والاقتداء به ، والأخذ بإشارته ، فيما تعارض عنده من الأعمال الشرعية التى كان قد تعلمها فى ملته"([2]).

وقد شرح (إبسال) لحى مشاهد العالم الأعلى كما يقول الشرع، فوجد ألا فرق بين ماسمعه من إبسال وماشاهده هو فى ترقيه العقلى ، ثم شرح لـ (إبسال) ايضا ، العبادات الشرعية فالتزمها وواظب عليها .

غير أنه كان هناك اعتراضان على منهج الرسول فيما جاء به ، أبداهما (حى بن يقظان).

([1]) المرجع السابق : ص ١٢٦.

([2]) المرجع السابق : نفس الصفحة.

أحدهما : لجوء الرسول إلى الرمز مما أدى إلى وقوع الناس فى المشكلات من أمثال التجسيم واعتقاد أمور فى ذات الحق هو برئ منها؟[1].

الثانى : لم اقتصر الرسول على العبادات، وأهمل الأموال فلم يجعلها مشاعة؟.

فأجابه (إيسال) بأن طبائع الناس وفطرهم ليست فى مستوى لائق بإدراك حقائق هذه الأمور مباشرة . فعزم حى على الذهاب إلى هؤلاء الناس لهدايتهم مع إيسال لكنه حاول معهم ، فصدوا عنه ، فرأىأن خير دواء لهؤلاء، إن هو إلا اتباع ظاهر الشرع، فأوصاهم بملازمة ماهم عليه من التزام حدود الشرع والأعمال الظاهرة، وقلة الخوض فيما لايعنيهم والإيمان بالمتشابهات ،والتسليم بها ،والإعراض عن البدع والأهواء ، والاقتداء بالسلف الصالح.

ومن هنا عاد (حى بن يقظان) ومعه (إيسال) إلى جزيرتهما واقتدى إيسال بحى حتى أتاهما اليقين .

ولاينسى ابن طفيل أن يشير إلى امر هام ، وهو أنه شاع عن السلف الصالح أن هناك أمورا مضنونا بها على غير أهلها ،وفى زمانه هو ظهر جماعة من المتفلسفة أشاعوا أطراح تقليد الأنبياء وحاولوا إفهام الناس أن هذا من باب المضنون به على غير أهله لذلك بينا المضنون الحقيقى حتى تتكشف حيل هؤلاء المتفلسفة .

([1]) انظر ابن سينا : رسالة فى إثبات النبوات ، وتأويل رموزهم وأمثالهم، ضمن (تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات) مرجع سابق ، ص ١٢٠-١٣٣.

ثم يعتذر لإخوانه بأنه ماخرج عن عهد الكتمان إلا أنه ستر الحقيقة بحجاب رقيق، وستر لطيف ينتهك سريعا لمن هو أهله، ويتكاثف لمن لايستحق تجاوزه .. وقد أراد التشويق فى دخول الطريق.

ولا حاجة بنا هنا إلى صعوبة الفهم لما يهدف إليهابن طفيل من وراء ذلك، فهو صاحب دعوة لاشك فيها معنى بها ،ويهتم بنشرها ، غير أن هناك حدود حمراء لاينبغى له تجاوزها . وأن هناك إخوانا يراقبونه، ويحرصون على كتمان ماهم آخذون أنفسهم به غير أنه لابد لهم من اجتذاب أعضاء جدد فيما يسعون إليه.

أما المذهب الفلسفى فهو لايكاد يتجاوز مادعا إليهابن سينا من أفكار سبقت الإشارةإليها ، سواء فى شرحه كلام -أرسطو من خلال كتاب الشفاء او فيما اختص هو به من آراء فى كتاب الإشارات وغيره من وسائله العديدة، وعلى رأسها قصة (سلامان وإبسال) المشار اليها سابقا .

أما قصة(شهاب الدين السهروردى المقتول ٥٥٠هـ-١١٥٣م/ ٥٨٧هـ - ١١٩١م) فإنه لم يسمها (حى بن يقظان كما فعل ابن سينا وابن طفيل ، بل سماها (الغريبة الغربية) ، ويبدو أنه لم يقرأ قصة (حى بن يقظان لابن طفيل، وإنما قرأ قصة ابن سينا - ولذلك يشير إليها ، دون أن يسمى صاحبها، فقال فى أول القصة وهو يشير إلى تقصير ابن سينا فى قصة (حى بن يقظان) دون أن يذكر اسم المؤلف يقول :" لما رأيت قصة حى بن يقظان ، فصادفتها ، مع مافيها من عجائب الكلمات الروحانية ، والإشارات العميقة معترية (عارية) من تلوحيات تشير إلى الطور الأعظم، الذى هو الطامة الكبرى ، المخزون فى الكتب الإلهية ، المستودع فى الرموز، المخفى فى قصة حى بن يقظان إلا فى آخر الكتاب حيث قال: (ولقد هاجر إليهأفراد

من الناس) إلى آخر الكتاب ، فأردت أن أذكر طورا فـي قصـة سميتها أنـا (قصة الغريبة الغربية) لبعض إخواننا الكرام"([1]).

وأقول إنه لم يقرأ قصة (حى ابن يقظان) لابن طفيل ، لأنـه أولا لـم يشر إليها مـن قريب أو بعيد ، وثانيا إن تـاريخ وفـاة ابـن طفيـل كـان سـنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ، وكانت حادثة قتل السهروردى سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م ومـن ثم فقد كان الفيلسوفان متعاصرين تقريبا غير أن الأول كـان يعيش فـى بـلاد المغرب، على حين كان الأخير يعيش فى بلاد المشرق فلم تصـل أخبـار أى منهما إلى الآخر. وإزاء ذلك لم يكن أمام السـهروردى مـن أنمـوذج قصصـى رمزى فلسفى سوى قصة ابن سينا ، الذى لم يسلم من نقد السهروردى([2]) مـع شئ من الاعجاب به ، وكأنه كان بذلك يعتبر ابن سـينا هـو سلفه فـى الاتجـاه الإشراقى ، وإن لم يقنع بما وصل إليهفى هذا الاتجاه، لأنه كـان مـازال مقيـدا بقيود المشائية . وربما ماسبق من النص المأخوذ من افتتاحية قصة (الغريبـة الغربية) يشـير إلـى إعجـاب السـهروردى بـابن سينا، ولكنـه إعجـاب مشـوب بالحذر إذا صح هذا التعبير.

ولعل الغموض فى استخدام السهروردى لرموزه ، يشير إلى ماكان له من أهداف سياسية ، مما عجل بمقتله على يدى الملك الطاهر صـاحب حلب وهو ابن صلاح الدين الأيوبى، بضغط من الأب ويذهب بعـض البـاحثين إلـى

([1]) السهروردى : الغربية الغربية ، ضمن كتاب ، أمين ، أحمد: حى بن يقظان ، المرجع السابق ، ص ١٣٥.

([2]) أبوريان، محمد على : أصولالفلسفة الإشراقية عند شهاب الدين السهرودى ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٩.

أن هذا القتل كان بإيعاز من علماء الدين التقليديين فى عصره، وخاصة بعد أن ناظرهم وغلبهم([1]) .

وإذا كان ابن سينا جعل (حى بن يقظان) دليله وجعل من نفسه راويا للقصة ، فإن ابن طفيل أخرج نفسه من أحداث القصة ، وكان مجرد سارد لها ، على حين كان (حى بن يقظان عنده) هو البطل فى صنع الأحداث. أما (حى) عند ابن سينا فليس إلا واصفا فقط والبطل عند السهروردى هو نفسه لكنه اتخذ دليلا له هو الهدهد الذى قاده إلى مختلف البلاد والمدن بالأصقاع ، وبدا كما لو كان يركب بساط الريح. ولعلنا سنرى فيما بعد ،كيف أن الطيور اتخذت الهدهد قائدا لها ومرشدا عند فريد الدين العطار من خلال كتابه الشعرى (منطق الطير) . كما أن إخوان الصفاء قد أشاروا أيضا إلى أن ما للهدهد من ميزه فى ارتياد المجهول وذلك فى قصتهم الرمزية التى سيتم عرضها أيضا فيما بعد . ولايغيب عنا هنا أن الجميع قد استلهموا القصة القرآنية وحكاية الهدهد مع سليمان عليه السلام.([2])

والسهروردى يسمى قصته باسم (الغريبة الغربية) وكان من الممكن له أن يسميها (الغربية الغريبة) غير أنه آثر هذا الترتيب لكى يشير إلى النفس وهى الغريبة فى البلاد الغربية وهو بذلك يشير إلى عالم المادة حيث وضعه ابن سينا فى قصته فى الحد الغربى، والنفس بهذه المثابة تكون غريبة اذ هى تنتمى إلى الحد الشرقى فقد جاءت من بلاد ماوراء النهر حيث مستودعها الأصلى فى عالم الأرواح ويشير إلى بالجب الذى نزلوا فيه نهارا

([1]) Nasr, Sayyed Hossein: Thre Moslim Sages, Lahor, Pakistan, 1969, pp.57,58.

([2]) سورة النمل : آيات ٢٠-٤٤.

بالركون إلى عالم المادة، أما القصر الذى يصعدون إليهليلا بالتأمل الروحى الذى يناسبه هدوء الليل .

وتزدحم الرموز : فهناك البروق اليمانية،والحنين إلى نجد إشارة إلى البيت المشهور ، الا ياصبا نجد ... كما يلاحظ أنه بدأ يكثف من رمزية الطيور، والطير هو من الرموز التى شدت الفلاسفة عبر العصور من المصريين، واليونان ، وفلاسفة الشرق ومفكرى الإسلام.

وهكذا إلى أن جاء الهدهد يحمل فى منقاره كتابا، فيكون بذلك إيذانا بالسماح بتوأصل الإشراق بعد أن كان بروقا وخلسات .

ولاينسى أن يجعل السهروردى نفسه المقصود بالرسالة من أبيه فيكون بذلك المقصود بالباحث المتأله الذى يستحق الإمامة كما جاء فى سائر كتبه الأخرى. ومن ثم فإن المحور الرئيسى فى قصته هو نفسه ، على خلاف ابن سينا الذى يجعل (حيا) يقوده ، وعلى خلاف ابن طفيل كذلك الذى ينصب من نفسه راويا ومخبرا عن البطل، أما السهروردى هنا فهو من شاهد ومن اغترب ومن عاد من غربته إلى وطنه الأول، بعد أن طوفت روحه فى الأعصر الماضية، وفى المعالم المقدسة لمختلف الأديان ،ومن ثم فالبشر كلهم طريقهم واحد على اختلاف أديانهم ومشاربهم ، وهو بذلك يمثل الروح الأساسى لهؤلاء البشر على مر التاريخ ومختلف المناطق والبقاع ، ابتداء مما وراء النهر ومرورا بوادى النيل وسينا وبيت المقدس، وعندما أخذ الثقلين مع الأفلاك وجعلهما مع الجن فى قارورة ، حتى انقطع الماء عن الرحا ، وخلصوا الهواء إلى الهواء حتى وصل إلى اليقظة التامة التى هى إن هذا صراطى على مستقيما) ، حتى وصل إلى آفاق الآفاق ، وبدأ يتلقى الوحى والإلهام مثل الأصوات التى كان يسمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم

(صوت سلسلة تجر على صخرة صماء) عند تلقيه الوحى ولاينسى أنه قد عرج مثل ماعرج محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماء من الصخرة التى فى بيت المقدس .

وهذا ينعم بمشاهدة النور الذى يخبره بأنه لابد راجع إلى السجن الغربى، ومن ثم حزن السهروردى حزنا شديدا غير أن النور وعده بأنه سيرجع إليه متى شاء ، ثم يأتى اليوم الذى يعود إليه نهائيا.

ولعله من الأجدر ألا نحاول المقارنة بين هذه القصص الثلاث أكثر مما فعلنا ، والا كان علينا أن نشرح جميع أجزاء البناء الفلسفى لابن سينا وابن طفيل والسهروردى وذلك يحتاج إلى بحث آخر.

وإنما الذى كان يهمنا هنا هو التسلسل التاريخى مع الرمز الفلسفى أو الرمز الصوفى ،والمقصود من عرض هذا التسلسل فى هذه العجالة، هو الحديث عن اصطناع الرمز بعامة ، والرمز الحيوانى بخاصة ، والرمز الطبرى بصفة أخص ، إذ أن هذا هو بمثابة التمهيد للموضوع الرئيس وهو الرمز الفلسفى الحيوانى الطبرى عند اخوان الصفاء وابن سينا والغزإلى والعطار . ومن ثم كان الأجدر البدء بعرض الرمز الفلسفى عند إخوان الصفاء، فمن هم هؤلاء الإخوان ......؟؟!!.

الفصـــل الأول

الرمز الفلسفى الحيوانى عند إخوان الصفاء

إخوان الصفـــاء:

إخوان الصفاء وخلان الوفاء عنوان مجهول الهوية معروف الفكر بين القرنين الثالث والرابع الهجرى. تضاربت حول حقيقة شخصياتهم الأقوال، إذ لم تظهر الا رسائلهم معنونة بهذا العنوان (رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء) لكن من هم هؤلاء الإخوان؟ ولماذا كتبوا هذه الرسائل؟ ولمن كتبوها؟ إذا كانوا قد كتبوها نشرا للفلسفة، ومحاولة للتوفيق بينها وبين الشريعة، كما جاء فى هذه الرسائل ، فلماذا إذن أخفوا أسماءهم، مع أن غيرهم من فلاسفة الإسلام المعروفين مثل الفارابى وابن سينا وغيرهما قد أعلنوا عن رغبة منهم فى أن يقوموا بهذه المحاولة، وهى التوفيق بين الشريعة والحكمة أو بين الدين والفلسفة ، أو بين الشرع والعقل.

هل أخفوا أسماءهم حتى لايتعرضوا للبطش من قبل عامة المسلمين، وخاصة علماء الدين؟ أم أنهم كتموا هذه الأسماء حتى لايقع أصحابها فى أيدى الحكام فيبطشوا بهم؟ إن الاحتمال الأول قائم ،وفى التاريخ بعض الفلاسفة والمتصوفة قد تعرضوا لبطش العامة وغوغائهم . ولكن لم يصل الأمر من هؤلاء العامة إلى القتل والتشريد ، اللهم إلا بعض التشنيع أو التبديع أو حتى التكفير دون أن يكون لذلك صدى يمتد إلى إزهاق الأرواح . وماحادثة الحلاج والسهروردى المقتول إلا شذوذا واستثناء ، وربما كانت هناك من الظروف السياسية المحيطة بهاتين الحادثتين ، ظل التاريخ ضنينا علينا بها. وربما كان العكس هو الصحيح ، فقد استعان أصحاب تحكيم العقل فى الدين وهم المعتزلة ، بالسلطة فى عصر المأمون والمعتصم والواثق على التنكيل بمخالفيهم من علماء الدين .

لم يكشف النقاب عن أسماء بعض هؤلاء الإخوان إلا حين ظهر كتاب أبـى حيـان التوحيـدى (الإمتـاع والمؤانسـة) الـذى تعـرض فيـه لذكـر بعـض الأسماء التى لاتشـفى غليـلا ، إذ لاتعـدوا أن تكـون رمـوزا رياضيـة تقبـل أن تتحمل أية كمية صغرت أو كبرت .

ويحكـى القفطـى هـذه الحيـرة فيقـول " هـؤلاء جماعـة اجتمعـوا علـى تصنيـف كتـاب فـى أنـواع الحكمـة الأولـى ، رتبـوه مقـالات ، عدتهـا احـدى وخمسون مقالة ، خمسون منها فى الخمسين نوعا من الحكمة، ورسالة حاديـة وخمسون جامعة لأنواع المقالات ، علـى طريـق الاختصـار والايجـاز ،وهـى مقالات مشوقات غير مستقصاة ولا ظـاهرة الأدلـة والاحتجـاج، وكأنـه التنبيـه والإيماء إلى المقصود الذى يحصل عليه الطالب لنوع من أنواع الحكمة. ولما كتم مصنفوها اسماءهم ، اختلف الناس فى الذى وضعها ،فكل قوم قـالوا قـولا بطريق الحدس والتخمين ، فقوم قالوا :هى مـن كـلام بعض الأئمـة مـن نسـل على بن أبى طالب كرم اللـه وجهـه ، واختلفـوا فـى اسم الإمـام الواضـع لهـا اختلافا حقيقة ، وقال آخرون : هى من تصنيف بعـض متكلمـى المعتزلـة فـى العصر الأول، ولم أزل شديد البحـث والتطلـب لذكـر مصنفهـا ، حتـى وقعـت على كلام لأبى حيان التوحيدى، جاء فى جواب له ، عندما سأله عنـه الوزيـر صمصام الدولة بـن عضـد الدولـة فـى حـدود سـنة ثـلاث وسـبعين وثلاثمائـة ، وصورته : قال أبوحيان – حاكيا عن الوزير المذكور : حدثنـى عـن شـئ هـو أهم من هذا إلى ، وأخطر على بالى ، إنى لا أزال لأسمع عن زيد بن رفاعـة قـولا يريبنـى ، ومذهبـا لاعهـد لـى بـه ، وكنايـة عمـا لا أحقـه ، وإشـارة إلـى مالايتضح شئ منه، بذكر الحروف ، ويذكر النقط ، ويزعم أن البـاء لـم تنقـط من تحت واحدة إلا لسبب ، والتاء لم تنقط من فوق اثنتين إلا لعلـه ، والألـف

لم تعجم إلا لغرض ، وأشباه هذا ، وأشهد منه فى عرضه هذا دعوى يتعاظم بها ، وينتفخ بذكرها ، فما حديثه ، وما شأنه ، ومادخيلته ؟ فقد بلغنى ياأبا حيان أنك تغشاه ، وتجلس إليه.. فقال : هناك ذكاء غالب ، وذهن وقاد ، ومتسع فى قول النظم والشعر مع الكتابة البارعة فى الحساب والبلاغة ، وحفظ الأيام ... وتبصر فى الآراء والديانات ... قال : فعلى هذا مذهبه ؟ قلت: لاينتسب إلى شئ ، ولايعرف برهط لجيشانه بكل شئ ، وغليانه بكل باب ، وقد أقام بالبصرة زمانا طويلا، وصادق فيها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة ، منهم أبوسليما محمد بن معشر البسنى ،وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى ،وأبوأحمد المهرجانى والعوفى وغيرهم ... وزعموا بأنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية ، فقد حصل الكمال ، وصنعوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة علمها وعمليها ، وأفردوا لها فهرسا".([1])

ومن الواضح أن الأسماء التى ذكرها أبوحيان التوحيدى - كما سبق - لاتعطى أية معلومات عن أصل أصحابها ، أو انتماءاتهم السياسية أو العقدية ،وربما كانت معروفة له وللوزير صمصام الدولة ،ولكنها أمام البحث اليوم لاتقدم أو تؤخر، إذ لم ترد هذه الأسماء فى أية مصادر من مثل كتب التراجم أو غيرهما.

والذى يزيد الأمر تعقيدا أن هناك نصين :

أحدهما : للفارابى ، **والآخر** : لابن سينا ،

([1]) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، القاهرة ، نمكتبة الخانجى ، ١٣٢٦، ص ٥٨،٥٩.

وكلا النصين يشير إلى أن ثمة علاقة بين الرجلين وهذه المجموعة المسماة (اخوان الصفاء وخلان الوفاء) فقد جاء فى مقدمة أحد رسائل الفارابى : " اللهم اجعلنى من إخوان الصفاء وخلان الوفاء"([1]). وأما ابن سينا فقد جاء فى رسالته : رسالة الطير شاكيا حال الناس وعدم إخلاصهم فى صداقتهم وأخوتهم " فلن يزار رفيق إلا إذا زارت عارضة، ولن يذكر خليل إلا اذا ذكرت مأربة ، اللهم إلا إخوان جمعتهم القرابة الإلهية ، وألفت بينهم المجاورة العلوية ، ولاحظوا الحقائق بعين البصيرة ، وجلوا الوسخ ورين الشك عن السريرة ، فلن يجمعهم الا منادى الله : ويلكم إخوان الحقيقة، تحابوا وتصافوا ...".([2])

فهل كان الفارابى وابن سينا من هؤلاء الإخوان ؟ خاصة أن هناك قصة نوردها كتب التراجم عن التحاق الفارابى ببلاط سيف الدولة ، مغزاها أن الفارابى دخل على مجلس سيف الدولة وظل واقفا ولم يكن لصاحب المجلس به عهد ، فدعاه إلى الجلوس ، فقال الفارابى : حيث أنا أم حيث أنت؟ فقال سيف الدولة : حيث أنا ، فجلس بجواره وظل يزاحمه حتى كاد يسقطه من على مجلسه ، فخاطبه الحراس بلغة مشفرة كانت معروفة بين سيف الدولة وحراسه مستأذنين إياه بالحاق الأذى بهذا الغريب المتقحم أى الفارابى، وقبل أن يجيبهم سيف الدولة ، أجابهم الفارابى بهذه اللغة (المشفرة). وهذا يعنى أن الفارابى قد عرف هذه اللغة بطريقة سرية لايتقنها إلا الجواسيس فإذا

([1]) الفارابى : فصوص الحكم ، ضمن مجموعة رسائل الفارابى ،القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٠٧، ص ١٤٥.

([2]) ابن سينا : رسالة الطير ، ضمن كتاب ، قراءات فى الفلسفة للنشار وأبى ريان ، مرجع سابق ، ص ٦٣٢.

أضفنا إلى ذلك أن إمارة الحمدانيين قد سقطت اخيرا فى أيدى الفاطميين ، فماذا يعنى ذلك([1])، ولايفوتنا أن ابن سينا لم يستطع فهم مابعد الطبيعة إلا بعد أن طالع كتابا للفارابى – كما يقول ابن سينا نفسه.([2])

وبمجئ العصر الحديث، تظهر بعض الكتب الإسماعيلية التى ظلت حقبا طوالا طى الكتمان ، حتى قيض لها من يحققها ويخرجها إلى الوجود ، سواء أكان هؤلاء المحققون اسماعيليين مثل : عارف تامر ،ومصطفى غالب، أو غير إسماعيليين مثل محمد كامل حسين وعثر على نصوص فى هذه الكتب تقول إن (إخوان الصفاء) أو كتاب هذه الرسائل هم إسماعيليون وإن كان هناك اضطراب فى أسماء هؤلاء الإخوان ولاغرابة فى ذلك الاضطراب والاختلاف ، فقد كان الدعاة الإسماعيليون يلجأون إلى كتمان كل شئ عمن سواهم ، سواء أكان هذا الكتمان فى العقائد أو فى التنظيم الحركى الذى يعتبرون فيه أساتذة علم التنظيمات السرية ، فيما جاء بعدهم من عصور حتى العصر الحديث، فالدعاة كانت لهم أسماء متعددة ، والوظائف الكبرى أو الصغرى فى نسيج الدعوة كان لها أكثر من شخص، والأئمة المستورون أنفسهم كان لهم أكثر من وجه وأكثر من شخصية ، وفى خضم هذا التكتم الشديد، والغموض المطبق ، لايعلم أى عنصر من عناصرا لدعوة نفسها أى شئ عن غيره .

وقد طفت على سطح هذه السرية الممعنة حادثتان كان لهما مغزى كبير فيما نحن بصدده الآن :

([1]) القفطى : المرجع السابق ، ترجمة الفارابى ،ص ١٦٣.

([2]) ابن أبى أصيبعة: طبقات الأطباء، ترجمة ابن سينا.

أولاهما : ذهب أحد زعماء القرامطة لمقابلة الإمام فى سلمية مكان اختفائه بسورية ، وسلم عليه وبايعه ، ثم عاد مرة أخرى إلى نفس المكان لمقابلة نفس الإمام ، وإذا بهم يقدمون له شخصا آخر على أنه هو الإمام الذى سبق له أن بايعه فى المرة السابقة . فداخله الشك وربما أدى ذلك إلى أحداث سياسية وعسكرية، لايتسع المقام هنا للحديث عنها .

ثانيتهما : كان أكبر دعاة الإسماعيلية فى شمال إفريقيا هو الداعى أبو عبدالله الشيعى ، وكان قد سبق له الذهاب إلى سوريا لمقابلة الإمام أيضا، فلما وصل الإمام إلى شمال إفريقيا لاعلان دور الظهور وتأسيس الدولة الفاطمية فوجئ أبوعبدالله الشيعى بأن هذا الإمام هو غير ذلك الإمام الذى سبق أن رآه فى بلاد الشام، فداخله الشك ، وأفضى لبعض المقربين إليه بذلك ، وشعر الإمام بهذا الشك الذى اعتمل فى نفس كبير دعاته فعاجله بالاغتيال.([1])

ويكاد نفس الأمر ينطبق على مؤلفى هذه الرسائل، فقد جاء فى رسالة الأصول والأحكام للداعى حاتم بن عمران بن زهرة أن أسماء مؤلفى هذه الرسائل هى : عبدالله بن ميمون القداح ،وعبدالله بن سعيد بن الحسين، وعبدالله المبارك، وعبدالله بن حمدان([2]).

([1]) حسين، محمد كامل : طائفة الاسماعيلية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩، ص ٦٥.

وانظر على أدهم : الجمعيات السرية والحركات الهدامة ، القاهرة ، دار المعارف، ١٩٥٤م ، ص ٣٥.

([2]) ابن عمران، حاتم : رسالة الأصول والأحكام ، ضمن خمس رسائل اسماعيلية تحقيق عارف تامر ، سوريا ، دار الإنصاف ، ١٩٥٦، ص ١٢٠.

بل إن عارف تامرنفسه وهو اسماعيلى محدث ، يخصص كتابا لهذا الموضوع ليؤكد ان مؤلفى الرسائل هم الإسماعيليون([1]) وقد اعتمد فيه على ماظهر من مخطوطات إسماعيلية قام هو بنشرها ، وقد ظهر هذا الاضطراب المبرر - على نحو ماسبق - واضحا ، اذ تذهب بعض الرسائل المنسوبة إلى الدعاة الإسماعيليين أن واضع هذه الرسائل هو الإمام عبدالله بن محمد بن اسماعيل ، على حين يذهب البعض الآخر إلى أن مؤلفها هو ولد الإمام عبدالله السابق ، وهو أحمد بن عبدالله، وتذهب رسائل أخرى كما سبق إلى أن واضعها هم أصحاب الأسماء السابق ذكرها. ومن هنا حاول عارف تامر أن يجمع بين هذه الآراء فقال " الملاحظ هنا أن الإمام أحمد هو نجل عبدالله بن محمد الذى جاءت مصادرنا الأولى أنه واضع الرسائل بينما نرى الداعى إدريس - هنا - يؤكد أن ولده أحمد هو واضع الرسائل ،وأما الواقع ، فهو أن عبدالله بن محمد ، قد وضع الرسائل، ولكن الأجل لم يمهله فمات والرسائل لم تتم ، فجاء ولده (أحمد) بعد وفاته وأتمها مع الدعاة المذكورين أنفسهم".([2])

والحق أن مما لاشك فيه أن كاتب هذه الرسائل هو من شيعة على - كرم الله وجهه - وأولاده ، سواء أكانوا واحدا ، أو أكثر ، بل الذى تطمئن إليه النفس هو أن هذه الرسائل كتبت فى عدة سنوات ربما طالت أو قصرت . وربما كانت بداية كتابتها فى عهد المأمون فمما ظهر من كتب سرية لبعض الدعاة حديث عن سبب كتابة (رسائل إخوان الصفاء) ففى رأى صاحب هذا

([1]) تامر، عامر : حقيقة إخوان الصفاء ، بيروت ، الطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٧.

([2]) المرجع السابق : هامش ص ١٨ .

الكتاب أن المأمون أراد أن يمسخ العقيدة الإسلامية بالفلسفةاليونانية، فحرصا من بعض الأئمة على نقاء العقيدة الإسلامية بدأ فى تأليف هذه الرسائل([1]).

ولعل هذا الداعى كان يحاول أن يموه على العامة ، فالمأمون وإن عمل على ترجمة العلوم اليونانية وغيرها ، ومناصرة المعتزلة أصحاب الاتجاه العقلى فى الدين، إلا أن رسائل (إخوان الصفاء) هى الأولى بأن توصف بهذا المسخ – الذى يضيق المقام عن شرح ذلك .

ومهما قيل فإن القارئ لهذه الرسائل لايخطئه الصواب عندما يقول إن مؤلفيها – كما سبق – هم إسماعيليون، فهناك نصوص صريحة وأخرى غير صريحة تدل على ذلك([2]). كما أن عارف تامر استطاع أن يجمع نصوصا من كتب الدعاة الإسماعيليين ويقارنها بما جاء فى (رسائل إخوان الصفاء) فوجدت متطابقة إلى حد بعيد.([3])

وأيا ماكان الأمر فإن إخوان الصفاء قد حشوا فى رسائلهم معلومات فلسفية ، وأدبية ، ودينية وعلمية رياضية وطبيعية وفلكية وغيرها .ولم يكن ذلك منهم بهدف ترقية المجتمع الإسلامى من الوجهة العلمية ،إذ من الواضح أنهم أصحاب دعوة سياسية والا لما ستروا أسماءهم، وكان أهم ظاهرة فى كتاباتهم هو استخدام الرمز عموما. ومن شأن أصحاب مثل هذه الدعوات اللجوء إلى الرمز . وكانت عبقريتهم وألمعيتهم واضحتين تماما فى استطاعتهم جمع هذا الكم الهائل من المعلومات ومحاولة توظيفها لتحقيق

([1]) المرجع السابق ، ص ١٧، ١٨.

([2]) المرجع السابق : ص ٢٠ – ٣٢ .

([3]) المرجع السابق : ص ٢٨-٣٥.

هدفهم الأصلى. ومن ثم فإن هذه المعلومات تنتمى إلى ثقافات متنوعة تمثل حضارات مختلفة من هندية وفارسية ويونانية ومصرية قديمة وكلدانية وغيرها ، ذاهبة فى ذلك إلى أن هذا الكم الهائل ماهو إلا مغزى الوحى المحمدى، وأن الأئمة من أهل البيت قد أوحى إليهم هذا المغزى ،وتلك عقيدتهم فى أن الأئمة منذ على رضى الله عنه يوحى إليهم ، وأن مايوحى إليهم فى هذا الصدد هو دين لايقل عما جاء فى القرآن الكريم رمزا – على حسب رأيهم.

وقد أشار بعض الباحثين المحدثين إلى أن ماجاء فى الرسائل على ألسنة الحيوان عامة والطيور خاصة يرجع فى أصله إلى الثقافةاليونانية ولكنه لم يشأ أن يذكر هذا الأصل اليونانى.[1] وقد حاولنا الوصول إلى هذا الأصل فلم يسعفنا التوفيق . فلا علينا إذن إلا أن نحاول تحليل هذه القصة الرمزية على أنها بداية هذا الاتجاه الأدبى الفلسفى فى المحيط الإسلامى والذى لو قدر له أن ينمو لربما أتى بالخير الكثير .

([1]) محمد غنيمى، هلال : الحياة العاطفية ، ص ٤٢.

القصة على لسان الحيوان والطيور

عند إخوان الصفا

جاءت هذه القصة فى المجلد الثانى من الرسائل تحت عنوان (فصل فى بيان بدء الخلق)([1]) وهى قصة طويلة تستغرق صفحات كثيرة من المجلد الثانى وهى عبارة عن شكوى رفعتها الحيوانات إلى ملك الجن ضد بنى آدم الذين استعبدوا فريقا منها وأخافوا الباقى مما اضطره إلى الهروب إلى أقاصى البلاد المهجورة، ومن ظلم بنى آدم للحيوانات أنهم يدعون أن هؤلاء الحيوانات عبيد لهم وهم سادتها . وأن من هرب من الحيوانات واستوحش إن هى إلا عبيد أبقت وتمردت على سادتها ومالكيها .

ومما يلفت الأنظار أن أحد المستشرقين ، وهو فريدرك ديتريصى ، قد أعجب بهذه القصة حتى استلها من الرسائل وأفردها فى كتاب مستقل وقد عنونه بالعبارات الآتية (فى تداعى الحيوانات على الإنسان عند ملك الجن)، وهى قصة مأخوذة من رسائل إخوان الصفاء ، تأليف العبد الحقير ، الشيخ المعلم فى المدرسة الكلية البرلينية،فريدرخ ديتريصى ،طبع فى مدينة برلين المحروسة سنة ١٨٧٩ المسيحية .وجاءت القصة فى ١٣٨ صفحة من القطع المتوسط([2]).

([1]) انظر : رسائل إخوان الصفاء ، بيروت ،دار صادر ، د. ت ، مجلد ٢ ، ص ٢٠٣ ، ومابعدها .

([2]) ويلاحظ أن ترقيم الصفحات جاء بالأرقام الفارسية فمثلا ٢ = ٣ ، ٤ = ع ، ٦ = د وبالرغم من أن صفحة عنوان الكتاب بالعربى جاء على النحو المذكور أعلاه ، فإن صفحة العنوان بالألمانية جاء فيه أنه طبع فى ليبزج ١٨٨١.

تبدأ القصةب أن الإنسان بعد ماكان يعيش فى الكهوف وعلى رءوس الأشجار، وكانت الحيوانات بأنواعها البرية والبحرية والجوية تعيش فى حرية، وأمن ، وتآخ ، ولكن الإنسان بدأ يستغل هذه الحيوانات ويستعبدها، وقد استطاع التغلب على البعض منها واستئناسها والبعض الآخر فر هاربا من هذا الإنسان، تاركا له تلك الأماكن التى احتلها وفرض سيطرته عليها ، وهو مع ذلك لم يترك هذا البعض الهارب وشأنه ، بل إنه استخدم حيله فى الكيد له وابتكار الوسائل فى صيدها وقنصها. ومضت السنون على ذلك ، وتوالت الحقب، حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وكانت دعوته شاملة للإنس والجن، فاستجاب له جماعة من الجن وآمنوا بدعوته ، وحسن إسلامهم، ومضت على ذلك مدة من الزمن .

وقد حدث أن كانت هناك جزيرة يقال لها (صاغون) فى وسط البحر الأخضر مما يلى خط الاستواء. وكانت تلك الجزيرة موطنا لمملكة الجان ، التى سميت باسم (مملكة مردان) وعليها ملك يسمى (بيراست الحكيم) ولقبه (شاه مردان).

وحدث أن جماعة من بنى الإنسان من التجار، والصناع وأهل العلم، كانوا يركبون سفينة بالقرب من هذه الجزيرة،إلا أن العواصف الهوجاء قد طرحت السفينة إلى شاطئ تلك الجزيرة، فوجدوها طيبة الهواء والثمار وأنواع الورود والأزهار والمياه العذبة ، ووجدوها معمورة بشتى أنواع الحيوانات من البهائم والأنعام والطيور والسباع والوحوش والهوام والحشرات، وهى كلها متآلفة بعضها إلى بعض مستأنسة غير متنافرة.

فاستطاب بنو الإنسان هؤلاء تلك الجزيرة فأقاموا فيها وبنوا البيوت وسكنوها ، وبدأوا يتعرضون لتلك البهائم الساكنة هناك ويسخرونها فى

الركوب والحمل وخلافه على طريقتهم التى كانوا يفعلونها فى بلادهم الأصلية، فما كان من تلك الحيوانات إلا أن هربت من وجوههم، لما علمته من اعتقادهؤلاء الأناسى فى الحيوانات من أنها عبيد لهم وأنهم سادتها فرفع الحيوانات شكواهم إلى ملك الجان، فأرسل الملك إلى هؤلاء الآدميين فحضر بعضهم وكانوا نحوا من سبعين رجلا من بلاد شتى ، فرحب الملك بهم وأكرمهم وبعد ثلاثة أيام استقبلهم فى مجلسه.

وكان الملك ببرست الحكيم كريما عادلا محبا للخير، فسألهم عن سبب مجيئهم إلى بلاده، فقال أحدهم سمعنا بعدل الملك فجئنا إليه ليحكم بيننا وبين عبيدنا الآبقين .

فقال الملك : اذكر شكواك

قال الإنسى: إن هؤلاء الحيوانات عبيدنا منهم من هرب ، ومنهم من أطاع وهو كاره .

قال الملك : هات الدليل .

قال الإنسى : لدينا أدلة شرعية وأدلة عقلية .

قال الملك : هات أوردها .

فقام خطيب إنسى من ولد العباس وذكر الآيات القرآنية التى تدل على تسخير الله الحيوانات لبنى البشر وبذلك تكون الحيوانات عبيد للبشر وهم أربابها .

فقال الملك : لقد سمعتم استدلال البشر بالقرآن ، فماذا تقولون ؟

فقام واحد من الحيوانات وهو البغل خطيبا فتحدث عن أصل الخلق وهو أن الله خلق النور أولا بلا زمان ولاماكان ، ومن النور خلق النار والماء ومنهما خلق الأفلاك . وأقام السماء ووضع الأرض وجعل السماوات مسكن العليين ، والأفلاك مسكن الملائكة، والأرض للنبات والحيوان ، ثم خلق الجان ثم خلق الإنسان ليعمر الأرض لا ليخربها، ويحفظ الحيوان لينتفع به ولا يظلمه.

واعلم أيها الملك أن الله خلق كل مافى السموات والأرض مسخرا بعضه لبعض إما لجلب منفعة أو لدفع مضرة فسخر الشمس والقمر فهل الشمس والقمر عبيد للانسان، فكيف يقولو بنو آدم بأنهم أرباب لنا ونحن عبيد لهم ؟.

ثم قام زعيم البهائم وقال : لقد خلقنا الله على ظهر الأرض من قبل بنى الإنسان وظللنا أزمانا فى حرية وفى سلام وفى خير نعبد الله ، حتى خلق الله آدم وجعله خليفة فأخذ نسله بعضنا أسرى وهرب الباقى فى البرارى ورءوس الجبال . فرصدونا بالصيد والذبح والطبخ بالنار ثم لم يكتفوا بذلك، بل قالوا إننا عبيد لهم وهم أرباب لنا بلا حجة ولا برهان إلا الغلبة والقهر .

* * *

عند ذلك جمع الملك الجنود والأعوان من مختلف قبائل الجن ، والقضاة العدول منهم وقعد للفصل بين بنى الإنسان والحيوانات .

واتجه إلى بنى الإنسان قائلا ماتقولون فى الظلم الذى ادعاه عليكم هؤلاء الحيوانات .

فقام زعيم الإنسي : وقال إن عندنا أدلة عقلية فلسفية على أن الحيوانات عبيد لنا ونحن أرباب لهم .

فقال الملك : هاتها ، فقال الإنسى : جودة صورتنا وجودة عقولنا وذكاؤنا.

فقال الملك لزعيم البهائم ماقولك فى هذا ؟

فقال : ليس هذا دليلا على دعواه . فقال الملك : أليس انتصاب القامة من شيم الملوك ، والانكباب على الوجوه من صفات العبيد ؟

فقال زعيم البهائم : ليس الأمر هكذا . بل إن الله فعل ذلك بهم وبنا لحكمة وهى أن صورتهم أصلح لهم ، وصورتنا أصلح لنا . وذلك أنه لما كان طعام بنى آدم من ثمار الأشجار جعل قامتهم منصوبة ، ولماكان طعامنا من حشيش الأرض جعل بنية أبداننا منحنية .

قال الملك :ماتقولون فى قوله تعالى" لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم".

فقال الزعيم : إن للكتب النبوية تأويلات غير مايدل عليه ظاهرها يعرفها أهل العلم الراسخون ، فليسأل الملك أهل الذكر .

فقال الملك لحكيم الجن : مامعنى قوله :" فى أحسن تقويم "

قال : فى اليوم الذى خلق الله فيه آدم ، كانت الكواكب فى أشرافها ، وأوتاد البروج قائمة ، والزمان معتدلا كثير المواد ، وكانت متهيئة لقبول الصور فجاءت بنيته فى أحسن صورة وأكمل هيئة .

كما أن قوله " فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك " يعنى لا طويل ولاقصيرا، بل مابين ذلك .

قال زعيم البهائم : ونحن كذلك لم يجعلنا الله قصارا ولا طوالا بل بين بين .

فقال الإنسى : من أين لكم استقامة البنية ولاجمال الصورة ، وأخذ يضرب أمثلة لبعض الحيوانات التى ليست متناسقة الخلقة ..

فقال زعيم البهائم : إن اعتراضك علىذلك اعتراض على الخالق، ولكن الله فعل ذلك لحكمة إما لجر منفعة لنا أو دفع مضرة عنا . ولايعلم ذلك الا الراسخون فى العلم . وأخذ يعلل لاختلاف صورة البنية عند بعض الحيوانات مثل طول رقبة الجمل وخرطوم الفيل وهكذا .

أما حسن الصورة فلا يرغب فيه إلا من أجل حب الإناث للذكور أو العكس ، أما نحن فلا نهتم بحسن الصورة فى ذلك .

وما ادعتيه من جودة حواسكم ودقة تمييزكم ، فإن من البهائم ما يفوقكم فى ذلك . وأما ماذكرته من رجحان عقولكم فلسنا نرى له اثرا او علامة، فلو كان لكم عقول لما افتخرتم علينا بشئ ليس من فعلكم بل هو من فعل الله ، فواجب عليكم أن تشكروه على ذلك ، لا أن تفخروا بنعم الله على الآخرين. بلا حجة ولادليل .

وهنا تدخل ملك الجان وقال للإنسى : قد سمعتم الرد فهل عندكم غير ذلك ؟

قال الإنسى : نعم إننا نبيعها ونشتريها ، ونطعمها ونسقيها ونعالجها وننعلمها وهذا دليل على أننا أرباب لهم وهم عبيد لنا .

فقال زعيم البهائم : أما بيعهم وشراؤهم لنا ، فكذا يفعل الآدميون ببعضهم البعض ، أبناء الهند يفعلون ذلك بأبناء فارس والعكس إذا ظفر بعضهم ببعض . وهكذا جميع الأمم المتحاربة ، فأيهم العبيد وأيهم الأرباب ؟ وماذاك إلا أنها دول تدول ، ونوب تنوب كما قال تعالى " وتلك الأيام نداولها بين الناس " وذلك بموجب أحكام النجوم والقرانات . ولايعقل ذلك إلا العالمون ...

ثم تكلم الحمار : فشكا الظلم والقسوة من بنى آدم ، ثم تكلم الثور وشكا ممايعانيه من الظلم وقسوة الأعمال كذلك . ثم تكلم الكبش فشكا أيضا من الذبح والسلخ وأخذ الأبناء الصغار وما إلى ذلك . ثم تكلم الجمل ، والفيل، والفرس ،والبغل كل يذكر مايعانيه .

أما بنو آدم فهم لايبصرون عيوبهم ولايتعظون بكلام أنبيائهم ثم تكلم الخنزير وقال : إن الإنسى قد اختلفوا فى شأننا فالمسلمون يقولون إنا ممسوخون ملعونون ، وأبناء الروم يتنافسون فى أكل لحومنا وأما اليهود فيشتموننا بلاذنب إلا لاختلافهم مع النصارى وعداوتهم لهم ، وأبناء الروم والأرمن فحكمنا عندهم كحكم البقر يأكلون لحمنا وأما الأطباء من اليونان فيتداوون بشحومنا ، والأساكفة والخرازون يتنافسون فى شعرنا .

ثم قام الأرنب وتكلم فقال : هربنا من بنى آدم إلى الصحارى غير أنهم تتبعونا هناك بالصيد مستعينين علينا بالكلاب والحيل وإذا كانت الكلاب معذورة لأنها تنال قسطا من لحومنا فما بال الخيل اللهم إلا الجهالة وعدم المعرفة بالحقائق .

فقال الإنسى بدافع عن مآثر الخيل ومميزاتها . لكن الأرنب قاطعه وذكر عيوبها ، فمثلا تعدو بصاحبها كما تعدو بعدوه مثل السيف من الحديد الذى لاعقل له يقطع عنق صيقله، كما يقطع عنق عدوه . ومثل ذلك بنو آدم، يعقون آباءهم الذين ربوهم وكفلوهم ، وكذلك يعاملون الحيوان الذى يتغذون بألبانه ويحملون عليه وفى النهاية يذبحونه .

فقام الحمار : وقال أقصر فكل جنس له عيوبه ومحاسنه ومواهب الله كثيرة لايستوفيها نوع واحد ولاجنس بعينه ، بل فرقت على الخلائق. وما من شخص آثار الربوبية فيه إلا ورق العبودية عليه أبين. مثل الشمس والقمر وهما قد أعطاهما الله النور الأعظم ومع ذلك لم يسلما من الكسوف والخسوف ، وكذلك حكم سائر الكواكب الفلكية وذلك ليكون دليلا على ربوبية الله لهما , وأردف قائلا:

ولست بمستبق أخا لاتلمــــــه   على شعث أى الرجال المهذب

وقام الثور قائلا لكن المسئولية على قدر الموهبة ، فمن كانت موهبته أكبر كانت مسئوليته وعطاؤه أكثر.

عند ذلك التفت الملك إلى حكمائهم وعلمائهم طالبا المشورة والرأى فشهد هؤلاء للحيوانات وسائر البهائم بما قالت ، واستدلوا على ذلك بفعل البشر بهم هم أى الجن ، مما اضطرهم إلى ترك البلاد لهم والانعزال فى الأماكن البعيدة، كما ذكروا سوء ظن بنى آدم بهم مدعين أنهم يمسونهم ويؤذونهم هم وصبيانهم ، مع أنه لم يثبت أن فعلنا بهم شيئا ضارا مثلما يفعلون هم ببعضهم البعض من القتل والسرقة وقطع الطريق .

عند ذلك نادى مناد بأن موعد الجميع غدا فهلموا إلى مساكنكم .

وبعد ذلك استشار الملك وزيره (بيراز) فى الأمر ، فاقترح عليه بأن يجمع علماء الجن وقضاتهم وفقاءهم وفلاسفتهم ، وأطباءهم وأصحاب العزيمة والصرامة منهم . ويأخذ رأيهم.

فعل الملك ماأشار عليه به الوزير. وطلب الرأى من الحضور..

فقال الفقيه : أرى أن تكتب الحيوانات قصتها ويعرضوها على القاضى فيحكم لها إما بالبيع أو العتق أو تخفيف الأعمال .

فقال صاحب العزيمة للملك : من أين لنا أثمانها إن حكم القاضى بالبيع . قال صاحب الفقيه : من بيت مال المسلمين من الجن . فقال الملك: ليس فى بيت المال مايكفى لذلك ، كما أن بعض بنى آدم قد لايرغبون فى البيع .

فقال صاحب العزيمة :إذن نأمر هذه البهائم بالتمرد والهرب من بنى آدم . فأجيب بأن معظم هذه البهائم مقيد والأبواب مغلقة دونها فقال : تأمر – أيها الملك – الجن بأن تفك القيود ، وتفتح الأبواب ولما هم الملك باستصواب هذا الرأى . إذا بالفيلسوف يقول : أيها الملك إن عاقبة هذا الرأى وخيمة، لأننا بذلك نجلب عداوة الإنسى لنا فنجر على أنفسنا المضرة . فاللبيب من يصلح بين الأعداء ، دون أن يجلب على نفسه المضرة . فاعترض بعض الحكماء على الحكيم الفيلسوف بقوله وكيف نخاف من الإنسى وأجسامنا نارية صاعدة، وأجسادهم ترابية هابطة ، ونحن نراهم وهم لايروننا ... فأجابه الحكيم والفيلسوف الأول بقوله : هيهات غابت عنك أمور ، مع أن الأمر كما تقول، فإن لهم أرواحا فلكية ، ونفوسا ناطقة فلكية بها يفضلون عليكم ، ويجب أن تعتبروا بما حدث فى القرون الأولى .

فقال الملك : أخبرنا بما حدث فى القرون الأولى .

فقال الحكيم : إن بنى الجان سكنت الأرض قبل آدم ، وكانت فيهم النبوة والشريعة والملك . فبغت الجن وتجبرت ، فلما انقضى الدور واستؤنف دور القرآن . أرسل الله إلى الأرض ملائكة ، وطردت بنى الجان إلى أطراف الأرض، ولكن الملائكة أخذوا بعض الأسرى من الجن منهم (عزازيل إبليس اللعين فرعون آدم) وهو إذ ذاك صبى لم يدرك ، فلما نشأ مع الملائكة تعلم من علمها . فلما طالت الأيام أصبح رئيسا فيها، فلما استؤنف دور القرآن وانقضى الدورالسابق.أوحى الله إلى هؤلاء الملائكة الذين فى الأرض: إنى جاعل فى الأرض خليفة من غيركم ، فقالت الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها كما فعلت بنو الجان قبل ذلك ؟ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال: إنى أعلم مالاتعلمون ، لأنى آليت على نفسى ألا أترك على وجه الأرض أحدا من الملائكة ولا من الإنسى ولا من سائر الحيوان (ويذكر اخوان الصفا فى هذا الباب): أنهم بينو سر هذه اليمين فى موضع آخر.

فلما خلق الله آدم وزوجته حواء أمر الملائكة بالطاعة لهما فانقادت لهما ، ماعدا (عزازيل) استكبارا . فأمر الله الملائكة برفع آدم وزوجته إلى الجنة العالية حيث النعيم المقيم ، بلا مشقة ولا تعب وعلم الله آدم أسماء كل مافى الجنة ، وحرم عليه الأكل من شجرة معينة ، فاغتاظ (عزازيل) لذلك ، وأخذ بسول لهما الأكل من الشجرة المحرمة لأنها هى التى نجعلهما خالدين . فأطاعاه . فبدت لهما عورتهما ، وأمر الله الملائكة بإنزالهما إلى أسفل الجبل الذى عليه الجنة ، فبقيا زمنا لايعرفان شيئا ، وعمهما الحزن ، فتاب الله عليه وارسل بعض الملائكة تعلمهما السعى والحرث والسقى والعمل، ولما تناسلا وكثرت أولادهما خالطهما بنو الجان وعلموهم الصنائع والحرث والزرع،

وتعاشر الجنسان بالحسنى مدة . غير أن بنى آدم كلما تذكروا مافعله (عزازيل) من كيد لأبيهم وأمهم ، حقدوا على الجن . حتى قتل قابيل أخاه هابيل ففهم أبناءها بيل أن الجن هم الذين علموا هابيل ذلك، فازداد هابيل غيظا، واحتالوا عليهم بالرقى والعزائم وغير ذلك من ألوان العذاب فكان ذلك دأبهم إلى أن بعث الله (إدريس النبى)، وهو (هرمس)بلغة الحكماء فأصلح بين الطرفين بالدين والشريعة والملة ، وظل الأمر كذلك إلى أيام الطوفان وكذلك إلى عهد ابراهيم عليه السلام ، فلما قذف (النمروذ) ابراهيم فى النار،اعتقد بنو آدم أن الجان هم الذين علموا (النمروذ) صناعة المنجنيق ،ولما قذف إخوة يوسف أخاهم فى الجب ، ظن بنو آدم أن ذلك من تسويل الجان .

فلما بعث الله موسى عليه السلام أصلح بين الجن وبين بنى إسرائيل بالدين والشريعة ودخل الكثير من الجن فى دين موسى .

ولما كان أيام سليمان سخرالله له الجن يعملون بأمره ، فافتخر الجن على الإنسى بأن ماوصل لسليمان من الملك المديد إنما كان بسببهم ، فلما مات سليمان ولم يعلم الجن بموته إلا عندما سقط بفعل الأرضة . خجل الجن، ولما أراد سليمان ، إحضار عرش بلقيس كان إحضاره بواسطة الذى عنده علم من الكتاب ، وهو (آصف بن برحيا) أسرع مما عرضه الجنى سببا آخر فى تخجيل الجن ، ولما هرب بعض الجن من سليمان ، استعان عليهم بالرقى والعزائم وعلمها للإنس ، فزاد ذلك عداوة بين الجن والإنسى لأن الأخيرين استغلوا ذلك وأرهقوا الجن وأتعبوهم فى التسخير.

ولما بعث عيسى عليهالسلام دعا الإنس والجن فاستجاب لـه بعـض الجن ، ودخلوا فى دينه ، وترهبوا ، وترقوا إلى ملكـوت السـموات واستمعت من الملأ الأعلى.

فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم وآلـه ، منـع الجـن مـن استراق السمع وعند ذلك قالوا : (إنا لاندرى أشر أريد بمـن فـى الأرض أم أراد بهـم ربهم رشدا) وآمن منهـم جماعـة برسـالة محمـد، ومـن يومهـا انصلـح مـابين الإنسى والجن إلى يومنا هذا .

وأضـاف الحكيـم : أرى ألا تثـيروا الإنسـى مـرة أخـرى فتتحـرك العداوات القديمة ، وتقضى على الأخضر واليابس .

فقال الحاضرون : ما العمل إذن ؟ نريد أن ترجع الحيوانات من عندنا راضيـة . فقـال الحكيـم : أرى أن يدعـى هـؤلاء وأولئك ، ويدلـى كـل منهمـا بحجته ، ثم يصدر الحكم بالعدل .

فأجيب : ماذا لو استطاع بنو آدم أن يتغلبوا على البهـائم لأن الأوليـن قد أوتوا مـن فصاحـة البيـان ، مـاليس عند هـذه الحيوانـات هـل يبقـى هـؤلاء المساكين فى الأسر ، ليسومهم بنو آدم العـذاب دائمـا؟ قـال الحكيـم ، لا ، بـل تصبر هذه البهائم فى الأسر ، إلى أن ينقضـى دور القـرآن ، ويسـتأنف نشـوء آخـر ، ويـأتى اللـه بـالفرج والخـلاص ، وكمـا نجـى بنـى إسـرائيل مـن عـذاب فرعون ، وكما نجى آل داود من عذاب بختنصـر وكمـا نجـى آل حمـير مـن عذاب آل تبـع ، وكمـا نجـى آل ساسـان مـن عـذاب اليونـان ، وكمـا نجـى آل عمران من عذاب أردشير ، فإن أيام هذه الدنيا دول بيـن أهلهـا ، تـدور بـإذن اللـه تعـالى، وسـابق علمـه ، ونفـاذ مشـيئته ، بموجبـات أحكـام القرانـات ،

والأدوار، فى كل ألف سنة مرة،او فى كل اثنى عشر الف سنة مرة ، أو فى كل ستة وثلاثين ألف سنة مرة ، أو فى كل ثلاثمائة ألف وستين الف سنة مرة ، أو فى كل يوم مقداره خمسون ألف سنة مرة .

وبينما كان الملك فى هذا المجلس ليلا يشاور أصحابه . اجتمع الإنسى وكانوا سبعين رجلا يخمنون فيما يمكن أن يفعله الملك غدا ، وأخذوا يتوجسون مما يمكن أن يحكم به الملك ، وانتهوا إلى الرأى بأن الملك لو استشار الفلاسفة فإنهم لن يجتمعوا على رأى ، ولو استشار الفقهاء أو القاضى ، فإنهم سيحكمون إما باطلاق سراح هذه الحيوانات ، أو ببيعها ، وانتفاعنا بأثمانها ، وإما بالتخفيف عنها والرحمة بها.

فقال أحدهم : أرأيتم لو حكم القاضى بتخليتها وتسريحها ، فماذا تقولون :

قال آخر: نقول : عبيدنا ورثناهم عن آبائنا وأجدادنا ، ونحن بالخيار، إن شئنا فعلنا ، وإن شعنا لم نفعل .

قالوا : فإن قال القاضى : هاتوا الشهود والصكوك والوثائق؟

قالوا : نجئ بالشهود من جيراننا .

قالوا : فإن قال القاضى لانقبل شهادة الإنسى على بعضهم .

فلم يكن هناك جواب إلا عند (العباسى) الذى قال : نقول كانت لنا صكوك ولكنها غرقت ايام الطوفان .

فقيل له : فإن قال الملك احلفوا اليمين على ذلك.

قال: نقول إن اليمين لايتوجه علينا ، بل يتوجه على الحيوانات

قيل له: فان حلفت البهائم بعدم وجود صكوك .

قال : نقول إنهم كذابون فى قسمهم .

قال قائل آخر : فإن حكم القاضى ببيعها وأخذ أثمانها ؟ فماذا أنتم فاعلون؟ عند ذلك قال أهل الوبر من الأعراب والأكراد والأتراك: إذن نضيع فلا حيلة لنا بدون الحيوانات ، وكذلك يصيب أهل المدن ماأصابنا والأحسن ألا تبيعوها ولاتعتقوها ، بل خففوا عنها العمل والمشقة .

والطريف أن الحيوانات أيضا أخذوا يخمنون فيما سيفعل بهم الملك إلى أن طمأنهم أحدهم بأن الملك عادل ، ولن يحكم لأحد إلا بعد بيان الحجة ، غير أن البعض قال : إن بنى آدم أفصح منا بيانا ونخاف أن يغلبونا بهذا البيان . فالرأى عندى أن ترسلوا إلى جميع طوائف الحيوان لكى تمدنا بما عندها من خطباء فصحاء. فاستصوب الجماعة هذا الرأى ، فأرسلوا إلى ستة أنواع من الحيوان عدا البهائم والأنعام فإن ممثلهم حاضر لديهم والأنواع الستة هى : الحشرات ، والطيور ، والسباع ، والجوارح ، والهوام ، وحيوان الماء.

ولما وصل رسول السباع إلى الأسد ، وأعلمه بالحال . نادى الأسد فى الحيوانات من كل ذى ناب فتجمعوا . وعرض عليهم الأمر فأظهر كل واحد من الحيوانات بما عنده من مواهب ، لكن الأسد لم يستصوب أية واحدة منها لأن كل هذه المواهب والخصال ، من العدو والوثب والافتراس والختل، والخداع والمكر التى عندكم لا تليق فى مواقف القضاء . وإنما هى أليق ببنى الإنسان الذين وإن كانت أجسادهم " بشريه، فإن أنفسهم سبعية ، أما مجالس القضاة والفقهاء فهى غير ذلك، لأن أخلاقهم أقرب إلى أخلاق الملائكة. عند

ذلك قال النمر للأسد : صدقت ، ولكن أرى العلماء والفقهاء من بنى آدم قد تركوا هذه الطريقة التى ذكرت ،وأخذوا فى ضروب من أخلاق الشياطين من المكابرة والمغالاة والتعصب والبغضاء فيما يتناظرون .. قال الأسد: صدقت ومع ذلك ، فإن الرسول الذى نرسله ينبغى أن يكون عاقلا حكيما وخبيرا ، فاضلا ، منصفا كريما ... وليس فى واحد من الحاضرين من يفى بذلك هنا .

ثم قال إن هناك صفات يجب أن تتوافر فى الرسول وهو صفات النصح والأمانة والعفة ... ولاتجتمع هذه الصفات إلى فى(كليلة) أخى (دمنة) وهو ابن آوى . ثم توجه إلى (ابن آوى) وقال له : مارأيك ؟ قال : أنا موافق، لكنى آخاف نوعا من السباع قد استأنسها بنو الإنسان ، مع الأسف ، فقال الأسد: ماهى ؟ قال : الكلاب ، فسأل الأسد مستغربا : ماالذى دعاها إلى ذلك، فتطوع الذئب بالاجابة : لأن طباعها وأخلاقها تشبه طباع بنى آدم . فقال الأسد وماغيرها مما استؤنس للأدميين ؟ قال الذئب: السمور .والعلة فى ذلك هى نفس علة الكلاب .. فلما سمع الأسد ذلك تأسف وحزن وحوقل ، واسترجع. فقال الذئب : ما الذى دعاك إلى هذا أيها الأسد قال : ليس تأسفى على شئ فإننى منهم ، ولكن لما قالت الحكماء بأنه ليس شئ أضر على الملوك من المستأمنين من جندهم وأعوانهم إلى أعدائهم لأنهم يعرفون اسرارهم ، وأوقات غفلتهم فيدلون الأعداء على طرقات خفية ،وكل هذا ضار بالملوك ورعاياهم ثم توجه الأسد إلى (ابن آوى) بالذهاب فى هذه المهمة .

ثم وصل الرسول إلى (الشاه مرغ) ملك الطيور ، وأعلمه بالخبر ، فاستشار وزيره (الطاووس) فجمع جميع أصناف الطيور ، وأخذ يعد للملك مزايا كل طائر . ومن بين ماعدد من مزايا للهدهد ، فهو الجاسوس ، صاحب النبى سليمان عليه السلام ، .... ينقر كأنه يسجد ويركع ، وهو الآمر

بالمعروف والناهى عن المنكر، والقائل لسليمان فى خطابه معه (أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إنى وجدت امرأة تملكهم ،وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم ،وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وذين لهم الشيطان أعمالهم... ويعلم ماتخفون وماتعلنون).

وهكذا أخذ يقص على الملك مزايا : الديك، والدراج ، والحمام ، والقنبر ،والبلبل ، والغراب ، والخطاف ، والكركى،والقطا، والطيطوى ، والهزار وستان .

ثم قال (الشاه مرغ) للطاووس من ترى أنسبهم لهذه السفارة ؟ فقال الطاووس ، كلهم عبيدك يصلح لذلك ، لأنهم كلهم فصحاء ، غير أن الهزاردستان أفصحهم لسانا وأجودهم بيانا ، وأطيبهم نعمة والحانا .

فقال (الشاه مرغ) للهزاردستان : سرعلى بركة الله

ولما وصل الرسول إلى ملك الحشرات وهو (النحل) أمر مناديه فنادى فاجتمعت عنده كل أصناف الحشرات من الزنابير واليعاسيب والذباب ، والبق ، والجراجيس (البعوض الصغير) والجعلان (نوع من الخنافس) والدراريح (نوع من الذباب الأخضر) والجراد ، وبالجملة كل حيوان صغير الجثة يطير بالأجنحة ليس له ريش ، ولا عظم ولاصوف ولاوبر ولاشعر ، ولايعيش سنة كاملة غير النحل .

فقال الملك(النحل) أيكم يذهب للمناظرة مع بنى الإنسان ؟ فأبدى الجميع استعداده ، فعجب الملك قائلا : هكذا بلا فكر ، ولا روايه ، قالوا : ثقة بنصر الله. ولسابق خير منا بذلك وأخذ كل نوع يعدد بلاءه مع بنى الإنسان، وهنا عرض أحد الحكماء من جماعة النحل أن يذهب ، فوافق الملك على ذلك

ثم وصل الرسول – وهو المبغل – إلى ملك الجوارح ، وهو الفتعاء ، وعرفه الخبر . فنادى فى جماعة الجوارح ، حتى اجتمعوا فاستشار العنقاء وزيره الكركدن فيما يصلح من هؤلاء لهذه الوفاءة، فقال : لايصلح لذلك غير البوم. فهو الذى يحاور الآدميين ويعظهم وينذرهم سوء أعمالهم . فتوجه العنقاء إلى البوم ، طالبا رايه فيما قال عنه : الكركدن ، فأجاب : صدق ولكن القضية فى غاية الصعوبة ، لأن بنى الإنسان يتشاءمون منى ، وأنا سأناظرهم وربما أدى ذلك إلى العداوة والحروب وكل ذلك يؤدى إلى الدمار . فقال له الملك : من ترى يصلح لذلك؟ وهكذا أخذ يشاور بعض الطيور حتى استقر الأمر على الببغاء لأنه أقرب إلى بنى آدم يحاكى أصواتهم ويحبونه غير أن الببغاء بالرغم من موافقته على هذا الاختيار ، فإنه طلب المعونة من الملك والجماعة، فلما سألوه عن نوع المعاونة التى يريد ، قال : الدعاء إلى الله ، والسؤال منه بالنصر والتأييد .

ثم وصل الرسول إلى ملك حيوان البحر ،وهو التنين ،وعرفه الخبر ، فنادى مناد ، فاجتمعت إليه جميع الحيوانات البحرية ، من التنانين والكواسج ، والتماسيح ، والدلافين ، والحيتان ، والسموك ، والسرطانات ، والكرازنك ، والسلاحف ، والضفادع ،وذوات الأصداف والفلوس ، وهى نحو سبعمائة صورة مختلفة الألوان والأشكال . وأخذ التنين يعرض على هؤلاء الواحد بعد الآخر مهمة الرسالة فجميعهم اعتذر ، إلا أن الرأى فى النهاية استقر على اختيار الضفدع لأنه حليم وقور ، كثير التسبيح والتهليل كثير الصلاة والدعاة بالعشى والابكار ، ولأن بنى إسرائيل يحبونه ، لأن له عندهم يد بيضاء مرتين: الأولى عندما ألقى بإبراهيم عليه السلام فى النار ، كان الضفدع بملأ فمه بالماء ويذهب إلى النار ويصب عليها الماء محاولا إطفاءها، والثانية أنه

سلط على فرعون عدو بنى إسرائيل ،وهكذا ودعهم الضفدع ، طالبا منهم الدعاء.

ثم وصل الرسول إلى ملك الهوام ،وهو الثعبان ، فجمع جميع أنواع الهوام من الأفاعى ، والعقارب والديدان ... وهى أكثر أنواع الحيوان عددا وأضعفها وأصغرها ، فنظر إليهم الثعبان فى شفقة ثم توجه إلى الله أن بالدعاه أن يهديه إلى سواء السبيل فى الاختيار ، لأن هذه الهوام فى منتهى الضعف والعجز .

فلما رأى الصرصر ماأصاب الملك من الحزن ،ارتفع على جدار وأخذ يخطب خطبة بليغة ، ومن ضمن كلامه : الحمد لله ......الذى .... ثم قضى وقدر ،وأراد ثم أبدع نورا بسيطا ، لامن هيولى متهيئة ، ولا من صورة متوهمة ، بل بقوله : كن فكان فهو العقل الفعال ، ذو العلم والأسرار ، خلق الخلائق ، لا لوحشة كانت فى وحدته ، ولا لاستعانة بها على أمر من أموره ، ولكن يفعل مايشاء .... ثم أخذ يبرهن على أن بعض الحيوانات، وإن كانت كبيرة-إلا أن فيها نقاط ضعف خطيرة ،وبعضها وإن كان صغيرا إلا أن فيها بعض نقاط القوة مالايتوقع ، ألا نرى إلى النملة ، وحكايتها مع سيدنا سليمان واخباره إياها بأنه عادل حكيم فلم تخف منه ، ولكن استطاعت أن تقنعه بأنها حذرت النمل منه حتى لايشغلوا أنفسهم برؤيته عن ذكر الله وهكذا فكل صغير له فائدة ولايحقرن أحد لصغره ..... فعناية الله ورعايته شاملة جميع مخلوقاته، حتى أننا سمعنا بعض جهلة الإنسى يزعمون بأن عناية البارى لم تتجاوز فلك القمر . فلو أنهم فكروا لوجدوا أن عناية الله شاملة غامرة .

وبهذا انقضى الكلام من الرسل .

ولما كان الغد وردت زعماء الحيوانات وجلس الملك للفصل، وحضر قضاة الجن وفقهاؤها وحكامها وحكماؤها واصطف الجن ومن حضر من الإنسى والحيوانات يمنة ويسرة . فلما رآها الملك تعجب من بديع الخلق لمختلف الأجناس ثم نظر إلى أحد حكماء الجن وقال له : ألا ترى هذه الخلائق العجيبة الشأن من خلق الرحمن ؟ فقال الحكيم : نعم أيها الملك، كل ذلك فى كتاب مبين ، لا لغلط ونسيان ، بل لتحقيق وبيان ، لأنه لما احتجب عن رؤية الأبصار بحجب الأنوار ، وجل وعلا عن تصور الأوهام والأفكار ، أظهر مصنوعاته إلى مشاهدة الأبصار ، وأخرج مافى مكنون غيبه إلى الكشف والإظهار والبيان ليدركه العيان ويستغنى عن البيان .

ثم اعلم، أيها الملك ، أن هذه الصور والأشكال والهياكل والصفات التى تراها فى عالم الأجسام وجواهر الأجرام ، هى مثالات وأشباه ، وأصباغ لتلك الصور التى فى عالم الأرواح ، غير أن تلك نورانية شفافة ، وهذه ظلمانية كاسفة ، ومناسبة هذه إلى تلك كنسبة التصاوير والنفوس التى على وجوه الألواح وسطوح الحيطان ، إلى هذه الصور والأشكال التى عليها هذه الحيوانات من اللحم والدم والعظام والجلود ، لأن تلك الصور التى فى عالم الأرواح محركات ، وهذه متحركات ، والتى دون هذه ساكنات صامتات ، ومحسوسات فانيات باليات فاسدات ، وتلك ناطقات ومعقولات روحانيات ، غير مرئيات باقيات .

ثم قام حكيم الجن خطيبا فسبح الله وحمده وأبان فضله على جميع خلقه فى خطبة طويلة .

ثم توجه الملك بكلمة حمد فيها الله وأثنى عليه وذكر كيف خلق الله الإنسان - كما ورد فى القرآن الكريم - وبين فضل الإنسان على سائر

الموجودات ، ثم نظر إلى جماعة الإنس وهم في نحو السبعين رجلا فرأى فيهم رجلا وسيم الخلقة ، فسال عنه فقيل : إنه رجل من (إبرانشهى) يعنى به العراق فطلب أن يتكلم هذا الرجل .

فقام الرجل وحمد الله وأثنى عليه ، وشكره على نعمائه ، فقد علم قومه كيف يزرعون ويصنعون ، ويؤلفون ويتفلسفون . وجعل فيهم السياسة والملك والنبوة والرسالة منهم نوح وإدريس ، وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام . ومن الملوك مثل : أفريدون النبطى ، وسليمان بن داود الإسرائيلى ، ومنوجهر الحريرى ، ودارا التميمى ، وتبع الحميرى ، وأردشير الفارسى ن وبهرام ، وأنوشروان ، وبزرجمهر ، وملوك الطوائف من آل ساسان ، وبنو سامان . فنحن لب الناس والناس لب الحيوان، والحيوان لب النبات ، والنبات لب المعادن , والمعادن لب الأركان، فنحن لب أولى الألباب ... أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم.

فالتفت الملك إلى من حوله من رؤساء الجن طالبا الرأى فيما قال هذا الرجل . فقال صاحب العزيمة – الذى لايحابى – : إن هذا الرجل لم يقل ومن عندنا خرج الطوفان ، وفى بلادنا اختلفت الألسن وتبلبلت العقول ومنا كان نمروذ الجبار ، ونحن طرحنا إبراهيم فى النار ، ومنا كان بختنصر مخرب إيليا ، ومحرق التوراة ، وقاتل أولاد سليمان وآل إسرائيل ، وطرد آل عدنان من شط العراق إلى بلاد الحجاز .

ثم نظر الملك مرة أخرى إلى جماعة الإنسى فوجد رجلا أسمر فقال : من هو ؟ قالوا : رجل من بلاد الهند ، فأمره بالكلام ، فبدأ بحمد الله على ماخص بلاده من الخيرات وجعلها أوساط البلاد بين الحر والبرد ورزقها من

أنواع النبات والأشجار والحيوانات ، والأنبياء فمنهم البدة والبرهميون، وبوداسف وبلوهر... والحمد لله .

فقال صاحب العزيمة : لو تممت لقلت : وبلينا بحرق الأجساد ، وعبادة البدور والأصنام والقرود ، وكثرة أولاد الزنا ، واسوداد الوجوه وأكل البقول والفلافل .

ثم نظر الملك ، فرأى رجلا بيده مدرجة ينظر فيها ، وعليه برد اصفر ويترجح قداما وخلفا عندما يقرأ فى مدرجته ، فسأل من هر : قالوا : رجل من أهل الشام عبرانى من آل إسرائيل ، فقال الملك مروه أن يتكلم ، فقام الإسرائيلى ، وحمد الله واثنى عليه لخلقه السموات والأرض فى ستة ايام، ثم استوى على العرش فى اليوم السابع ، واصطفى آدم من خلقه ، ومن ذريته نوحا ، ثم إبراهيم ومن ذريته إسرائيل ومنهم موسى كلمه وناجاه وأعطاه اليد والعصا والتوراه ، وكتب الأنبيا ، وفلق البحر ، وأغرق فرعون، وأنزل على بنى إسرائيل المن والسلوى ، وأعطاهم مالم يعط أحدا من العالمين، والحمد لله .

فقال صاحب العزيمة : نسيت أن تقول : وجعل منا القردة والخنازير ، وعبدة الطاغوت ، وضربت علينا الذلة والمسكنة ...

ثم نظر الملك فراى رجلا عليه ثياب من الصوف وعلى وسطه منطقة وبيده بيرم يطرحه ويبخريه النار ، رافعا صوته ، يقرأ كلماته ويلحنها. فسأل الملك من هو ، فقيل : رجل من السريان من آل المسيح عليه السلام ، فقال : مروه أن يتكلم ، فقام الرجل خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه. وذكر ماأنعم الله به على قومه بان جعل ناسوته مريم الناسوت ، وقرن به جوهر

اللاهوت، وأيده بروح القدس ، وأظهر على يده العجائب ، وأحيا بــه آل إسرائيل من موت الخطية ... وله الحمد والمنة ، فقال صاحب العزيمــة : قل أيضــا فمـا رعيناها حق رعايتها (الرهبانيـة) وكفرنـا وقلنـا : ثـالث ثلاثــة، وعبدنا الصلبان ، وأكلنا لحم الخنزير، وقلنا على الله الزور والبهتان .

ثم نظر الملك إلى رجـل أسمر شـديد السمرة ، وعليـه ثوبـان ، إزار ورداء شبه المحرم ، راكعا ساجدا يتلو القرآن، ويناجي الرحمن ، قال من هـو ؟ قيل : رجل من تهامة ، قرشي . قال : مروه أن يتكلم ، فقام القرشي خطيبـا فحمد الله وأثنى عليه ، ثـم ذكـر أن اللـه أكـرم قومـه بخـاتم النبيين وصـاحب الفرقان ، والطواف حول البيت الحرام وبـالصلاة والزكـاة وصـوم رمضـان ، وبليلـة القـدر وعرفـات ، وفقـه الديـن وعلـم سـنن النبييـن وسـيرة الربــانيين ، وأظهـر ديننـا علـى الديـن كلـه ولـو كـره الكـافرون ، ووعدنـا ثـواب النبييــن والشهداء والصالحين إلى أبد الآبدين والحمد لله .

قال صاحب العزيمة : قل أيضا ، ثم إنا تركنا ورجعنا مرتديــن ، بعد وفاة نبينا ،شاكين منافقين ،وقتلنا الأئمة الخيرين الفاضلين ، كلبا للدنيا بالدين.

ثم رأى الملك رجلا على رأسه مشدة ، بين يديه آلات الرصـد فسـأل من هو ؟ قيل له: رجل من الروم من بلاد يونان . فقال مروه أن يتكلـم ، فقام الرجل خطيبا ،فقال : الحمد لله ... (وأخـذ يشـرح آراء فلاسـفة اليونـان) فالله كان قبل الهيولى ذات الصورة والأبعاد كالواحد قبل الأعداد ... وأفـاض مـن جـوده العقـل الفعـال ذا العلـوم والأسـرار، وهـو نـور الأنـوار ، وعنصـر الأرواح. والله من نور العقل والبحـث مـن جوهـر النفـس الكليـة الفلكيـة ذات الحركـات ، ... وأظهـر مـن قـوة النفس عنصــر الأكــوان ، ذوات الصــورة والكيان ،والله خالق الأجسام ذوات المقادير والأبعـاد ، وهـو مركـب الأفـلاك

والكواكب السيارات ، الموكل بدورانها النفوس والأرواح ، والملائكة ذات الصور والأشباح ، ذوى المنطق والفكر ، والحركات الدورية والله مركب الأركان ذوات الكيان ، وجعلها سكنا للنبات والحيوان والإنسان والجان ... وقد خص بلادنا بكثرة العلوم والصنائع العجيبة وحركات الرصد والطلسمات .. واستغفر الله لى ولكم .

قال صاحب العزيمة : من أين لكم هذه العلوم ؟ الم تأخذوها من آل اسرائيل أيام (بطليموس) ومن آل أهل مصر أيام (مسيطوس) ثم نسبتموها إلى أنفسكم ؟.

قال اليونانى : صدقت ، إن علومنا وعلوم سائر الأمم بعضها من بعض وإلا فمن أين للفرس علم النجوم ، وتركيب الأفلاك ، وآلات الرصد، ألم يأخذوها من أهل الهند؟ ومن أين لبنى إسرائيل علم الحيل والسحر والطلسمات ؟ لولا أن سليمان استخرجها من الأمم التى غلبها ،وبعضها ورثها آل إسرائيل من كتب أنبيائهم التى ألقتها إليهم الملائكة .

قال الملك للحكيم : ماقولك ؟ قال : صدق.

ثم نظر الملك إلى رجل دائم النظر فى السماء يدور مع الشمس حيث دارت حسن البزة . فقال من هو؟ قيل : رجل من أهل خراسان ، من بلاد (سرو) و (الشاها). قال الملك : فليتكلم . فقام الرجل خطيبا : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم بدأ فى ذكر ميزات بلاد الفرس وطبيعتها ونسائها ورجالها الأقوياء . وأخذ بسرد بعض الآيات – التى لاشأن لها ببلاد الفرس – على أنها تشيد بفضل أهل فارس ، كما أورد الأحاديث المروية فى شأن فضل أهل فارس ، وأفتخر بأنهم هم الذين لبسوا السواد وأخذوا بثأر الحسين ، وطردوا

البغاة من بنى مروان ، وهم يتوقعون أن يظهر فيهم المنتظر لأن عندهم عنه الأخبار واستغفر الله لى ولكم . فقال الملك لأصحابه : ماترون فيما قال ؟ قال كبير الفلاسفة : صدق فيما قال . لولا أن فيهم جفاء الطبع ، وفحش اللسان ، ونكاح الغلمان ، وتزويج الأمهات ، وعبادة النيران ، ويسجدون للشمس من دون الرحمن . ولكن الحق بيدهم.

ثم نادى مناد إلى جميع من حضر بالانصراف فى هذا اليوم إلى مساكنهم على أن يعودوا فى اليوم التالى .

وفى اليوم التالى – وكان هو اليوم الثالث – عاد المجلس إلى ماكان عليه فى اليوم السابق . فنظر الملك إلى (ابن آوى) فسأله من أنت ؟ قال: زعيم الحيوان والسباع ، فقال من أرسلك ؟ قال الملك ، قال: من هو ؟قال الأسد ، فساله عن الأسد وصفاته وعبيده وجنوده ، فأجاب ابن آوى بوصف ذلك .

ثم نظر الملك، فرأى الببغاء فقال له : من أنت ؟ قال : زعيم الجوارح من الطيور ، قال : من أرسلك ؟ قال : الملك؟ قال : من هو ؟ قال: العنقاء ، قال : أين مسكنه ؟ قال : جزيرة بالبحر الأخضر ، قال : صفها: قال جيدة التربة والهواء ، تقع تحت خط الاستواء ، عذبة المياه ، جميلة الأشجار ، يسكنها كثير من أنواع الحيوان والطيور، ثم طلب منه أن يصف (العنقاء) ، فوصفها له .

ثم سمع الملك صوتا على الجدار ، فإذا به (الصرصر) فقال من أنت : فقال زعيم الحشرات والهوام ، قال من أرسلك ؟ قال : الملك . قال : من هو ؟ قال (الثعبان) . قال أين يسكن ؟ قال : بلاد الزمهرير فى ناحية

القطب .... من شدة حر سمه الذى هو فيه ، فقال : صفه . قال : مثل التنين. قال من يصف لنا التنين ؟ فأشار (الصرصر) إلى الضفدع وقال هذا الراكب على الخشبة . فقال الملك للضفدع : من أنت ؟ قال : زعيم حيوان الماء ، قال من أرسلك ؟ قال : ملك حيوان الماء ، قال : من هو ؟ قال : التنين . قال : أين يسكن ؟ قال فى قعر البحار العميقة، وأخذ يصف خدمه وجنوده من حيوانات الماء ثم أخذ يصفه هو بأمر من الملك . ومن وصفه أن حيوانات الماء يأكل الكبير الصغير ، بل إن التنين نفسه تؤذيه دويبة صغيرة فتقتله ، فإذا مات اجتمعت على جثته جميع حيوانات الماء فأكلته ، وأضاف هكذا بنو آدم يأكلون الحيوانات ، واذا ماتوا أكلتهم الديدان ، فهم يأكلون ويؤكلون مثل الحيوانات ، ولكنهم لايعتبرون. فبماذا يفتخرون علينا ؟ إن جميع الحيوانات البرية والبحرية لو خرجت على قلب حيوان واحد لأهلكت بنى آدم، ولكن الله كفها عنهم : ولقد غر بنى آدم ماكان تحت أيديهم من حيوانات استعبدوها ، لأنها لاشوكة لها ولا صولة .. فأخرجهم ذلك إلى مايقولونه بغير حق ولابرهان .

ثم التفت الملك إلى جميع بنى آدم الحضور ، فقال : من ملككم فأجاب احدهم : لنا ملوك عدة فى بلاد كثيرة ،فقال : لماذا لايكون لكم ملك واحد مثل كل نوع من أنواع الحيوانات ، مع أنهم أكثر منكم عددا واقل منكم ملوكا ، وأنتم أقل منهم عددا ، وأكثر منهم ملوكا . فقال : لأن طباعنا مختلفة ، ومشاربنا متنوعة ، وأخذ يفصل قوام الدولة وتنظيم المجتمعات من جنود ، وأعوان ، وقضاة وفقهاء، وعلماء ، وتجار وصناع وزراع وما إلى ذلك ، والجزر سبعة ، والبلاد فيها كثيرة ، وفى البلاد مدن كثيرة ،وفى المدن محلات عدة .. وهكذا .

ثم التفت الملك إلى جماعة الحيوان، فسمع أزيزا طروبا ، فإذا هو زعيم النحل ، الملقب باليعسوب . فقال الملك : من أنت ؟ قال : زعيم الحشرات وأميرها ، فقال : لماذا لم ترسل رسولا ، وحضرت بنفسك ؟ فقال: اشفاقا على الرعية، ثم أخذ يصف جماعة النحل بما أعطاها الله من الملك والنبوة وعلمها العلوم الهندسية وتوزيع العمل وما إلى ذلك من خصائص النحل.

فلما فرغ من ذلك ، أثنى عليه الملك لفصاحته وبلاغته وكثرة مواهبه ولما ساله " عن مساكن النحل ، قال : فى رءوس من الجبال ، وأعالى الأشجار، وأحيانا تجاور بنى آدم ، ولكنهم يظلموننا ويقاسموننا أرزاقنا ، ويقتلون أولادنا ثم يزعمون أنهم أرباب لنا ونحن عبيد لهم . بغير حجة ولابرهان .

ثم طلب اليعسوب من ملك الجن أن يصف له حسن طاعة الجن لملوكها ورؤسائها . فأجابه إن طاعة الجن لرؤسائهم مثل طاعة الكواكب للشمس ، فالشمس رئيس الكواكب ، والمريخ مثل صاحب الجيش ، والمشترى كالقاضى ، وزحل كالخازن ، وعطارد كالوزير ، والزهرة كالحرم، والقمر كولى العهد ، وسائر الكواكب كالجنود والأعيان والرعية ... فقال اليعسوب للملك، ومن أين للكواكب حسن الطاعة ؟ قال : من الملاكة الذين هم جنود رب العالمين ، قال : صف حسن طاعة الملائكة لرب العالمين .قال : كطاعة الحواس الخمس للنفس الناطقة، فإنها تؤدى المعلومات إلى النفس الناطقة بلا أمر ولا نهى ولاتأجيل ... وكذلك الجن منهم الأخيار والأشرار فالأخيار أطوع لرؤسائهم، وكذلك الأشرار بدليل أنك إذا استعذت بعظيم الجن انصرف الجنى الشرير عمن الم به . وإذا قرأت آية من التوراه أو الانجيل أو القرآن

انصرف الجنى المارد فى الحال . وذلك على عكس بنى آدم فلا يطيعون إلا بمكافأة ، فإن لم يكافأوا فالعصيان والإفساد والإهلاك .

ولما رأى الإنسى طول كلام ملك الجن مع العيسوب أحتجوا بأن ذلك ربما يؤدى إلى تحيز ملك الجن . فقيل لهم لا : بل إن للملوك مع بعضهم خلوات ، وهذا ملك الجن ، مع ملك النحل ، وهنا التفت ملك الجن إلى جماعة الإنسى ، لقد سمعتم ما احتج به رؤساء الحيوانات ، فهل لكم من حجة أخرى؟.

فقام رجل من أهل الروم فقال بعد حمد الله والثناء عليه : نعم أيها الملك إننا نمتاز عن سائر الحيوان بعلومنا وفكرنا وحسن تدبيرنا وتعاوننا وهذا دليل على أننا أرباب لهم ، وهم عبيد لنا .

فقام اليعسوب يرد عليه بأن افتخار بنى أدم فى غير محله ،فهناك أنواع من الحشرات أذكى وأعلم وأجود تنظيما مثل النحل فى حياتها الجماعية، وكذلك النمل وكذلك الزنابير السوداء والحمراء. بل إن الحشرات التى لاتدخر ولاتعمل حسابا كالحشرات السابقة تسلم أمرها لله إيقانا منها بأنها سيبعثها مرة أخرى . بخلاف بنى آدم الذين كذبوا رسلهم فى أمر البعث، وقالوا : ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا . فكيف يفخرون علينا ، ويقولون إنهم ارباب لنا ونحن عبيد لهم .

ثم أثنى الملك على هذا الخطيب اللسن ، واتجه إلى جماعة الإنس قائلا: هل عندكم من شئ بعد ماسمعتم ؟ فقام خطيب من الإنس أعرابى . فقال إننا نمتاز عن الحيوانات بأنواع المأكولات الشهية والملبوسات الوفيرة، والفرش الممهدة والأوانى أما هم فعيشهم غليظ ، وأكلهم غليظ ، وهذا شأن

العبيد ، وشاننا شأن السادة وبذلك فنحن أربابهم وهم عبيدنا ، أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم .

عند ذلك قام الهزار ، وقال لماذا تفتخرون علينا بجودة طعامكم وأنتم لم تحصلوا ماتحصلون الا بالتعب والمشقة والعلاج وجمع المال من الحلال الذى ستحاسبون عليه، واذا كان من حرام فسيكون العقاب ، أما نحن فنحصل أقواتنا بلا تعب، وكذلك تسكنون الدور وتغلقون عليكم الأبواب أما نحن فنعيش فى هناء بلاغلاق أبواب وطعامكم بورثكم الأمراض والآلام،أما نحن فنعيش فى هناءة وبلا إغلاق أبواب ، وطعامكم يورثكم الأمراض والآلام، أما نحن فغير ذلك. وكل ذلك يدل على أننا نحن الأرباب وأنتم العبيد ، ومادعاكم إلى هذه الدعوى الا المكابرة ، وقلة الحياء.

فقال الإنسى إن مايصيبنا من الأمراض قد يصيبكم ، فقال الهزار إن الطيور التى تصيبها الأمراض انما هى المخالطة لكم مثل الدجاج والديكة والكلاب وغيرهم ، فهذه الأمراض إذن منكم أما مالايخالطكم فإنها لاتأكل إلا وقت الحاجة، وإذا أكلت فبمقدار ماينبغى من لون واحد من الطعام ، أما مايخالطم ، فلا تترك حرة فى طعامها وشرابها ، بل تأكل فى غير وقت الحاجة ، وتشرب فى غير أوقات العطش،بل ربما تأكل بسبب الجوع أكثر من حاجتها . وهكذا تفعلون فى أطفالكم ونسائكم فتسببون الآلام والحزن عقوبة لسوء تصرفكم . والذ ماتأكلون وتتداوون به العسل ، وهو نتاج الحشرات وكل شئ نشاركم فيه من ألوان الطعام، لكنا نأكل منه بلا علاج ولاخوف ولاتعب وقد كنا من قبل نعيش نحن وأنتم فى الجنة، فاستهوى الشيطان أباكم فخرجتم منهاوأخذتم تعانون منا لتعب والشقة فى تحصيل القوت ، أما نحن فمازلنا على حالنا من الراحة والحرية ، وكلما كثرتم بالتوالد ضيقتم علينا ،

فهرب الكثير من أمامكم، وبقى المأسورون بين أيديكم تسومونهم سواء العذاب، واذا كان افتخاركم بالافراح ، والتهانى ، وليس التيجان ، والجلوس على العروش،فان لكم بدل كل حسنة من هذه سيئة مضادة، فبدل الفرح الحزن وبدل التهانى التعازى ، وبدل الغناء البكاء وهكذا ، أما نحن فلنا الفضاء الواسع ، ورءوس الاشجار ، والحرية المطلقة . وكل ذلك من علامة السادة وكل مالديكم من علامات العبيد .

ثم التفت الملك إلى جماعة الإنس قائلا :قد سمعتم ماقال الهزار فهل عندكم شئ آخر، فقام رجل عبرانى من أهل الشام : فحمدالله وأثنى عليه وقال: إن فينا النبوات والكتب المنزلة والشرائع والإذان والنواقيس، والبوقات، ولنا المساجد، والكنائس والبيع . وهذه كلها دليل على أننا أرباب وأنتم عبيد. فقال زعيم الطيور (الهزار) : إن هذا كله عليكم ، لا لكم، فقال ملك الجن : كيف ؟ قال : أيها الانسى لاتفتخروا بهذه الصلوات والزكوات وغيرها من العبادات فإنها تكفير لذنوبكم ، أما نحن فليس لنا ذنوب، فإن الانبياء لايرسلهم الله إلا إلى الذين كفروا به وعصوه ، أما نحن فنعبد الله بلا إرسال رسل ، بإلهام من الله لنا قال "وأوحى ربك إلى النحل .." ، وقال :" كل قد علم صلاته وتسبيحه . فافهم هذه الإشارات المخفية ، وأسرار الالهية .

نظر الملك إلى جماعة الانس ، وقال : هل عندكم من شئ آخر تذكروه؟ فقام العراقى ، وحمد الله واثنى عليه وقال : نعم إننا نمتاز عليهم بوثير فراشنا وجمال ملابسنا ، وستر عوراتنا ، أما هم فملابسهم قبيحة ، وجلودهم خشنة وهذا دليل على أننا أرباب وهم عبيد.

عند ذلك نظر الملك إلى جماعة الحيوان ،وقال : ماتقولون فيمـا قـال؟ فقام زعيم السباع ،وهو كليلة أخو دمنه ، فحمد اللـه وأثنـى عليـه ثـم قـال: إن هذا الذى تفتخرون به علينا من وفير الثياب ، وممهد الفراش ليس من عندكم، بل أخدتموه غصبا مثل الحرير أخذتموه من دودة القز ، وغيره أخذتمـوه مـن الاغنام.ومع ذلك فإن الله عاقبكم بصناعته وغزله وفتله ونسجه، أما نحن فإننا نولد وعلينا مثـل هـذه الاشـياء بـلا تعـب ولا كـد كـل ذلـك عقوبـة لكـم بسـبب عصيان أبيكم آدم ربه .

فقـال الملـك لكليلـة : خـبرنى كيـف عصـى أبوهـم آدم ربـه ، وكيـف عاقبه؟ قال: كان فى الجنة التى فوق الجبل فى الشرق ،وهو مسـتور بالشـعر هو وزوجه وينعم بالحرية ، والنعيم ، فلما تخطى طوره ، وأكـل مـن الشـجرة قبـل الاوان سـقط شـعره وبـدت سـوءته وطـرد مـن الجنـة. وأخـذ يعـانى هـو وزوجه ويكد ويتعب . عند ذلك قال زعيم الانـس : إنكـم ايهـا السـباع بـالذات شر خلق الله، تفترسون الحيوانات الضعيفة وتأكلونها فأجـاب زعيـم السـباع : لقد تعلمنا ذلك منكم ، فقد كان الوضع قبل خلق آدم على غير ذلك ، لأننا كنـا نقنع بجثث مـايموت مـن الحيـوان ، أمـا الان وبعـد أن ضيقتـم علينـا وأسـرتم مأسرتم من الحيوانات ، لم يبق أمامنا مايكفينا فنحن مضطرون، فهذا حـلال، كما أباح الله لكم أكل الميتة عند الاضطرار . وكذلك أنتم الذيـن تسـتحقون أن توصفوا بالشر، فأنتم الذين تذبحون الحيوانـات وتطبخونهـا بالنـار وتأكلونهـا ، ومن ثم تعلمنا منكم العدوان على سائر الحيوانات وافتراسـها . ثـم اسـمع ايهـا الانسى : اليس فيكم أخيار؟وهم النساك والعباد ،والرهبان والاحبـار ؟ لمـاذا تركوا بقية البشر وأنسوا فى خلواتهم إلى الوحوش الكاسـره ، فلـم يفعلـوا بهـم شيئا ، وماذاك إلا لأن منا أشرار وأخيار ، والاخيار لايعتدون على الاخيار .

قال حكيم من الجن : صدق فيما قال، إن الاخيار يهربون من الاشرار ، ويأنسون إلى الاخيار . عند ذلك خجل جماعة الانسان ،وانفض المجلس على أن يعودوا فى الغد.

وفى الغد اجتمع الجميع كما كان الامر بالامس ، وقال الملك لجماعة الإنس : قد سمعتم ماقاله الحيوانات بالامس ، فهل عندكم من شئ تقولونه؟ فقام الزعم الفارسى : وقال : إن منا الملوك والسلاطين وأعوانهم ، ومنا الصناع والزراع ،والعلماء ، والنحويون ، والادباء والشعراء ،والفلاسفة والمنجمون .. وهكذا وهذه الحيوانات عارية عن ذلك ، وهذا دليل على أننا أرباب لهم وهم عبيد لنا .

عند ذلك قام الببغاء ، فحمد الله وأثنى عليه .وقال : إن منكم بازاء ماذكرت ضده ، فمنكم الفراعنة ، والنمارزه ، والكفرة والفجرة ، والفسقة ، والمشركين وهكذا ، كما أن افتخارك ايها الآدمى بان لكم ملوكا وسلاطين. فنحن أيضا كذلك وملوكنا يعملون لصالح رعيتهم بلا مقابل، أما ملوككم فيعملون لصالح رعاياهم مقابل النفع الذى يعود عليهم.

فلما ذكر الببغاء ذلك وانتهى كلامه ، قال حكماء الجن وفلاسفتها صدق فيما قال ، عند ذلك خجل الانس ،فلم يستطع أحد منهم أن يعقب على ماقال، عند ذلك قال الملك لرئيس الفلاسفة من الجن: من هؤلاء الملوك الذين وصفهم هذا القائل من رحمتهم على رعاياهم؟ فانى أظن ان فى ذلك رمزا من الرموز وسرا من الاسرار .

قال الحكيم : إن اسم الملك مشتق من اسم الملك (بفتح اللام) ، واسماء الملوك من أسماء الملائكة . وذلك أن مامن جنس من أجناس الحيوان

أو أفرادها إلا وله ملك موكل بحفظه ، وهم عليهم أرحم من الوالدة بولدها ، وللملائكة رؤساء هم رحماء بمرءوسيهم. كل هذه الرحمة الموجودة في الملائكة وفي الحيوان وفي الإنسان من رحمة الله . انها جزء من ألف ألف جزء من رحمة الله . والدليل على ذلك أنه خلقهم ، وسخر لهم كل شئ على ظهر الارض ووكل الملائكة بحفظهم .

قال الملك : فمن رئيس الملائكة الموكلين بحفظ بني آدم .

قال الحكيم : هي النفس الناطقة الكلية الإنسانية التي هي خليفة الله في أرضه ، وهي التي قرنت بجسد آدم لما خلق من التراب ، وسجدت له الملائكة أجمعون ، وهي النفس الحيوانية المنقادة للنفس الناطقة الباقية وأبى ابليس عن سجدة آدم ، وهي النفس الغضبية والشهوانية، وهي النفس الامارة بالسوء، وهذه النفس الكلية الناطقة هي الباقية إلى يومنا هذا في ذرية آدم ، كما أن صورة جسد آدم الجسمانية باقية في ذريته ، إلى يومنا هذا ، عليها ينشأون، وبها ينمون ، وبها يجازون ، وبها يؤاخذون ، واليها يرجعون ، وبها يقومون يوم القيامة ، وبها يدخلون الجنة وبها يصعدون إلى عالم الافلاك .

ثم قال الملك: لم لاتدرك الابصار الملائكة والنفوس؟

قال الحكيم : لأنها جواهر روحانية ، شفافة نورانية ليس لها لون ولا جسم ، ولاتدركها الحواس الجسمانية ، بل تراها الابصار اللطيفة ،مثل ابصار الانبياء والرسل وأسماعهم ، فإنهم بصفاء نفوسهم وانتباهها من نوم الغفلة ،واستيقاظها من رقدة الجهالة ، وخروجها من ظلمات الخطايا انتعشت نفوسهم ، فصارت مشاكلة لنفوس الملائكة ، تراها وتسمع كلامها ،وتأخذ منها الوحي

والانباء ، فتؤديها إلـى أبنـاء جنسـها مـن البشـر بلغاتها المختلفة ، لمشـاكلتهم إياهم بأجسادهم . عند ذلك قال الملك جزاك الله خيرا .

والتفت الملك إلى الببغاء طالبا منه تتميم كلامه ، فقـال بعـد أن حمـد الله وأثنى عليه : اذا افتخرتم أيها الانس بصنـاعكم، فـإن فـى أصنـاف الطـير أمهر منكم مثل النحل فى بناء البيوت بلا تعليـم ولا مـواد للبنـاء ، ومثـل ذلـك العنكبوت ،ودودة القز ،وطائر الخطاف يبنى لنفسه وولده بيتا معلقا فى الهـواء تحت السقوف من الطين وكذلك الارضة من الهوام تبنى على نفسها بيوتا مـن الطين . وعلى ذلـك حكـم صنـاعـة سـائر أجنـاس الطيـور والحيوانـات نجدهـا أحذق وأعلم من بنى آدم . بل إن أولادكم ايها البشر يحتاجون إلـى مـن يعنـى بهم ويعلمهم وإلا بقوا فى الجهالة ، أما أولادنا فـإنهم يتعلمـون علومهم فطـرة من الله . فقل لنا ايها الانسى : أيها أكرم عند الله .

وأمـا الـذى فخـرت بـه مـن أن منكـم الخطبـاء والشـعراء والمتكلميـن والمذكرين وغيرهم (فلو فهمتهم منطق الطير) وتسبيح الحشرات، وتكبـيرات الهوام ،وتهليلات البهائم، وتذكار الصرصر ... لعلمتم معشر الانسـان أن فـى هؤلاء الطوائف خطباء وفصحاء ... مثل مافى بنى آدم ، ولما افتخرتم علينـا، وكفى بذلك قول الله تعـالى " وإن مـن شـئ إلا يسـبح بحمـده ولكـن لاتفقهـون تسبيحهم" فنسبكم الله إلى الجهل ، ونسبنا إلى العلم فقال " كل قد علم صلاتـه وتسبيحه " ، ثم قال :" قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ".

وأماماافتخرتم به علينا بأن منكم منجمين، فإن لهم تمويهات وزرقا ، وذلك أنهم يرجمون بالغيب من مكان بعيد ومن زمان بعيد فيقولون : بعد كذا شهرا أو كذا سنة سيحدث كذا وكذا فى بـلاد بعيـدة ،وهـذا لا ينطلـى إلا علـى الجهلة والحمقى ، وقد يقع فى تصديقه بعـض العلمـاء ومـاذاك إلا لأن هـؤلاء

يكذبون ويهرفون بما لايعلمون ، ولو صدقوا لاخبروا بما يقع فى التو واللحظة. كما أن من يصدقهم من بنى آدم إنما هم الطغاة من بنى آدم مثل فرعون ونمروذ الذى قتل الاطفال بإخبار المنجمين له .

عند ذلك قال الملك لجماعة الحضور ، أحسن الله جزاءه ، نعم ماقال وبين، ثم قال الملك لزعيم الجوارح خبرنى إذا كان لايمكن دفع المصائب التى تخبر بها النجوم والقرانات وغيرها . فقال : يمكن دفع ذلك بالصلوات والإستغفار والصدقات . فقال وكيف ذلك . فقال إن هناك اختبارات نجومية جزئية واختيارات كلية فالكلية من الله فاذا توجه الإنسان إلى الكل فإن الجزء لايؤثر ، وحتى لو حدث مايتوقع فمن الممكن أن ينجى الله منه من يلجأ إلى رب الكل ، أو يتحول هذا الذى لابد واقع إلى خير . فلو أن النمروز عندما أخبره المنجمون بأن سيظهر من يغير دينه لجأ إلى الله لربما هداه الله إلى اتباع دين ابراهيم فتسلم له دولته ، وكذلك فرعون . وعلى هذا جرت سنة الرسل من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم توجه زعيم الجوارح إلى جماعة الإنس وقال لهم : أما متفلسفوكم ومنطقيوكم وجدليوكم فإنهم عليكم لا لكم . قال " الإنسى : كيف ؟ قال لأنهم سبب ضلالكم عن منهاج الدين وأحكام الشرائع بكثرة اختلافاتهم وأنواع آرائهم، فمنهم من يقول بقدم العالم ، ومنهم من يقول بقدم الهيولى ، ومنه من يقول بقدم الصورة ، ومنهم من يقول بعلتين ، ومنهم من يقول بثلاثة ، ومنهم من يقول بأربع ، ومنهم من يقول بخمس ، ومنهم من يقول بست ، ومنهم من يقول بسبع ومنهم من قال بالصانع والمصنوع معا، ومنهم من قال بلا نهاية، ومنهم من قال بالتناهى ، ومنهم من قال بالمعاد ، ومنهم من أنكر ، ومنهم من أقر بالرسل والوحى، ومنهم من جحدهما ، ومنم من شك وارتاب وتحير ،

ومنهم من قال بالعقل والبرهان، ومنهم من قال بالتقليد ، وماسوى ذلك من الاختلافات، أما نحن فمذهبنا واحد ، وديننا واحد ، وربنا واحد ، ولانفتخر على أحد من خلق الله ، لانقول لم ، وكيف ، ولماذا فعل الله ودبر، كما يقول الانس المعترضون على ربهم .

وأما افتخاركم بمهندسيكم فلعمرى إنهم يتعلمون كيف يقيسون الابعاد بين الافلاك والجبال ... ولايتعلمون مابداخلهم من أعضاء لكى يعتبروا بها حتى يتوصلوا إلى معرفة خالقهم قال عليه الصلاة والسلام :" من عرف نفسه فقد عرف ربه) وقال (أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه) فالاولى أن يتعلم هؤلاء دينهم وشريعة ربهم وكتابه وسننه .

وأما افتخاركم بأطبائكم ومنجيكم ، فما ذاك إلا لإفراطكم فى الطعام والشراب. وكذلك لانجد على باب منجم إلا منحوس . فماذا يفعلون لكم سوى وريقات يكتبون فيها مالاينفع ، والاطباء يأمرونكم بتناول أدوية ربما كان فيها حتفكم ، وينهونكم عن تناول بعض الاطعمة ربما كان فيها شفاؤكم . أما نحن فلانسمع لقول أطباء ، بل نأكل فى اليوم مايبلغنا من نوع واحد ولذلك نحفظ على أنفسنا صحتنا.

وأما افتخاركم بصناعكم وبنائيكم، فهم مساكين لايدرون ماينفعهم فانهم يبنون بيوتا لايسكنونها ، لأن القبور هى ملاذهم وملجأهم .

وأما التجار ، فإنهم يكذبون ويجمعون المال من حلال وحرام ، ويحزنون لورثتهم ، فلايتصدقون به ،ولايفعلون به أعمال البر والاحسان فخسروا الدنيا والاخرة.

أما افتخاركم بأهل النعم والمروءات، فانهم عارون من المروءة ، لأنهم لايحسنون إلى أهليهم من الفقراء واليتامى ، والعجزة ، وأما افتخاركم بالكتاب والعمال (نواب الحاكم) فانهم أشر الناس لجودة أفهامهم وإحكامهم للمكائد، وطول ألسنتهم ، ونفاذ خطابهم ، يزخرفون القول لأصدقائهم، وهم يسعون فى حتفهم .

وأما قراؤكم وعبادكم الذين ترجون دعاءهم ، ليكونوا لكم شفعاء عند ربكم ، فهم الذين يظهرون الورع والخشوع والتقشف فى نتف الاسبلة وتقصير الاكمام، وتشمير الإزار والسراويل ، ولبس الخشن من الصوف والشعر والمرقعات مع ترك التفقه فى الدين ، وترك تعلم أحكام الشريعة وسنن الدين وتهذيب النفس واصلاح الأخلاق، والإكثار من الركوع والسجود بلا علم ، وقلوبهم مملوءة حقدا وغيظا ممن لبس مثلهم .

وأما فقهاؤكم وعلماؤكم، فهم الذين يتفقهون فى الدين طلبا للدنيا والرياسة والولايات ، والقضاء والفتيا ، فيحللون ماحرم الله ورسوله ، ويحرمون ماأحل الله ورسوله ويتبعون ماتشابه من كلام الله ابتغاء الفتنة ، ويتركون حقيقة ماأنزل الله من الايات المحكمات .

وأما قضاتكم وعدولكم ، فهم أشر وأنكى ، فقبل تولى القضاء تراهم ملازمين المساجد،وبعد تولية القضاء يركبون المراكب الفارهة ، ويمالئون الحكام فى أكل أموال اليتامى ، وسلب أموال الاوقاف ويأخذون الرشوة.

وأما خلفاؤكم ، فانهم شر مكانا ، قتلوا أولاد الانبياء، ويسبونهم ويغصبونهم حقوقهم ، ويشربون الخمور . وذلك أنهم إذا ولى أحد منهم فإنه يقبض على من كانت لهم أياد على أسلافهم ، وأزال نعمهم، وربما قبض على

أعمامه ،وإخوته ، وبنى عمه ، وأبناء إخوته وأقربائه .وكل ذلك يفعلون بسوء ظنهم وخوفهم على مناصبهم ، وعدم إيمانهم بما قدر الله لهم، واشتروا الدنيا بالاخرة . وإلى هنا انتهى كلام الببغاء.

ثم التفت الملك إلى من حوله من حكماء الجن والإنس، سائلا إياهم عمن أحضر الطين على أجسام (الارضة) فقال رجل من الانس عبرانى : إن الجن هى التى تفعل ذلك مكافأة لها على أنها أكلت عصا سليمان فعلمت الجن بموته ، فنجوا من العذاب المقيم، فقال رجل من الجن : لانعلم أحدا من الجن يفعل ذلك ، وإلا لبقوا فى العذاب المهين .

عند ذلك قال رجل يونانى من الإنس : إن عندنا خبر ذلك وأخذ يعلل تعليلا علميا سبب وجود الطين على أجسام الأرضة نتيجة لإفرازها سائلا من داخلها إلى خارجها فيتجمع الغبار العالق على جسم الارضه ، ومن ثم يتكون الطين. ثم أكمل الصرر كلام اليونانى وأخذ يشرح حكمة الله فى أنه جعل هناك تعادلا فى حيوانات الطبيعة فمنها الصغير ذو الحيلة والمهارة ، ومنها الضخم الجثة وهو مع ذلك سهل القياد . ومع ذلك لايتعظ الإنسان . عند ذلك قال ملك الجن له صدقت من حكيم مؤمن بربك ماأفضلك.

ثم نظر الملك إلى الإنس وقال ماذا ترون معشر الانس فيما شرح هذا الصرصر؟ هل عندكم شئ آخر تقولونه؟ قال الإنس : نعم لنا خصال تدل على أننا أرباب لهم وهم عبيد لنا . وذلك فى وحدانية صورتنا، وكثرة صور الحيوانات ، فالرياسة والربوبية بالوحدة ، والعبودية بالكثرة .

وهنا تحلم زعيم الطيور وهو الهزار فقال : صحيح إن صورهم واحدة ولكن نقوسهم مختلفة ، أما نحن فصورنا مختلفنا ونفوسنا واحدة ،

والدليل على كثرة نفوسهم واختلافها : كثرة آرائهم ومذاهبهم ودياناتهم ، ففيهم اليهود، والنصارى، والصابئون، والمشركون ،وعبدة الاصنام ، والنيران والشمس والقمر والكواكب والنجوم ، بل ان أهل الدين الواحد ففى اليهود: السامرى ، والعنانى ، والجالونى ،وفى النصارى : النصطورى واليعقوبى والملكانى ، وفى المجوس : زرادشتى وزروانى وحرمى ومزدكى وبرهمى ومانوى ،وفى أرباب النحل : ديصانى رسمنى ،وفى المسلمين : خارجى وناصبى ورافضى ، ومرجئ وقدرى وجهمى ومعتزلى وأشعرى وشيعى وسنى. وغير ذلك من أرباب المذاهب ،والبعض يكفر البعض ويلعنه، ونحن من هذه كلها براء فمذهبنا واحد موحدون مسلمون .

فقال الزعيم الفارسى : ونحن أيضا موحدون ربنا واحد ورازقنا واحد

فقال الملك : فلماذا إذن تختلفون فى الاراء والديانات والمذاهب والرب واحد؟ فأجاب : إن هذه المذاهب والديانات كلها مسالك إلى رب واحد والمطلوب واحد من أى الجهات توجهنا فثم وجه الله.

قال الملك : فلم يقتل بعضكم بعضا إن كان أهل الديانات كلهم قصدهم واحد ؟ فقال المستبصر الفارسى : نعم أيها الملك، ليس من أجل الدين لأن الدين لا إكراه فيه ، بل من أجل سنة الدين الذى هو الملك . فقال الملك : كيف ذاك ؟ قال : إن الدين والملك توأمان ، لكن الدين هو المقدم والملك هو التالى ، فلابد للملك من دين يتدين فيه الناس ، ولابد للدين من ملك يأمر الناس بإقامة سننه طوعا أو كرها ، فلهذه العلة يقتل أهل الديانات بعضهم بعضا طلبا للملك والرياسة . وأزيد الامر وضوحا ، فأقول : إن قتل النفس سنة فى جميع الديانات والدول ، غير أنه فى الدين يقتل الانسان نفسه وفى الملك يقتل الانسان غيره . فقال الملك : إن قتل الانسان غيره فى الملك

واضح، أما قتل الإنسان نفسه فى الدين فغير واضح ! بينه لى . قال : إلا ترى أن فى سنة الإسلام يقول الله تعالى " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون.. الاية" وقال" إن الله يحب الدين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص " وقال فى سنة التوراة " فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم " وقال المسيح فى سنة الإنجيل لأنصاره " استعدوا للموت والصلب فتكونون معى فى ملكوت السماء عند ابى وابيكم وإلا فلستم منى " فقتلوا ولم يرتدوا عن دين المسيح . وهكذا يفعل البراهمة يقتلون أنفسهم ويحرقون جثثهم ، وهكذا يفعل المتألهة من الحكماء ، والثنوية تمنع أنفسها الشهوات وتكثر من العبادات حتى يقتلوا أنفسهم وهكذا يكون القياس.

ثم قام رجل من الهند وقال إننا أيضا أيها الملك أكثر عددا وتنوعا من الحيوانات (وأخذ يعدد أهالى جميع البلاد المعرفة إذ ذاك) وكل هذا يدل على أننا أرباب الحيوانات وهم عبيد لنا .

فقام الضفدع (وأخذ يعدد جميع أصناف الحيوانات برا وبحرا بما يفوق عدد بنى آدم).

عند ذلك قال حكيم من الجن موجها كلامه للفريقين الحيوان والإنسان وقال : ذهب عنكم ياذوى الابعاد الثلاثة من ساكنى البر والبحر والجبل معرفة كثرة الخلائق الروحانية ، والصور النورانية والارواح الخفية والنفوس البسيطة ، والصور المفارقة التى مسكنها فى فسحة أطباق السموات وسريانها فى فضاء سعة عالم الارواح والافلاك من الملائكة الروحانيين والكرمليين وحملة العرش أجمعين . وما فى سعةكرة الاثير من الارواح النارية ،ومافى سعة كرة الزمهرير من قبائل الجن والشياطين . فلو أنكم يامعشر الانس

والجن عرفتم عدد هؤلاء لصغرت فى أعينكم أنفسكم ياأصحاب الإجرام والإركان والإبعاد واصحاب الإجساد الجزنية . وذلك أن سعة كرة الزمهرير زيد على مساحة البر والبحر اكثر من عشرة اضعاف، وسعة كرة فلك القمر تزيد على سعة كرة الإثير عشرة أضعاف وهكذا قس كرات سائر الإفلاك ، حتى تصل الفلك المحيط، كلها ليس فيها شبر إلا وفيه من الإرواح مالايحصى ، كما قال النبى صلى اللـه عليه وسلم، حين سئل عن معنى قوله تعالى " ومايعلم جنود ربك إلا هو" قال " مافى السموات السبع موضع شبر إلا وهناك ملك قائم أو راكع أو ساجد لله تعالى " وبذلك يكون افتخاركم أيها الإنس بكثرة عددكم ليس دليلا على أنكم أرباب وغيركم عبيد بل الكل عبيد لله تعالى .

عند ذلك طلب الملك من الإنس إذا كان عندهم كلام آخر أن يقولوه. فقام خطيب حجازى مكى مدنى فقال: نعم أيها الملك إن عندنا برهانا قاطعا على أننا أرباب لهذه الحيوانات وهم عبيد لنا . فقال الملك : وماهو ؟ قال : إن الله وعدنا بالبعث والنشور دون هذه الحيوانات ووعدنا الجنان ومافيها من نعيم مقيم وجوار رب العالمين .

عند ذلك قام الهزار : كما وعدكم النعيم أوعدكم بالعذاب ، أما نحن فلم نوعد بنعيم ولا بعذاب فلا لنا ولا علينا، ومن ثم تكافأت الإدلة عند ذلك قام زعيم من الإنسان ، وقال: فما لكم والإفتخار !! وكيف تساوت الإقدار ؟ إننا إذا كنا مرحومين فسنكون فى الجنة مع الإنبياء والإئمة والإولياء ، والسعداء، والحكماء ، والإخيار ، والفضلاء، والإبدال ..... واذا كنا مردودين فسندخل فى شفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أما أنتم فبعد موتكم لاتعودون ابد الإبدين .

(عند ذلك أعلن زعماء الحيوانات وحكماء الجن جميعا بأن ماجاء به الإنس فى هذه النقطة هو الحق) وقالوا : بمثل ماافتخرتم أيها الإنس يفتخر المفتخرون ، ويمثل أعمالكم فليعمل العاملون ، ولكن خبرونا يامعشر الإنس عن أوصاف هؤلاء الأولياء والأئمة والأبدال والصالحين؟ وبينوا لنا معارفهم وعلومهم ومحاسن أخلاقهم ، وصالح أعمالهم ، إن كنت تعلمون.

فقام عند ذلك الخبير الفاضل الذكى العابد المستبصر ، الفارسى النسبة العربى الدين : الحنفى الإسلام ، العراقى الادب ، العبرانى الخبر ، المسيحى المنهاج ، الشامى النسك ، اليونانى العلوم، الهندى التعبير، الصوفى الإشارات ، الملكى الإخلاق ، الربانى الرأى الالهى المعارف . فقال : بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أيها الملك العادل ، لما بان وتبين فى حضوركم صدق مادعى جماعة الإنس ، وظهر عندك ان من هؤلاء الجماعة قوم هم أولياء الله وصفوته من خلقه وخيرته من بريته وأن لهم أوصافا حميدة ،وصفات جميلة ، وأعمالا زكية ، وعلوما متقنة ومعارف ربانية ، وأخلاقا ملكية، وسيرا عادلة قدسية ، وأحوالا عجيبة قد كلت ألسن الناطقين عن ذكرها ، وقصرت اوصاف الواصفين لها عن كنه صفاتها ، وأكثر الذاكرون فى وصفهم ، وطول الواعظون الخطب فى مجالس الذكر عن بيان طريقهم ، ومحاسن سيرهم ومكارم أخلاقهم ، وطول أزمانهم ودهورهم ، ولم يبلغوا كنه معرفتها . فما يأمر الملك فى حق هؤلاء الغرباء من الإنس ، وهؤلاء الحيوانات العبيد لهم ؟

فأمر الملك أن تكون الحيوانات بأجمعها تحت أوامرهم ونواهيهم ويكونوا منقادين للإنس . فقبلوا مقالته ، ورضوا بذلك ، وانصرفوا آمنين فى حفظ الله تعالى وأمانه .

التحليـــــل:

نحنَ أمـام نـص أدبـى رفيـع المستوى ،ولا أدرى كيف خفـى علـى دارسى إلادب العربى القدماء مثل هذا النوع من القصص إلادبـى، فـى جـودة عبارته ، وحسن أسلوبه ، ودقة السرد القصصى فيه وتتابع إلاحداث . أجل قد تكون هناك عيوب فنية بالمقاييس النقدية الحديثة مثل عدم تتابع الحدث أو عدم نموه نموا طبيعيا ، بل كانت إلاحداث أحيانا تفتعل مـن أجـل إيصـال الفكـرة ، فالفكرة هنا هى سيدة العمل إلادبى . غير أن الخيال وهو عنصر من عنـاصر القص إلادبى موظف توظيفا يخدم الغـرض إلاصلـى مـن مثـل هـذه القصـص الرمزية.

ولا يخفى أن الرمز هنـا هـو سيد الموقـف، وقـارئ النـص ممـن هـو متخصص فى الفكر الفلسفى ، وخاصة الجو الفلسفى فى المجتمع إلاسلامى إذ ذاك . لايخطئه العثور على المقصود مـن وراء هـذا الرمـز، بـل إن كـاتب أو كتاب (رسائل إخوان الصفاء) لم يتركوا القارئ فى حيرة إزاء تفسير الرمـز فى هذه القصة ، إذ سرعان ماتم الكشف عن الرموز عقـب إلانتهـاء مـن هـذه القصة مباشرة حيث ورد" وأنت ياأخى ، فاعلم علما يقينا بـأن تلـك إلاوصـاف التى غلبت إلانس على طبقات الحيـوان فـى حضـور ملـك الجـن هـى التحقق بـالعلوم والمعـارف ، والتـى أوردناهـا فـى إحـدى وخمسـين رسـالة بـأوجز مايمكن، وأقرب مايكون : وهذه الرسالة واحدة منها ، ونحن قد بينـا فـى هـذه الرسالة ماهو الغرض المطلوب علـى لسـان الحيوانـات ، فـلا تظنـن بنـا ظـن السوء ، ولاتعد مقالتنا ملعبة الصبيان ،ومخرفة إلإخوان ، لأن عادتنـا جاريـة على أنا نبين الحقائق بألفاظ وعبارات على وجه إلاشـارات والتشـبيهات علـى

لسان الحيوانات ومع هذا لاتخرج عما نحن فيه ،عسى أن يتأمل المتـأمل فـى هذه الرسالة ويتنبه من نوم الغفلة ، ويتعظ من مواعظ الحيوانات ...".([1])

وإخوان الصفاء فى هذه القصة قد نجحوا فى توصيل مايريدون إلـى القارئ فـى بـاب العقـائد ، والتـاريخ ، والسياسـة ، والإجتمـاع بطريقـة أقـرب ماتكون إلى الفن القصصى من خلال مانطقت به الحيوانات أو جنس الجن أو جنـس الإنسـان ، بـل الاكـثر مـن ذلـك فـإن الرجـال الذيـن اختفـوا وراء هــذه الرسـائل يكـادون يعلنـون عـن هويتهـم وجنسـيتهم بطريقـة مقصـودة أو غــير مقصـودة . وإليك البيان :

أولا: المنهج التأويلى :

القرآن الكريم له ظاهر وباطن . ومن ثم فإنهم يذهبـون إلـى البـاطن لأن " للكتب النبوية تأويلات وتفسيرات غير مايدل عليه ظاهر الفاظها يعرفهـا العلماء الراسخون فى العلم ، فليسأل الملك أهل الذكر"([2])، وقد جـاء ذلـك فـى سياق القصة دليلا على أن ليس للإنسان ان يستشهد بالقرآن دليلا علـى أن قـد خلقه الله فى أحسن تقويم .

ومن هذا النص يمكن استنتاج نتيجتين :

١- أنهم ينظرون إلى النص القرآنى على أنه من كلام الرسول، وليـس معنـى ذلك أنهم ينكرون الوحى الالهى ، بل هـم يؤمنـون بـه ، ولكـن لا علـى أن هذا الكلام الموجود فى القـرآن هـو مـن منطـوق الإلـه، بـل علـى أن هـذا الكـلام بلفظـه مـن كـلام الرسـول أمـا المعنـى فهـو للـه ،وذلـك بنـاء علــى

([1]) رسائل إخوان الصفاء ، المرجع السابق ، ص ٨٠.

([2]) رسائل إخوان الصفاء: مجلد ٢ ، ص ٢١٠.

نظريتهم فى النبوة. وهى أنها بالنسبة لقوى النفس النظرية تعتمد على قوت المخيلة ، فهى التى تحيل مايتلقاه النبى من العالم الأعلى إلى أن يتلاءم مع قدرة الإنسان ،ومن ثم كان للنص النبوى ظاهر وباطن ..ثم يتحدثون عن الملائكة بأنهم لاتدركهم الحواس الجسمانية ظن الشم والذوق واللمس، بل تراها الإبصار اللطيفة مثل أبصار الانبياء والرسل وأسماعهم، فانهم بصفاء نفوسهم وانتباهها من نوم الغفلة، واستيقاظهامن رقدة الجهالة وخروجها من ظلمات الخطايا ، قد انتعشت نفوسهم وحييت فصارت مشاكلة لنفوس الملائكة ، تراها وتسمع كلامها، وتأخذ منها الوحى ، وإلانباء ، فتؤديها إلى أبناء جنسها من البشر بلغاتها المختلفة ، لمشاكلتهم إياهم بأجساهم وأجسامهم"([1])، وهذا يعنى أن الرسل تأخذ الوحى من الملائكة بلغة وتؤديها إلى أهلها بلغة أخرى .

والحق أن إخوان الصفاء فى رسائلهم ، يتطابقون تطابقا كاملا مع ماظهر من خلال الكتب الإسماعيلية التى ظلت زمانا طويلا طى الكتمان ، حتى ظهرت إلى الوجود فى العصر الحديث إما بواسطة إسماعيليين محدثين، من أمثال ، مصطفى غالب ، وعادل تامر أو غير اسماعيليين مثل محمد كامل حسين ،وعادل العوا وغيرهما ونظرة واحدة إلى ماجاء فى رسائل إخوان الصفاء عن نظرية الفيض([2])، ثم مقارنته بما جاء فى الرسالة المسماه " جلاء العقل وزبدة المحصول" لعلى بن محمد الوليد نجد الباب إلاول بفصوله الثمانية تدور كلها حول هذه النظرية التى شرحها

([1]) المرجع السابق ، ص ٢٩٤.

([2]) رسائل إخوان الصفاء ، تصحيح خير الدين الزركلى ، القاهرة ، المطبعة العربية ، ١٩٢٨ ، ج ١ ، ص ٢٩.

إخوان الصفاء ، حتى ليخيل إلينا أن هذا الباب ليس إلا شرحا لما جاء في رسائل إخوان الصفاء من نصوص بشأن هذه النظرية([1])، ويختلف إخوان الصفاء ودعاة الإسماعيلية في رسائلهم التي ظهرت تباعا، في عرض نظرية الفيض عن فلاسفة الإسلام المعروفين من أمثال ابن سينا والفارابى، فالاولون يسمون الصادر الاول (العقل الفعال)([2])والاخيرون([3])يسمون العقل العاشر في سلسلة العقول الصادرة (العقل الفعال) . علىأن بعض دعاة الإسماعيلية المتأخرين قد أظهر أن عدد العقول قد تطور إلى عشرة كما هو الحال عند ابن سينا الفارابى([4]).

٢- توجه القارئ إلى سؤال أهل الذكر ، وهذا في الواقع تعبير قرآني ، ومن ثم لايستطيع أحد أن يأخذ عليهم ملحظا في ذلك ولكنهم في مواضع أخرى يذهبون إلى أن المعنى بتفسير معاني القرآن ، أو معرفة التأويل ليس أي

([1]) العـــوا، عادل : منتخبات إسماعيلية ، دمشق ،١٩٥٨ . والرسالة تقع من ص ٨٧ إلى ص ١٨٠.

([2]) الدسوقى، عمر : إخوان الصفاء ، القاهرة ، ص ١٤١-١٤٣.

وانظر : رسال إخوان الصفاء ، تصحيح خير الدين الزركلى ، ص ٢٩.

وانظر : الداعي الشيخ حسن المعدل ، معرفة النفس الناطقة والعلوم الغامضة ، ضمن مجموعة أربعة كتب حكانية ، تحقيق ، مصطفى غالب ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ص ١١٥ ، ١١٦.

([3]) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ، مرجع سابق ، القسم الثانى ، ص ٣٨٩-٣٩١ ، وانظر الفارابى : رسالة فى معانى العقل ، ضمن مجموعة رسائل الفارابى، القاهرة ، مطبعة السعادة، ١٩٠٧، ص ٥٤، ٥٥ .

([4]) الوادعى، على بن حنظلة المحفوظى : رسالة ضياء الحلوم ومصباح العلوم (ضمن مجموعة أربع كتب حقانية) تحقيق مصطفى غالب بيروت ، ١٩٨٣، ص ٨٨.

واحد ، وخاصة أولئك العامة الذين ليس لهم شأن فى التلقى من الإمام المعصوم الذى يعتبر بدوره هو المعادل أو الموازى أو الممثل للعقل الفعال.([1])

والحق أن المنهج التأويلى هذا قد لعب دورا خطيرا لدى إخوان الصفاء ، والإسماعيلية ، بل وكثير من فلاسفة الإسلام ، وعلى راسهم ابن سينا .

وهناك فرق بين التفسير والتأويل فى مجال التعامل مع النص القرآنى، فالتفسير هو البحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية فهو شامل لكل مايتوقف عليه فهم المعنى وبيان المراد من القرآن أما التأويل ، فله معنى عند السلف يختلف عنه عند المتأخرين ، فمعناه عند السلف: إما أن يراد به مايراد فى معنى التفسير ، وإما أن يراد به نفس المراد بالكلام، فإنكان الكلام طلبا ، كان التأويل نفس الفعل المطلوب ، وعلى هذا فيكون ارجاع كل ماجاء فى القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثانى ، أما معناه عند المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين فهو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح ، لدليل يقترن به ، ... وعلى هذا فالمتأول يحتاج لأمرين : الاول : أن يبين احتمال اللفظ للمعنى الذى حمله عليه، وادعى أنه المراد . الثانى : أن يبين الدليل الذى أوجب صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح.([2])

([1]) حسين ، محمد كامل : طائفة الإسماعيلية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩، ص ١٤٨.

([2]) الدهبى محمد حسين : التفسير والمفسرون ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦١، ج ١ ، ص ١٣-١٧.

وقد لاحظ بعض الباحثين المحدثين اختلاف إلاسماعيلية فيما بينهم فى تأويل القرآن، فلم يلتزموا منطقا معينا يسيرون عليه ، فقد اختلف التأويل الباطن عندهم باختلاف شخصية الداعى وباختلاف موطنه وزمن وجوده ، فإذا قرأنا تأويلات الداعى (منصور اليمين) قبل ظهور الدولة الفاطمية بالمغرب، نجدها تميل إلى الغلو، وهى أشبه بما كان يقول به الغلاة المتقدمون مثل الخطابية والسليمانية وغيرهم . وتأويلات دعاة فارس بعد قيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ، تختلف عن تأويلات الدعاة الذين كانوا بالقرب من إلائمة بالمغرب ، ففيها التاليهالصريح للأئمة ، وفيها طرح الفرائض الدينية ... وذلك بخلاف ماكان عليه إلامر فى بلاد المغرب ، إذ لم يصرحوا بهذه إلاراء إلا فى كتبهم السرية الخاصة، أما التأويل الباطن فى العصر الفاطمى فى مصر، فقد خف هذا الغلو إلى درجة أن الدعاة اضطروا إلى استنكاره واستبشاعه أمام الشعب . أما إلاسماعيلية النزارية (إلاسماعيلية الشرقية فى فارس) فقد اعتنقوا العمل بالتأويل الباطنى ، دون إلاخذ بالظاهر([1]).

والمنهج التأويلى عند هؤلاء وأولئك يقوم على إلاتى:" قالوا : للقرآن ظاهر وباطن، والمراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللغة ،ونسبة الباطن إلى الظاهر ، كنسبة اللب إلى القشر، والمتمسك بظاهره معذب بالشقشقة فى الكتاب، وباطنه مؤد إلى ترك العمل بظاهره ، وتمسكوا بقوله تعالى فى إلاية (١٣) من سورة الحديد (فضرب بينهم بسور له رباب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب)".([2])

([1]) حسين ، محمد كامل : طائفة إلاسماعيلية ،مرجع سابق ، ص ١٦٦.

([2]) المرجع السابق ، ص ١٦٨.

ثانيا : يركز إخوان الصفاء على تصرفات إلافلاك والنجـوم وتحكمهـا فى مصائر البشر ،ويذهبون إلى أن مايحدث فى إلارض مـن سـعود ونحـوس إنماهو من فعل هذه النجوم ، فإذا كـانت القرائـات سـعيدة حدثت السـعادة فـى إلارض ، واذا كانت نحسة حدث النحس فى إلارض.

وهذه النجوم لايقف أثرها عند هذا الحد، بل إنها هى التـى تقف وراء انتهاء كل دور ، وبدء آخر من إلادوار التى يمر بها الكون ومن ثم تبـع ذلـك أن إلارض تنتقـل مـن دور الـى دور فهنـاك دور آدم المذكـور فـى الكتـب السماوية ويطلق عليه إخوان الصفاء دور القرآن ، وقبـل هـذا الـدور أى قبـل آدم كانت هناك أدوار ، ودور القرآن هذا سينتهى حتما ويأتى بعده دور آخر.

هذا مالمح به إخوان الصفاء من خـلال قصتهم ، وكتب إلاسماعيلية إلاخرى فصلت فيه القول تماما فمثلا يقول إخوان الصفاء خـلال قصتهم هـذه إن الجن الذين سكنوا إلارض قبل آدم كانوا هم خلفاء الله فى إلارض([1])، كما يذكرون أن تغير إلايام ، وقيام الـدول وسـقوطها ، وسـيادة أمـة مـن إلامـم أو اندحارها انما يكون ذلك بموجب أحكام النجوم والقرانات ، فيقول زعيم البهائم مخاطبا ملك الجن " وهل هى أيها الملـك العـادل إلا دول ، ونـوب تـدور بيـن الناس ، بموجبات أحكام النجوم والقرانات"([2]).

ويقـول حكيـم الجـن " فـاعلم أن بنـى الجـان كـانت فـى قديـم إلايـام وإلازمان قبل آدم إبى البشر ، عليه السلام ، سكان إلارض وقاطنيها، وكـانوا قد طبقوا إلارض برا وبحرا ، سهلا وجبلا، فطالت أعمارهم ، وكثرت النعمة

([1]) رسائل إخوان الصفاء ، المرجع السابق ، ص ٢٧٨.

([2]) المرجع السابق ، ص ٢١٤ .

لديهم ، وكان فيهم الملك والنبوة والشريعة ، فطغت وبغت ، وأكثرت فى الارض الفساد ، فضجت الارض ومن عليها من جورهم، فلما انقضى الدور، واستؤنف القرآن ..." أوحى الله إلى أولئك الملائكة..."([1]).

ثم يشيرون إلى أن دور القرآن هذا الذى استؤنف بانقضاء دور الجان، ومجئ آدم ، سينتهى ويستأنف دور آخر وإن لم يصرحوا باسم هذا الدور الذى سيعقب دور القرآن، ومعنى ذلك . أنهم لايقولون بختم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وبالتالى لايمكن أن يكون كاتب هذه الرسائل واحدا من أئمة آل البيت كما يزعم بعض دعاة الإسماعيلية ، وكما يؤيدهم الباحث الاسماعيلى المحدث عارف تامر ، على نحو ماذكر سابقا . وإلا كان هذا الامام أو هؤلاء الائمة اما هادمين لرسالة جدهم محمد صلى الله عليه وسلم مكذبين له إذ يقول الله تعالى " ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين"([2]) وإما ان يتاول هذه الاية علىنحو ماسبق من منهج إخوان الصفاء والاسماعيلية فى التأويل البعيد من قواعد التأويل التى سبق شرحها لقد جاء فى القصة على لسان أحد حكماء الجن " ولكن تصيرهذه البهائم فى الاسر والعبودية إلى أن ينقضى دور القرآن ، ويستأنف نشوء آخر ، ويأتى الله لها بالفرج والخلاص كما نجى الله بنى إسرائيل من عذاب فرعون ، وكما نجى آل داود من عذاب بختنصر ، وكما نجى آل حمير من عذاب تبع ، وكما نجى آل ساسان من عذاب اليونان ،وكما نجى آل عمران من عذاب أردشير، فإن أيام هذه الدنيا دول بين أهلها ، تدور بإذن الله تعالى، وسابق علمه. ونفاذ مشيئته بموجبات أحكام القرانات والادوار ، فى كل ألف

([1]) المرجع السابق ، ص ٢٢٨ .

([2]) الاحزاب : آية ٤٠.

سنة مرة ، أو فى كل اثنى عشر الف سنة مرة ، أو فى كل ستة وثلاثين ألف سنة مرة ، أو فى كل ثلاثمائة ألف وستين ألف سنة مرة ، أو فى كل يوم مقداره خمسون ألف سنة مرة".([1])

وهذه النجوم والكواكب هى التى تحرك النفوس الساكنة علىظهر الارض، لأن هناك علاقة قوية بين النفوس الارضية وأرواح الافلاك والكواكب العلوية " ثم أعلم أيها الملك العادل أن هذه الصور والاشكال والهياكل والصفات التى تراها فى عالم الاجسام وجواهر الاجرام . هى مثالات وأشباه وأصباغ لتلك الصورالتى فى عالم الارواح ، غير أن تلك نورانية شفافة ، وهذه ظلمانية كاسفة ، ومناسبة هذه إلى تلك كنسبة التصاوير والنقوش التى على وجوه الالواح وسطوح الحيطان ، إلى هذه الصور والاشكال التى عليها هذه الحيوانات من اللحم والدم والعظام والجلود، لأن تلك الصور التى فى عالم الارواح محركات وهذه متحركات، والتى دون هذه ساكنات صامتات ، ومحسوسات فانيات باليات فاسدات ، وتلك ناطقات معقولات روحانيات غير مرئيات باقيات "([2]).

([1]) الرسائل ، مرجع سابق ، ص ٢٣٣.

([2]) المرجع السابق ، ص ٢٧٦، ٢٧٧ ويخيل الينا أننا هنا أمام نظرية المحاكاة عند أفلاطون التى من أجلهاطرد الشعراء من جمهوريته إذ اعتبرهم يحاكون الاشياء الواقعية التى هى بدورها محاكات لما هو موجود فى عالم المثل ، وذلك بخلاف الصناع الذين يحاكون بأعمالهم ماهو موجود فى عالم المثل مباشرة ، ومن ثم فإنهم أفضل من الشعراء. انظر: محمد غنيمى هلال : مدخل إلى النقد الادبى الحديث . مرجع سابق ، ص ٢٦-٣١.

ولاينسى الإخوان أن ينبهونا إلى أن الفرس قد أخذوا علم النجوم من الهند اذ يقولون فى سياق القصة " من اين للفرس علم النجوم ، وتركيب الافلاك ، وإلات الرصد ، لولا أنهم أخذوها من الهند"([1])

كما أنهم يحددون علاقة النجوم ببعضها البعض ، فإن طاعة الأخيار من الجن لملوكهم ورؤسائهم يشبهون " طاعة الكواكب فى الفلك للنير الاعظم الذى هو الشمس ، وذلك أن الشمس فىالفلك كالملك ،وسائر الكواكب كالجنود والاعوان والرعية ، فنسبة المريخ من الشمس كنسبة صاحب الجيش من الملك ، والمشترى كالقاضى ، وزحل كالخازن ،وعطارد كالوزير ،والزهرة كالحرم. والقمر كولى العهد ، وسائر الكواكب كالجنود والاعوان ... ومن أين للكواكب حسن هذه الطاعة ... قال من الملائكة الذين هم جنود رب العالمين قال: صف حسن طاعة الملائكة لرب العالمين ، قال : كطاعة الحواس الخمس للنفس الناطقة ".([2])

وهؤلاء الملائكة موكلون بخدمة بنى آدم وحفظهم ومراعاة أمرهم ". قال الملك فمن رئيس الملائكة؟... قال الحكيم هى النفس الناطقة الكلية الانسانية ، التى هى خليفة الله فى أرضه ، وهى التى قرنت بجسد آدم لما خلق من التراب وسجدت له الملائكة كلهم أجمعون ،وهى النفس الحيوانية المنقادة للنفس الناطقة الباقية ،وأبى إبليس من سجدة آدم، وهى القوة الغضبية الشهوانية ، وهى النفس الإمارة بالسوء: وهذه النفس الناطقة هى الباقية إلى

([1]) الرسائل ، ج ٢ ، ص ٢٨٨.

([2]) السابق ، ص ٣١٢.

يومنا هذا فى ذرية آدم ، كما أن صورة جسد آدم الجسمانية باقية فى ذريته إلى يومنا هذا".([1])

ولكن كيف تؤثر النجوم فى مصير البشر؟ وكيف تتحكم فيما يحدث على إلارض من أحداث؟.

إن هناك نوعين من التدبير والتأثير، إلاول تدبير وتأثير كلى ، والثانى تدبير وتأثير جزئى . والنوع إلاول منسوب ، إلى الخالق الكل ، والنوع الثانى منسوب إلى النجوم . ومن الممكن ...تدبير النجوم بتدبير الله ، أو على إلاقل تحويل تدبيرالنجوم الشر إلى الخير ، فينفذ مراد النجوم ولكن على نحو لايتضرر منه إلانسان .وذلك " باستعمال سنن النواميس الالهية ، وأحكاما لشرائع النبوية ، من البكاء والتضرع والصوم والصلاة والتبرع والصدقات فى بيوت العبادات . وإخلاص القلوب ، والسؤال من الله بدفعها وصرفها عنهم كيف شاء ، وأن يجعل لهم فى ذلك خيرا وصلاحا".([2])

ولايخفى هنا أن إخوان الصفاء قد اخذوا من الصابئة علومهم واعتقاداتهم فى المتوسطات بين الله والعالم فهناك الروحانيات التى اتخذت من الكواكب وإلافلاك مسكنا ومأوى لها ، وهى التى تتولى ، نيابة عن الله ، تصريف إلامور إلارضية.([3])

([1]) المرجع السابق ، ص ٣٣٦ .

([2]) المرجع السابق ، ص ٣٤٠، ٣٤١ .

([3]) الشهرستانى : الملل والنحل ، تحقيق عبدالعزيز محمد الوكيل ، القاهرة ، مؤسسة الحلبى ، ١٣٨٧م/ ١٩٦٨ م ، ج ٢ ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٦٣-٦٦.

والواقع أن إيمان إخوان الصفاء بحكم القرانات التى تحدث التـأثيرات فى الارض ، وتغير الادوار ،وتؤذن بانتهـاء دور القـرآن ومجـئ دورد جديد تنتهى فيه رسالة محمد صلى الله عليه وسلم كل ذلك واضـح فـى رسـالة مـن رسائل أحد الدعاة المشهورين من دعـاة الاسـماعيلية هـو جعفر بـن منصـور اليمـن (1) الـذى يقـول " فهـذه أمـة المجـوس ، متمسـكة بطغيانهـا ، عـابدة لأوثانهـا، معتكفـة علـى نيرانهـا ، يقولـون بزعمهـم: لـن يبعـث اللـه مـن بعـد رسولهم رسولا، وهذه أمة التوراة ، متمسكة بزبورها ، عاكفة على عجلها ... يقولون: بزعمهم لن يبعث الله بعد موسى رسولا . وهذه أمة الانجيـل ، قائلـة بتشبيهها ، تزعم أن نبيها هو إلهها ... يقولون لن يبعث اللـه مـن بعـد عيسـى رسولا، وهذه أمتكم قد سلك بها سـبيل مـن كـان قبلهـا، فأغواهـا مـن غـوى ، فورثت الكتاب من غير أهلها ،وسلكت بالدين غير ملته ... يقولون : لن يبـث الله من بعد نبيهم رسولا..."(2)

---

(1) ابن منصور اليمن، جعفر ، من جال القرن الرابع الهجرى ، وكان ابنـا لأكبر دعـاة الاسماعيليين فى اليمن هو منصور اليمن ابن حوشت الذى نجح فى إقامة دولة للإسماعيلية فى اليمن قبل قيام الدولة الفاطمية فى المغرب ، ولما قـامت الدولـة الفاطميـة فـى المغـرب ،سافر جعفر إلى هناك حيث بلغ لدى خلفائهامرتبة عظيمة ،وانتقل معهم إلى مصر واصبح (باب الابواب) فى عهد المعز لدين الله الفاطمى .

انظر : مصطفى غالب : مقدمة تحقيق أربع كتـب حقانيـة ، بـيروت ، المؤسسـة الجامعيـة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٣ ، ص ٧ .

(2) ابن منصور اليمن، جعفر : كتاب العالم والغلام ، ضمن مجموعة أربع كتب حقانية ، تحقيق مصطفى غالب ، ص ٦٨، ٦٩ . وهذا الكتاب جاء على صـورة حـوار بين عـالم من الدعاة الاسماعيليين مع أين لأحد السلاطين حتى نجح فى جذبـه إلـى الإيمـان بـالدعوة الاسماعيلية ، واصبح هو الاخر من كبار الدعاة .

وقولهم هذا أى استئناف دور القرآن بخلق آدم ، ثم انتهاء هذا الدور ، عندما تأذن قرائات النجوم بذلك يؤدى بنا إلى الفكرة التالية ، التى تؤخذ أيضا من خلال هذه القصة التى سبق عرضها وهى:

ثالثا : إن المتتبع للخطباء الذين خطبوا أمام ملك الجن مدافعين عن وجهة نظر بنى آدم فى استعبادهم لأصناف الحيوانات المختلفة يتبين له شئ واضح، هو الخط التى يعمل إخوان الصفاء على تثبيته فى النفوس ،وهذا الخط يتمثل فى توحيد البشر كلهم تحت عقيدة واحدة ، أو مبدأ واحد إذ إن جميع الخطباء كانوا يدافعون عن وجهة نظر واحدة هى سيادة بنى الإنسان، فى مقابل عبودية الحيوان وهذه الفكرة لها مغزاها البيعد ، قد يتضح هذا المغزى فى آخر القصة.

ومع هذا المغزى البعيد الذى يشير ليه إخوان الصفاء من طرف خفى وهو الوحدة الإنسانية العالمية من خلال تقديم الخطباء الواحد تلو الاخر فممثل العراق لايمثل الجنس العربى بل هو فارسى أكثر منه عربيا ، ثم التركيز على الممثل العبرانى ، ثم الممثل الفارسى ، ثم الممثل العربى ،والممثل اليونانى ، والممثل الهندى . كل هؤلاء يمثلون الجنس البشرى المعروف حينئذ ، وإن كان من الواضح أنه يمثل جميع الاجناس الممثلين فى داخل إطار العالم الاسلامى إذ ذاك .

ولكن تعليق صاحب العزيمة على كلام كل خطيب ، يوحى بأى الخطباء أقرب إلى قلب كاتب الرسائل. ومن الواضح أن كاتب الرسائل أكثر ميلا إلى الخطيب العراقى الذى هو فارسى فى الحقيقة ولذلك يقول هذا الخطيب " فنحن لب الناس ، والناس لب الحيوان، والحيوان لب النبات ، والنبات لب المعادن ، والمعادن لب الاركان (الاركان الاربعة: الماء والنهار

والهواء والتراب) فلله الحمد والمنة ..."[1] والخطيب الفارسى الإصل الذى يصفه قرب نهاية القصة بأنه " الخبير الفاضل ،الذكى، العابد المستبصر ،الفارسى النسبة ، العربى الدين، الحنفى الإسلام،العراقى الادب ، العبرانى المخبر ، المسيحى المنهاج الشامى النسك ، اليونانى العلوم ، الهندى التعبير ،الصوفى الإشارات، الملكى الاخلاق ، الربانى الرأى ،الالهى المعارف ..."[2] فكأن كاتب القصة يدعو إلى الوحدة الإنسانية بقيادة العنصر الفارسى، فإنه يجمع خصائص كل الاجناس المنضوية فى ظل الحضارة الإسلامية بالاضافة إلى خصوصية العنصر الفارسى من الخيرة والفضل والذكاء والعبادة ، والاستبصار ولايكتفى كاتب الرسائل بهذا ، بل إنه يجعل الخطيب الخراسانى يضيف إلى العنصر الفارسى امورا مؤهلة للقيادة فيقول:" والحمد لله علىماخصنا ومدحنا على ألسن النبيين بالبأس الشديد ، والقوة المتين ، وصحبة الدين ، وأتباع المرسلين ، فقال عز وجل :(نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين)[3] وقال :(فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه له) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم(لو كان الإيمان معلقا بالثريا لتناوله رجل من أمناء فارس) يجدونه سوادا على بياض ، ويؤمنون بى ويصدقوننى)[4]... ونحن لبسنا السواد وطلبنا بثأر الحسين ، وطردنا البغاة من بنى مروان، طغوا وعصوا وتعدوا حدود الله والدين ، ونحن نرجو أن يظهر من بلادنا الإمام المهدى عليه السلام ، المنتظر من آل

---

[1]) الرسائل ، ج ٢ ، ص ٢٨٠.

[2]) المرجع السابق ، ص ٣٣٤ .

[3]) النمل : آية : ٣٣.

[4]) الرسائل : المرجع السابق ، ص ٢٩٠.

محمد ، فإن عندنا له خبرا وأثرا..."([1]) وبذلك يتضح أن كاتب الرسائل يدعو إلى الوحدة الإنسانية فى ظل العنصر الفارسى . لأنه قد " ظهر عندك (ملك الجن) أن من هؤلاء الجماعة قوما هم أولياء الله وصفوته من خلقه بريته من برينه ، وأن لهم أوصافا حميدة ، وصفات جميلة ،وأعمالا زكية ،وعلوما متفننة ، ومعارف ربانية ، وأخلاقا ملكية وسيرا عادلة قدسية ، وأحوالا عجيبة ، قد كلت ألسن الناطقين عن ذكرها ، وقصرت أوصاف الواصفين لها عن كنه صفاتها ، وأكثر الذاكرون فى وصفهم ،وطول الواعظون الخطب فى مجالس الذكر عن بيان طريقهم ، ومحاسن سيرهم ومكارم أخلاقهم، طول زمانهم ودهورهم ، ولم يبلغواكنه معرفتها".([2])

ولكن كيف يتقبل المجتمع الاسلامى هذه الافكار ، ويتخلى بسهولة عن الافكار التى غرسها العلماء من مختلف طوائف الفكر الاسلامى ،هذه المهمة بالطبع مهمة عسيرة ، وعبء ثقيل ، يحتاج إلى بذل مجهود خارق، وعمل دائب ، كيف يتغلب هؤلاء على الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة بحيث تمسح أفكار هؤلاء فى ضرورة التمسك بالمبادئ التى أرساها الاسلاف، ورسخها علماء من مختلف المشارب والاتجاهات: وجميعهم يتمسك بالعقل والنقل معا أو بالنقل دون العقل أو بالعقل دون النقل ، أو يحاول التوفيق بين العقل والنقل ، إن مايحاوله كتاب الرسائل يحتاج إلى جهد يزلزل الجبال ويحرك الاطواد المستقرة على أوضاع راسخة هى كلها مايمكن أن نطلق عليه دعائم الفكر الذى أرسى دعائمة الاسلام .وكان عنصر الاستقرار لهذه الامور كلها هو النظام السياسى المستقر . إن هذه الامور هى مايمهد الطريق

([1]) المرجع السابق : ص ٣٣٢ .

([2]) المرجع السابق : ص ٨٦.

إلى الملحوظة التالية : المستفادة من هذه القصة الرمزية ذات المغزى العميق البعيد .

رابعا : إن السبب فى اختلاف الناس ليس راجعا إلى مايتدين به اصحاب الديانات ، أو يعتقده أصحاب المعتقدات أو يتمذهب به أصحاب المذاهب فى داخل الدين الواحد ، فجميع البشر كلهم مؤمنون . فليس الإختلاف راجعا إلى كثرة آراء البشر " واختلاف مذاهبهم ، وفنون دياناتهم " ولا لكونهم يتوزعون إلى " اليهود والنصارى والصابئين والمجوس ، والمشركين وعبدة الإصنام ، والنيران ، والشمس ،والقمر ، والكواكب ، والنجوم ، وغيرها " ولا لأن اصحاب الدين الواحد يختلفون فى مذاهبهم وآرائهم ، مثل ماهو فى " اليهود سامرى ،وعنانى ، وجالوتى، وفى النصارى نصطورى ، ويعقوبى وملكانى ،وفى المجوس زرادشتى ، وزروانى وجرمى، ومزدكى ، وبرهمى ، ومانوى ، وفى أرباب النحل ديصانى ، وسمنى ، وفى أهل الإسلام خارجى ، وناصبى ، ورافضى ، ومرجئ وقدرى، وجهمى ، ومعتزلى ، وأشعرى ، وشيعى ، وسنى ، وغير هؤلاء من المشبهة والملحدين و المشككه فى الدين وأنواع الكافرين ومن شاكل آراؤهم هذه الإراء والمذاهب الذين يكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا"([1]) لأن جميع هذه الديانات والمذاهب والإراء والعقائد ، إنما هى طرقات ومسالك ومجار ووسائط ووسائل والمقصود والمطلوب واحد ، من أى الجهات توجهنا. فثم وجه الله.([2])

([1]) المرجع السابق : ص ٣٢٥ .

([2]) المرجع السابق : نفس الصفحة .

ويضـاف إلـى ذلـك – دليـلا علـى تسـاوى الديانـات – أن الإنسـان اذا استعاذ من مردة الجن وشرورهم ، فإن عليه إما أن يقـرأ آيـة مـن التـوراة أو آية من الإنجيل أو آية من القرآن فإن هؤلاء المردة فى الحـال يتجنبـون ايـذاء من استعاذ منهم ، فالتوراة والإنجيل والقرآن متساوية فسواء أكنـت يهوديـا أو نصرانيا أو مسلما فإن الهدف واحد والكل كتب من الله .([1]) ومـن هنـا ينبغـى أن نبحث عن السبب الحقيقـى الـذى يقـف وراء تشـرزم النـاس وفرقتهـم ومحاربتهم بعضهم بعضا ، فجميع أرباب الديانات والمذاهب والنحـل وجهتهـم واحدة ، ومن ثم فما كان ينبغى لهم أن يحارب بعضهم بعضا، أو يكيد بعضهم لبعض أويدير قوم لقوم ، أو يعتدى فريق علـى فريـق . كـل ذلـك " ليـس مـن أجل الدين ، لأن الدين لا إكراه فيه ، لكن من أجل سنة الدين الذى هـو الملـك ... إن الدين والملك توأمان ، لايفترقان ،ولا قـوام لأحدهمـا إلا بأخيـه ، غيـر أن الدين هو إلاخ المقدم ، والملك إلاخ المؤخر المعقب ، فلابد للملك من ديـن يتدين فيه الناس . ولا بدل للدين من ملك يـأمر النـاس بإقامـة سننه طوعـا أو قهرا ، فلهذه العلة يقتل أهل الديانات بعضهم بعضا ، طلبـا للملـك والرياسـة ، كل واحد منهم يريد انقياد الناس أجمع لدينـه ومذهبـه وأحكـام شـريعته ... إن قتل إلانفس سنة فى جميع الديانات والملل والدول كلها ، غيـر أن قتـل النفـس فى الدين هو أن يقتل طـالب الدين نفسه ، وفى سنة الملك هـو أن يقتـل طـالب الملك غيره ... إلا ترى .. أن فى سنة ديـن الإسـلام كيـف هـو ظـاهر بيـن ، ذلك قول الله عز وجل (إن الله اشترى مـن المؤمنيـن أنفسـهم وأموالهـم بـأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليـه حقـا فـى التـوراة

([1]) المرجع السابق : ص ١٨٠.

والإنجيل والقرآن) ثم قال (فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به)[1] وفى سنة التوارة : (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم)[2] وقال المسيح فى سنة الإنجيل (من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله)[3] فقال لهم المسيح : (استعدوا للموت والصلب ، إن كنتم تريدون أن تنصرونى ، فتكونون معى فى ملكوت السماء ، عند أبى وأبيكم ، وإلا فلستم فى شئ منى) فقتلوا ولم يرتدوا عن دين المسيح ،وهكذا يفعل البراهمة من أهل الهند ، يقتلون أنفسهم ويحرقون أجسادهم ، طلبا للدين ، ويرون ويعتقدون أن أقرب قربات إلى المولى عز وجل أن يقتل التائب جسده، ويحرق بدنه ، ليكفر عن ذنوبه يقينا منهم بالمعاد ، وهكذا يفعل المتألهة من الحكماء والثنوية ، تمنع أنفسها الشهوات وتحمل عليها ثقل العبادات ، حتى تقتلها أو تخلصها من دار البلاء والهواء، وعلى هذا القياس ، يوجد حكم سنن الديانات فى قتل النفوس من فنون العبادات وأحكام الشرائع ، كلها وضعت لخلاص النفوس ، وطلب النجاة من نار جهنم ، والفوز بالوصول إلى نعيم الاخرة"[4].

كل هذه النصوص السابق عرضها من سياق هذه القصة تدل على أن إخوان الصفاء يؤمنون بوحدة الاديان سواء ماكان منها سماويا أو وضعيا ،وسواء مانسخ من هذه الديانات أو لم ينسخ ، فالقاسم المشترك بين هذه الديانات هو أن يقتل الإنسان المعتقد لأحد هذه الاديان نفسه ، خلاصا من

---

[1]) التوبة : آية ١١١.

[2]) البقرة : آية ٥٤.

[3]) الصف : آية ١٤

[4]) المرجع السابق ، ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

شقاء الدنيا إلى دار نعيم الإخرة ، وهذا الإتجاه يتطابق تماما مع نظرتهم إلى الدور القرآنى منذ عهد آدم استمرارا فى عهد كاتبى الرسائل ، وانتهاء بظهرو دور جديد، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، مادام الدين واحدا بهذه الصورة التى عرضوها ، ويتوحد جميع الخلق تحت راية فارسى مستبصرمتأله ذكى فاضل خير.

وكيف ذلك وأمام الإخوان عقبات كئود ، دونها خرط القتاد، من حكام وساسة وقادة جيوش ، وعلماء من مختلف طوائف الفكر الإسلامى ، وغيرالإسلامى ، لذلك فلابد من تهوين أمر هؤلاء فى نظر قارئ الرسائل ، ولكن كيف ؟ ان يكون بإظهار هؤلاء بمظهر المنحرف عن الصواب ، المعرض عن الجادة ، المجانب للعدل والرحمة ، المندفع إلى المكاسب الدنيوية والأعراض الزائلة . وذلك مثل الملوك فإن أكثرهم لاينظر فى أمور رعيته وجنوده وأعوانه إلا لجر المنفعة لنفسه ، او لدفع المضرة عنه ، أو لأجل من يهواه لشهواته كائنا من كان من بعيد أو قريب ،ولايتفكر بعد ذلك فى أحد ، ولايهمه أمره ... وليس هذا من فعل الملوك العقلاء ، ولاعمل الرؤساء ذوى السياسة الرحماء ، بل من سياسة الملك وشرائطه وخصال الرياسة أن يكون الملك والرئيس رحيما رءوفا لرعيته مشفقا متحننا على جنوده وأعوانه، اقتداء بسنة الرحمن الرحيم ، الجواد الكريم، الرءوف الودود لخلقه وعبيده كائنا من كان ، الذى هو رئيس الرؤساء وملك الملوك "([1]) فهل هذه الخصال متحققه فى ملوك الزمان ، وحكامه ؟ او بعبارة أخرى هل هذه الصفات التى عرضها (إخوان الصفا) فى سياق الحوار بين الإيام التى كتبت فيها الرسائل؟ بالطبع لا لأن الببغاء كان يناظر الإنس ويبين لهم أن هذه

([1]) المرجع السابق ، ص ٢٠٣.

الصفات من شأنها أن تكون متحققة فى الملوك والسلاطين، فاذا كانت متحققة فى ملوك الحيوانات ، فانها غير متحققة فى ملوك وسلاطين بنى الانس ·

ولذلك ينبغى أن يكون ملوك الإنس فى أخلاق الملائكة ، ومن هنا كان " اسم الملك (بكسر اللام) اسم مشتق من اسم الملك (بفتح اللام) وأسماء الملوك من أسماء الملائكة "[1] والملائكة رحماء ، لأن رحمتهم مقتبسة من رحمة الله ، وهؤلاء الملائكة موكلون ببنى آدم يشفقون عليهم ويرحمونهم ، أما رئيس هؤلاء الملائكة فإنه " النفس الناطقة الكلية الإنسانية ، التى هى خليفة الله فى أرضه ، وهى التى قرنت بجسد آدم ، لما خلق من التراب وسجدت له الملائكة كلهم أجمعون ، وهى النفس الحيوانية المنقادة للنفس الناطقة الباقية ، وأبى ابليس من سجدة آدم، وهى النفس الغضبية والشهوانية ،وهى النفس الإمارة بالسوء. وهذه النفس الكلية الناطقة إلى يومنا هذا ، فى ذرية آدم ، كما أن صورة جسد آدم الجسمانية باقية فى ذريته ، إلى يومنا هذا ، عليها ينشاون ، وبها ينمون وبها يجازون ،وبها يؤاخذون، وإليها يرجعون ، وبها يقومون يوم القيامة وبها يبعثون ، وبها يدخلون الجنة ،وبها يصعدون إلى عالم الإفلاك"[2].

فالحكام عليهم أن يتشبهوا بالملائكة فى رحمتهم بالمحكومين ، كما أن الملائكة رحماء بمن أوكل إليهم من البشر ، غير أن رئيس الملائكة هو النفس الناطقة الإنسانية الكلية ، ومن ثم فإن من تتمثل فيه هذه النفس ينبغى أن يكون آدميا ملائكيا وليس هذا فحسب بل إن من يتولى حكم الإنس ينبغى أن يكون ممثلا للكون كله فالنفس الكلية هى الواسطة بين العقل الاول الصادر عن الاله

---

(1) المرجع السابق ، ص ٢٠٤ .

(2) المرجع السابق ، ص ٢٠٥.

الذى لاتعرف لـه صفـة، ولاذات فقد حجـب بـإلانوار ، وبيـن الكـون بأفلاكـه وعوالمه الكونية من سماوية وأرضية . وبالطبع هو سيد الأدوار ماكـان منهـا قبل دور القرآن ، وماسيكون منها بعد دور القرآن وهذه النفس الكلية الإنسانية الملائكية إنما تنتقل غير الإصلاب والإرحـام مـن لـدن آدم إلـى أبـد الآبديـن ، وبالطبع فإن من تتحقق فيه هذه إلاوصاف – فى رأى إخوان الصفا هو الإمام القـائم الـذى لاتخلـو منـه إلارض ، هـو إمـام الإسـماعيلية ، وهـو امـام السهروردى[1] المقتول الذى إن لم يكن له الملك الفعلـى كـان العـالم ظلمانيـا، وان كـانت لـه السـلطة كـان العـالم نورانيا ، وهـو خـاتم إلاوليـاء عنـد ابـن عربـى[2]، وهـو المنتظـر عنـد إلاثنـى عشـرية الـذى لـه الولايـة الدنيويـة والكونية.[3]

ولعل ماذكره الشهرستانى عن نظامهم الكونى والبشرى ،وعن مماثلـة إلاخير للأول كانت تشوبه النواقص فى المعلومـات لديـه فإنـه حكـى فـى نقـل مقالة إلاسماعيلية بالنسبة للنظـام الكونـى وعـالم إلانسـان مـن أنهـم قـالوا عـن البارى تعالى إنه لاهو موجود ولا لاموجود ، ولا عـالم ولا جـاهل ، ولاقـادر ولا عاجز ، أى أن كلامهم عنه كله عبارة عن سلوب " فقيـل عنهـم إنهـم نفـاه الصفات معطلة الذات عن جميع الصفات . قالوا : كذلك نقول فى القـدم : إنـه ليس بقديم ولامحدث ، بل القديم أمره وكلمته ، والمحدث خلقه وفطرتـه أبـدع بالأمر العقل إلاول ، الذى هو تام بالفعل ، ثم بتوسطه أبدع النفس التإلى الـذى

---

(1) رادجع السهروردى : حكمة إلاشراق ، ومحمد على أبوريان : أصول الفلسفة إلاشراقية عند شهاب الدين السهروردى ، القاهرة ، ص

(2) انظر ابن عربى : عنقاء مغرب ، القاهرة ، الحلبى ، ص ٤٥.

(3) الخمينمى : الحكومة إلاسلامية ، القاهرة ، تقديم حسن حنفى ، ص ٩٥.

هو غيرتام ، ونسبة النفس إلى العقل إما نسبة النطفة إلى تمام الخلقة، والبيض إلى الطير، وإما نسبة الولد إلى الوالد والنتيجة إلى المنتج، وإما نسبة الانثى إلى الذكر ، والزوج إلى الزوج . قالوا : ولما اشتاقت النفس إلى كمال العقل ، احتاجت إلى حركة من النقص إلى الكمال ، واحتاجت الحركة إلى آلة الحركة، فحدثت الافلاك السماوية ، وتحركت حركة دورية بتدبير النفس ، وحدثت الطبائع البسيطة بعدها ، وتحركت حركة استقامية بتدبير النفس ايضا، فتركبت المركبات من المعادن والنبات والحيوان والانسان ، واتصلت النفوس الجزئية كالابدان ، وكان نوع الانسان متميزا عن سائر الموجودات ، بالاستعداد الخاص لفيض تلك الانوار ،وكان عالمه في مقابلة العالم كله. وفي العالم العلوي عقل ونفس كلي ، فوجوب أن يكون في هذا العالم عقل مشخص هو كله ، وحكمه حكم الشخص الكامل البالغ ، ويسمونه الناطق وهو النبي ، ونفس مشخصة وهو كل أيضا ، وحكمه حكم الطفل الناقص المتوجه إلى الكمال ، أو حكم النطفة المتوجهة إلى التمام ، أو حكم الانثى المزدوجة بالذكر ، ويسمونه الاساس وهو الوصي "([1]) هذا مافهمه كثير من الباحثين القدماء من غير الاسماعيليين ، والذين انتهوا إلى ماعرف بنظريةالمثل والممثول ، وفي الواقع كما فهم من نص الرسائل السابق المأخوذ من هذه القصة الرمزية ليس هناك مثل ولا ممثول ، إن هناك عالم واحد هو العالم العلوي السفلي. فالنفس الكلية التي يتحدث عنها الشهرستاني هي هي النفس الناطقة الانسانية ، وهذه النفس الناطقة الكلية الانسانية هي التي تلبست ببدن آدم وهي التي تسير العالم السفلي والعالم العلوي ، لامن خلال الافلاك النازلة بالتدرج كما تقول نظرية الفيض عند الفلاسفة ، بل إن آدم هو النفس الكلية

([1]) الشهرستاني : الملل والنحل ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤.

الناطقة الإنسانية ، أى أن آدم هو المسير للعالم الاعلى والعالم الادنى على حد سواء ، أو إن شئت قلت ليس هناك عالم أعلى وعالم أدنى ،بل الكل عالم واحد وتظل هذه النفس تتعاورها الابدان فى مختلف الادوار حتىتصل – فى زمن إخوان الصفاء بالطبع – إلى الامام الذى يدعون إليه، ومن هنا فليس من حق الأمويين ولا العباسيين من بعدهم أن يستقلوا بالإمامة والخلافة على نحو ماهو معروف فى التاريخ الاسلامى .ومن ثم ينهدم حق الخليفة العباسى فى أن يكون خليفة ، ومن ثم فالعباسيون مغتصبون لسلطة ليست من حقهم ، بل من حق الامام الاسماعيلى الذى هو فى الواقع النفس الانسانية الناطقة الكلية ، وهو فى نفس الوقت رئيس الملائكة ، وهو أحسن على رعيته من الوالدة بولدها أما إذا كان الخلفاء أو الملوك غير ذلك الإمام فانهم يغتصبون هذا الحق.

قال المؤيد فى الدين ، داعى دعاة المستنصر بالله الفاطمى مشيرا إلى الامام :

يستخلص الارواح من ظلامها ويخرج الثمار من أكمامها ([1])

ويؤكد إخوان الصفاء هذه الحقيقة فى أماكن أخرى من الرسائل حيث يقولون "واعلم بأن الناس أشخاص لهذا الانسان المطلق ، وهو الذى أشرنا إليهأنه خليفة الله فى أرضه ، منذ خلق آدم أبو البشر إلى يوم القيامة الكبرى، وهى النفس الكلية الانسانية الموجودة فى كل أشخاص الناس ، كما ذكر جل ثناؤه فى قوله (ماخلقكم ولابعثكم إلا كنف واحدة) واعلم يأخى ايدك الله بروح منه بأن هذا الانسان المطلق الذى قلنا هو خليفة الله فى أرضه، وهو مطبوع

([1]) غالب، مصطفى : حقيقة إخوان الصفاء ،مرجع سابق ، ص ٣٤ .

علـى قبـول جميـع الإخـلاق البشـرية ، وجميـع العلـوم الإنسـانية ، والصنـــائع الحكمية هو موجود فى كل وقت وزمان "([1]) ويعقب مصطفى غالب على هذا النص بقوله :" هذه إشارة تؤكد أن هذا الرئيس المطلق الذى هو الإمام له مقام فى عالم الديـن كمقـام النفس الكليـة التـى تقبـل صـور الموجـودات والصنـائع الحكمية فى عالم الإبداع "([2]) ومع أنــه يذهـب إلـى المماثلـة بيـن الإمـام وبيـن النفس الكلية ، فإن نص إخوان الصفاء لايقـول بذلـك بـل يقـول إن الإمـام هـو النفس الكلية ذاتها . وهذا يؤكد ماذهب إليه إخوان الصفاء فى سياق قصتهـم محل الدراسة كما أشير سابقا .

ويقـرر إخـوان الصفـاء هـذا الإتجـاه السياسـى صراحـة فــى الرســالة الجامعة إذ يقولون " وقد أقمنا لكل طائفة من طوائف الامم الذين عمتهم دعـوة الانبياء ، عليهم السلام ، قوما يدعونهم إلى راينا ، ويدلون علينــا، ويعرفونهـم بقدومنا ، ويعدونهم بظهور أمرنا ، وخروج (مهدينا) وقيام قيامتنا ، وطلـوع شمسنا وخروجنا من كهفنا"([3])

اما كيف يمهدون لبيـان استحقاقهم للسلطة ، وعدم استحقاق الحـاكم العباسى لها ، فإنهم فى سياق القصة يعبرون عن ظلم وجـور الحكـام ، وعـدم إخلاص الفقهاء والمتكلميـن والفلاسـفة فهـؤلاء جميعـا طـلاب دنيـا ، يؤيـدون الحاكم الظالم من أجـل المتـاع الزائـل ، ويدلسـون علـى النـاس ، ويشـترون بآيات الله ثمنا قليلا.

([1]) رسائل إخوان الصفاء ، ج ١ ، ص ٢٣٦ ، نقلا عن مصطفى غالب : حقيقة إخوان الصفاء ، ص ٣٦.

([2])غالب، مصطفى: حقيقة إخوان الصفاء ، ص ٣٦ .

([3]) إخوان الصفاء : الرسالة الجامعة ، القاهرة ، مطبعة المؤيد ، ج ٢ ، ص ٣٧١ .

إن الحيوانات فى سياق قصة إخوان الصفاء يطالبون الإنس بالدليل والبرهان على أن الإنس مالكون للحيوانات ، وأن الحيوانات عبيد لهم ، وأثناء المشاورات بين جماعة الإنس فيما يمكن أن يحدث لو طلب قاضى الجن من الإنس أن يحضروا الصكوك والوثائق التى تثبت أحقيتهم فى امتلاك الحيوانات ، يصمت جميع طوائف الإنس ولايجدون جوابا ، غير أن الخطيب (العباسى) يبرز من بينهم قائلا " لقد كانت لنا عهود ووثائق وصكوك ، لكنها غرقت فى أيام الطوفان . قالوا : فإن قال القاضى " احلفوا بإيمان مغلظة أنها عبيد لكم ، قال (العباسى) : نقول لنتتوجه اليمين إلا على المنكرين،والبينة على المدعين ، ونحن مدعون ، فلا يتوجه علينا اليمين"([1]) والقصة رمزية كما هو واضح، وإخوان الصفاء يرمزون بهذا إلى أن الخلفاء العباسيين ليس لهم سند فى استحقاقهم الخلافة غير الكذب ، والتلاعب بالاحاديث النبوية، لأنه ليست هناك وثائق بالطبع تجعل الحيوانات عبيدا للإنس، وبالتالى فليس هناك سند للعباسيين فى الخلافة ، والعباسى بذلك يشير إلى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم " البينة على من ادعى واليمين على من انكر " والتدليس العباسى فى استخدام هذا الحديث ، واضح .

واذا كان العباسيون لايملكون سندا شرعيا – فى نظر إخوان الصفاء – فى حكمهم للبلاد ، كما سبق ، فإن وزراءهم أيضا وزراء فاسدون ، ولذلك فإن " أمر الوزير سهل نحمل إليهشيئا من الهدايا يلين جانبه ، ويحسن رأيه".([2])

([1]) رسائل إخوان الصفاء ، ج ٢ ، ص ٢٣٦.

([2]) المرجع السابق ، ص ٢٣٤.

أما فقهاء الدولة فى مناراهم فأمرهم سهل أيضا " تحمل إليهم شيئا من التحف والرشوة ، فيحسن رأيهم فينا ،ويطلبون لنا حيلا فقهية ،ولا يبالون بتغيي الاحكام"([1])

أما سائر علماء الامة من فلاسفة ومنطقيين وجدليين ، فإن مايقولون به ضرر لانفع فيه فهم" الذين يضلونكم عن المنهاج المستقيم ، وطريق الدين، وأحكام الشرائع، بكثرة اختلافاتهم ، وفنون آرائهم ومذاهبهم ومقالاتهم ، وذلك أن منهم من يقول بقدم العالم ، ومنهم من يقول بدم الهيولى ،ومنهم من يقول بقدم الصورة ، ومنهم من يقول بعلتين اثنتين ، ومنه من يقول بثلاثة ، ومنهم من يقول بأربعة ، ومنهم من يقول بخمسة ، ومنهم من يقول بستة ،ومنهم من يقول بسبعة ، ومنهم من قال بالصانع والمصنوع معا ، ومنهم من قال بلا نهاية ، ومنهم من قال بالتناهى ، ومنهم من قال بالمعاد ، ومنهم من أنكر، ومنهم من قال بالرسل والوحى، ومنهم من جحدهما ، ومنهم من شك ، وارتاب وتحير ، ومنهم من قال بالعقل والبرهان ، ومنهم من قال بالتقليد ، وماسوى ذلك من الاقاويل المختلفة ، والاراء المتناقضة التى بنو آدم بها مبتلون ، وفيها متحيرون متبلبلون ، شاكون ، وفيها مختلفون . ونحن كلنا مذهبنا واحد، وطريقنا واحدة ،وربنا واحد ، لاشريك له ، لانشرك به شيئا"([2])

إن لقارئ هذه القصة بعد ذلك أن يتوجس فى أمر الخفاء والوزراء والفقهاء والفلاسفة والمتكلمين ، ومن ثم يخلع ربقة الثقة فيهم جميعا ، ويصبح مهيئا لقبول الاراء الجديدة ذات المصدر الواحد الذى لاخلاف فيه ، وهو كون الامام من العالم الاعلى – كما سبق – اما الرأى والذى يسوس به الخلفاء

([1]) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

([2]) المرجع السابق : ص ٣١٥.

المجتمع فليس مصدره حيا وقد تلاعب به الفقهاء ولا رأيا عقليا اختلف حوله الفلاسفة والمتكلمون. إن المصدر الحقيقى بالطبع هو التلقى من الإمام المعصوم ، كما نطقت به كتب الإسماعيلية الاخرى ، تلك الكتب التى لايطلع عليها إلا من وثقوا فى موافقتهم واستجابتهم ، وإخوان الصفاء أنفسهم يصرحون بذلك ، أى بأن لهم كتبا لايطلع عليها إلا أهل الثقة . اذ يقولون فى الرسالة الجامعة " وقد قلنا لك فى رسالة كيفية الدعوة : إن لنا كتبا لايقف على قراءتها غيرنا ، ولايطلع على حقائقها سوانا ، ولايعلمها الناس إلا من قبلنا ، ولايتعلم قراءتها إلا من علمناه ،ولايعرف صور حروفها إلا من عرفناه ، وهى صور الموجودات بما عليه الآن ظاهرة للحواس ، مرئية للناس ، وهى آيات بينات هم عنها معرضون ، فيها حركات الافلاك الدائرة ، والكواكب السيارات ، وأركان الامهات ، وفنون أشكال النبات وعجائب هياكل الحيوانات ، ولنا علم لايشاركنا فيه غيرنا ، ولا يفهمه سوانا ، وهو معرفة جواهر النفوس ، ومراتب انتقالاتها ، واستيلاء بعضها على بعض، وسريان قواها ، وتأثيرات أفعالها فى الاجرام العالية السماوية ، والاجساد السفلية الارضية ..."(١).

إن الامام المعصوم هذا، وهو الامام القائم ، صاحب الزمان ، الذى – عندما يظهر – يكون ذلك إيذانا بانتهاء الدور ، وبدء دور جديد ، ومجئ القيامة ، وسقوط التكاليف الشرعية التى تنتمى إلى الدور القديم دور القرآن الذى سبقت الاشارة إليه– حسب وروده فى القصة – ويؤكد ذلك قول إخوان الصفاء فى الرسالة الجامعة " واعلم أن الله لم يقدر للسادس من رساله

---

(١) إخوان الصفاء : الرسالة الجامعة ، ج ٢ ، ص ٣٧١، نقلا عن مصطفى غالب ، حقيقة إخوان الصفاء ، مرجع سابق ، ص ٣٧.

(محمد) أن يكون له من عقبه وله ذكر من صلبه – يرث مقامه وينوب فى الامة من بعده منابه ، ولم يكن له ولد يخلفه من بعده ، ومات أولاده فى حياته، فسقطوا عن مرتبته والترقى إلى أمره بالموت الطبيعى، وكانت المنزلة مقدرة لمن قدرها الله تعالى له من أولاده فىالدين الظاهر ،وهو أول المسارعين إلى دعوته (على) ، وكانت له ابنة من بعده – فيما جاء من الخبر – أربعين يوما، ثم انتقلت إلى ماأعده الله تعالى لهامن الكرامة والمنزلة، ولحقت بأبيها عليه السلام (فاطمه) ، كذلك السابع قدر له أن يكون له ولد ،ولكن لايبلغ منزلته ،ولايرتقى إلى درجته ، وهو ثامن ، فيكون المولود فيه ساقطا عن مرتبة البلاغ ، كذلك مادامت أيام الشهر، حتى يعود فى مكان التاسع ، فيكون الوضع وتمام الخلقة وكون النشأة الثانية ، فتبين هذا الامر ، ووقف على حقيقة هذا السر".([1])

وبذلك تصور هذه القصة فى ايجاز شديد ، ورمزية بعيدة المغزى الهدف الاصلى الذى كتبت الرسائل أصلا لتحقيقه، ذلك الهدف الذى هو مرموز إليهأيضا فى سائر الرسائل يغشاء من الشكل العام المتمثل فى شرح الحقائق العلمية المعروفة فى تلك الأزمان . ومن ثم يمكن وصف هذه القصة بأنها نوع من القصص الرمزى الفلسفى الذى ربما لم ينتبه إليه الكثير من الباحثين ، وإن انتبه إليه البعض فإنما كان انتباههم إياه من جهة التعبير الادبى الفنى دون أن يكون هنا سبر للأغوار السياسية والدينية والاجتماعية التى هى حقيقة هذا النوع من الادب الفلسفى الغامض.

([1]) المرجع السابق ، ص ٣٨ .

الفصل الثانى

رسالة الطير لابن سينا

(٣٧٠هـ/٩٨٠م - ٤٢٨هـ/١٠٣٧م)

يتدرج الرمز شيئا فشيئا، مبتدئا بالحديث على لس

ان الحيوانت كلها مستأنسها ووحشيها ، طيرها وهوامها ، بريها وبحريها على نحو ماسبقت الاشارة اليه ، عند إخوان الصفاء ، ليصل الى نوع من الحيوانات الطائرة، كما هو الشأن فى رسالة الطير هذه لأبى على الحسين الشيخ الرئيس المعروف بابن سينا. فهل لذلك مغزى معين ، أما أن طبيعة التطور الفكرى هى التى اقتضت ذلك ؟.

لقد سبق أن رأينا كيف أن ابن سينا قد استخدم الرمز القصصى أو إن شئت قلت : القصص الرمزى وسيلة من وسائل التعبير الفلسفى . والقارئ لهذا الإنتاج السينوى من الكتابة الرمزية لا يخطئه الحق إذا ماذهب إلى أن وراء الرمز فكرا عميقا، وأن وراء هذا الفكر العميق محاذير ، سياسية، أو فكرية ، أو اجتماعية أو دينية . فالسياسة قد تفرض على المفكر نوعا من التقية تدفعه إلى أن يتوارى وراء رموز خوفا من بطش ملك أو خليفة أو سلطان ، والفكر أيضا قد يحارب الفكر ، خاصة فى ذلك الزمان الذى كانت الأفكار أحيانا تحجر على الأفكار ولعل أحداث القول بخلق القرآن مازالت ماثلة أمامنا، والمجتمع قد يقف حجر عثرة أمام المفكر فيحول بينه وبين التعبير عن رأيه صراحة ، خاصة إذا كان هناك قطاعات عريضة من هذا المجتمع تستجيب لكل ناعق . والدين أيضا ليس اقل خطرا فى هذا المجال، خاصة إذا فاجأ المفكر الجمهرة الكاثرة بآراء تصدم معتقدها السائد .

كل هذه الاحتمالات ربما لاتكون غريبة عن كونها دوافع قوية وراء أى مفكر أياكان مشربه ، لكى يلجأ إلى اللمح والإشارة بدلا من العبارة

الصريحة التى قد تجر عليه مالايحمد عقباه من سجن أو مصادرة ، أو حتى القتل وإزهاق الروح .

فمن هو هذا المفكر الضخم الذى لم تقف تاثيراته عند حدود العالم الإسلامى، بل تجاوزته إلى الغرب ، حيث أعجب به الكثير من مفكريه، وتبنوا كثيرا من آرائه سواء فى ذلك العصر الوسيط أو الحديث؟.

يكفى شاهدا على مكانة ابن سينا بين فلاسفة الإسلام ماذكره الشهرستانى (ت ٥٤٨هـ/) من أن آراء هذا الفيلسوف تكفى شاهدا على أراء غيره من فلاسفة الإسلام إذ يقول " وإنما علامة القوم أبوعلى الحسين بن عبدالله بن سينا ... ولما كانت طريقة ابن سينا أدق عند الجماعة ، ونظره فى الحقائق أغوص ، أخترت نقل طريقته من كتبه ، على إيجاز واختصار ، كأنها عيون كلامه ، ومتون مرامه ، وأعرضت عن نقل طرق الباقين (وكل الصيد فى جوف الفرا)".([1])

وحتى هؤلاء الذين هاجموه، وربما كفروه – رغم حملتهم الشديدة عليه – فإنهم يعتبرون عالة عليه ، فى كثير من آرائهم وبحوثهم ، ومن يطالع بحوث الغزالى (ولد ٤٥٠هـ وتوفى ٥٠٥هـ) لاتخطئه الملاحظة فى اعتماده فى كثير من آرائه على آراء ابن سينا.([2])

أما امتداد تأثير ابن سينا إلى العالم الغربى ، فكما يقول الدكتور ابراهيم مدكور أن هانبرج B. Hanberg فى القرن الماضى درس نظرية

([1]) الشهرستانى : الملل والنحل ، ج ٣ ، ص ١

([2]) راجع : الغزالى: معارج القدس ومشكاة الأنوار ،وغيرهما من كتب الغزالى المتصلة بموضوع مابعد الطبعة ، وموضوع النفس الانسانية .

المعرفة عند ابن سينا ، وكذلك ألبير الأكبر ، وفى أول هذا القرن درس ونتر M. Winter موضوع النفس عند ابن سينا من خلال كتابه الشفاء ، وفى سنة ١٩٢٩ بين جلسون Gilson أثر ابن سينا فى الدراسات السيكولوجية المسيحية .(١)

وإذا كان إخوان الصفاء قد فتحوا الباب أمام مفكرى العالم الإسلامى إزاء هذا اللون من التعبير عن الآراء الفلسفية من خلف حجاب الرمز ، فإنه يجدر بنا العرض لحياة هذا الفيلسوف لعلها تكشف عن قربه أو بعده من هؤلاء الإخوان ، ومن ثم فلا يكون الأمر غريبا بالنسبة له – إذا ماثبت قربه منهم – أن يصطنع هو الآخر ذلك الأسلوب من التعبير عن الآراء الفلسفية ، خاصة أنه قد اتبعه فى أكثر من مناسبة، وفى غير واحدة من رسائله المتعددة.

وبناء عليه، فإن أول مايلفت النظر فى حياة الشيخ الرئيس أنه قد تفتحت عيناه فى بيت استجاب صاحبه ، وهو والده ، الى دعاة الإسماعيلية الذين كانوا منتشرين فى جميع أنحاء الدولة الإسلامية وخاصة تلك الأقطار البعيدة عن مهد السلطة المركزية – وإن كانت قد اصبحت رمزية – فى بغداد. والمعروف عن هؤلاء الدعاة أنهم قد استطاعوا أن يوظفوا – بمهارة – الاتجاه الإشراقى فى الفكر الفلسفى ، لخدمة الدعوة الإسماعيلية، فالبسوا هذا الإتجاه زيا دينيا ، مستخدمين أسلوب التاويل منهجياا لهم فى التعامل مع النصوص الدينية ، بحيث تصبح ناطقة بالاشراقية وبحيث يحدثون بعد ذلك انقلابا فكريا عقديا سياسيا ضد حقائق الإسلام السائدة. وقد سبق أن رأينا كيف

---

(١) ابراهيم مدكور: فى الفلفة الإسلامية ، منهج ......القاهرة ، دار المعارف ، ط ٢ ، ج ١ ، ص ١٣٥.

أنهم استطاعوا أن يسطروا جانبا كبيرا من هذا الاتجاه فى رسـائلهم المعروفـة بأنها (رسائل إخوان الصفاء) خاصة إذا عرفنا أن هناك شبها كبيرا بين ماجاء فى فلسفة ابن سينا ومن قبله الفارابى وبين إخوان الصفاء.

فهل اعتنق ابن سـينا المذهـب الإسـماعيلى ، كمـا اعتنقـــه أبـوه مـن قبـل؟ أم أنـه اعتنـق مذهـب الاثنـى عشـرية ، كمـا يرى على بـن فضـل اللـه الجيلانـــى؟([1])

إنه على أية حال يشير إلى صفات الإمام بطريقة مجملـة ، تحتمـل أن يكون المقصود بها إمام طائفة الإمامية الاثنى عشرية ، كمـا يمكـن أن تنطبـق على إمام الإسماعيلية، ففى غضون حديثه عن السياسة ، يذكر أنه يسعى إلى تحقيق ماينبغى أن تكون ، عليه هذه السياسة " وليس قولنا (ماينبغى أن تكـون عليه) مشيرا إلى أنها صناعة ملفقة مخترعة ليست من عند الله، ولكل إنسان ذى عقل أن يتولاها، كلا بل هى من عند الله. وليس لكل إنسـان ذى عقـل أن يتولاها"([2])، فالإسماعيلية يقولون بأنه ليس لكل أحد كائنـا مـن كـان أن يتولـى الإمامة ، بل هو الإمام القائم الذى لاتخلو الأرض منه ،وهو الـذى تتمثـل فيـه النفس الكلية الإنسانية الناطقة ، والإثنا عشرية يقولون كذلك إن الإمامة ليسـت كلأ مشاعا أمام أى إنسان متغلب ، بل هى فقـط محصـورة فـى الإمـام الثـانى عشر محمد بن الحسن العسكرى الذى دخل السرداب فى سر من رأى والـذى ينتظرون خروجه .

([1]) انظر: كتابه ، توفيق التطبيق ، تحقيق مصطفى حلمى.

([2]) ابن سينا : منطق الشرقيين ، القاهرة ، المكتبة الفلسفية ، ١٩١٠، ص ٨ .

على أنه مما يقوى احتمال اعتناق ابن سينا لعقائد الإسماعيلية هو أن والده هو الذى وجهه إلى دراسة الفلسفة ،وأنه استضاف أبا عبدالله الناتلى ليقوم بهذه المهمة مع الابن([1]) والناتلى هذا شخصية غامضة لعله هو أحد الدعاة الإسماعيليين الذين استجاب الوالد لدعوتهم .

وإذا أضيف إلى ذلك إعلان إعجاب ابن سينا بالفارابى ، وذلك بمناسبة عجز الأول عن فهم كتاب (مابعد الطبيعة) لأرسطو بعد أن قرأه أربعين مرة ،ولم يتيسر له هذا الفهم إلا بعد أن قرأ كتابا للفارابى فى ذات الموضوع ،والفارابى نفسه تدور حول الشكوك إزاء قضية المذهب الإسماعيلي، وترجع هذه الشكوك إلى عبارة قالها الفارابى ، وإلى قصة دارت حوله. مما رواه أصحاب كتب التراجم . أما العبارة ، فهى أنه جاء فى بعض أدعيته " أصبحت أرجو الخير منك (الله) ، وأمترى زحلا، ونفس عطارد والمشترى ، اللهم البسنى حلل البهاء ، وكرامات الأنبياء ، وسعادة الأغنياء ، وعلوم الحكماء ، وخشوع الأتقياء ، اللهم انقذنى من عالم الشقاء ،واجعلنى من إخوان الصفاء، وأصحاب الوفاء..."([2]) وهذه إشارة واضحة إلى إخوان الصفاء المعروفة رسائلهم ، وإن جهلت أسماؤهم . وأما القصة التى دارت حوله ، فهى أنه لما دخل على سيف الدولة الحمدانى أمير حلب ، تبين للأخير أن الفارابى يعرف الشفرة التى يتخاطب بها الأمير الحمدانى مع حراسه، وهذه المعرفة تنبئ عن المهمة التى كان الفارابى مضطلعا بها ، وأنها لم تكن مهمة علمية خالصة ، خاصة إذا ماتذكرنا أن الدولة الحمدانية لم تسقط بعد

([1]) دائرة المعارف الإسلامية : مادة (ابن سينا).

([2]) مقدمة ناشر مجموعة من كتب الفارابى ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ص ١٧ وانظر القفطى تحت ترجمة الفارابى.

ذلك إلا على أيدى الفاطميين، كما أن بلاد الشام كانت هى الموطن الذى اتخذه الأئمة الاسماعيليون فى دور الستر مقرا لهم بعيدين عن أعين العباسيين ، وقد كانت حياة الفارابى تتردد بين دمشق وحلب .

فهل كانت مهمة ابن سينا فى بلاط البويهيين فى بلاد الفرس هى مهمة الفارابى فى بلاد الشام ؟ واذا كان ابن سينا قد أصبح بعد ذلك رجل دولة فى بلاطات بنى بويه ، فما باله يصبح بين الحين والحين موضع شبهة من الآمراء البويهيين؟ فبينا هو صاحب الحل والعقد هناك تجده مطاردا متخفيا متنكرا فى زى الصوفية، يختفى حينا فى دار (العلوى) وحينا آخر فارا بنفسه ، ناجيا بحياته ، فمن هو هذا العلوى ؟ وهل هذا الوضع كان هو طابع العصر الملئ بالاضطراب؟ أم كان هذا هو شان ابن سينا؟.

ولماذا نذهب بعيدا ؟ إن اللافت للنظر هو ذلك النداء الذى يوجهه إلى بعض إخوانه ممن يشاركونه المشرب والاتجاه ، ويصفهم بالإخلاص، والقرابة التى تجمعه بهم وهى قرابة إلهية، وذلك فى مطلع (رسالة الطير) موضوع الدراسة . إنه يقول "إخوان جمعتهم القرابة الإلهية ، وألفت بينهم المجاورة العلوية ، ولاحظوا الحقائق بعين البصيرة ، وجلوا الوسخ ورين الشك عن السريرة، فلن يجمعهم الا منادى الله : ويلكم ، إخوان الحقيقة ، تحابوا أو تصافوا ، وليكشفن كل واحد منكم لأخيه الحجب عن خالصة لبه، ليطالع بعضكم بعضا، وليستكمل بعضكم ببعض، ويلكم ، إخوان الحقيقة ، تقنعوا كما يتقنع القنافذ ، وأعلنوا بواطنكم، وأبطنوا ظواهركم، فبالله إن الجلى لباطنكم ، وإن الخفى لظاهركم ، ويلكم ، إخوان الحقيقة ، اسلخوا عن جلودكم إسلاخ الحيات ،ودبوا دبيب الديدان ، وكونوا عقارب أسلحتها فى أذنابها ، فإن الشيطان لن يراوغ الإنسان إلا من ورائه ،وتجرعوا الزعاف تعيشوا،

واستحبوا الممات تحيوا ، وطيروا ، ولاتتخذوا وكرا تتقلبون إليه ، فإن مصيدة الطيور أوكارها ، وإن صدكم عوز الجناح ، فتلصصوا تظفروا، فخير الطلائع ماقوى على الطيران ، كونوا هواما تلتقط الجنادل المحميات، وأفاعى تسترط العظام الصلبة ، وسمادل تفشى الضرام على ثقة ، وخفافيش لا تبرز نهارا ، فخير الطيور خفافيشها ، ويلكم ، إخوان الحقيقة ، أغنى الناس من يجترئ على غده ، وأفشلهم من قصر عن أمده ،ويلكم ، إخوان الحقيقة ، لاعجب إن اجتنب ملك سوءا أو ارتكبت بهيمة قبيحا ، بل العجب من البشر..."([1]).

فمن هؤلاء الإخوان اللذين يناديهم، هل هم خلائه فى الطريق الصوفى؟ الحق أن ابن سينا لم يسلك الطريق الصوفى عملا ، وإن سلكه من الوجهة النظرية ، فحياته - كما هو - معروف ليس حياة زهد وتقشف ومجاهدة حتى يكون له إخوان فى الطريق العملى كما هو شأن جماعة الصوفية . ثم ماهو الظاهر الذى يطالب به الإخوان إخفاءه ، وماهو الباطن الذى يطلب منهم إظهاره؟.

والقارئ لمؤلفات ابن سينا يرى أنه بدأ مشائيا ، وإنتهى إشراقيا. وهناك مايفيد بأن كتاباته المشائية كانت استجابة لبعض المشائين من تلاميذه مثل الجوزجانى([2]) تلميذه والذى كمل ترجمته . ويتضح هذا الاتجاه المشائى عند ابن سينا فى كتابه (الشفاء) ومختصره المعروف بكتاب (النجاة).

([1]) ابن سينا : رسالة الطير ، ضمن كتاب (قراءات فى الفلسفة ، تأليف على سامى النشار ، ومحمد على ابو ريان ، مرجع سابق ، ص ٦٣٢، ٦٣٣.

([2]) على سامى النشا ومحمد على أبوريان : قراءات فى الفلسفة ، ص ٤٦٨.

أما الاتجاه الاشراقى فيتضح من كتابه (الإشارات والتنبيهات) وخاصة القسم الرابع منه ، وكذلك كتاب (الحكم المشرقية) الذى لم يصلنا منه سوى كتاب المنطق الذى طبع باسم (منطق المشرقيين) أما بقية الكتاب فلم يصل إلينا ، ولعل هذه البقية هى التى أشار إليها السهروردى، مقللا من شأنها على أنها بعيدة عن حكمة الإشراق ويذهب بعض الباحثين إلى أن " موقف ابن سينا الفلسفى الصوفى فى الأنماط الأخيرة من الإشارات ، وفى رسائله الصوفية ، إنما يكشف لنا عن تيار إشرافى أفلاطونى، سيلتقى مع الإشراقية عند السهروردى ، بعد أن يتأكد ويتضح من نقد أبى البركات البغدادى لفلسفة ابن سينا".([1])

والحق أن ابن سينا – بالرغم من أنه بدأ مشائيا وانتهى إشراقيا– فإن البداية قد أثرت إلى حد كبير فى النهاية ، لقد بدأ أرسطيا حيث صنف قوى النفس ، على النحو الذى نعرفه ، ابتداء بالأعم وانتهاء بالأخص. إنه يصنف النفس ثلاث قوى : النفس النباتية، والنفس الحيوانية ، والنفس الإنسانية . الأولى: الكمال الأول لجسم طبيعى آلى من جهة مايتولد وينمى ويغتذى ، والثانية : الكمال الأول لجسم طبيعى آلى من جهة مايدرك الجزئيات ويتحرك بالارادة ، والثالثة : الكمال الأول لجسم طبيعى آلى من جهة ماينسب إليه أنه يفعل الأفاعيل الكائنة بالاختيار الفكرى ،والاستنباط بالرأى ، ومن جهة مايدرك الأمور الكلية.([2])

([1]) المرجع السابق ، ص ٤٦٥.

([2]) ابن سينا : الشفاء ، الطبيعيات ، تحقيق جورج قنواتى وسعيد زايد ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (٦) ، ص ٣٢ .

ويبدو أن الدافع الذى دفع الشيخ الرئيسى إلى هذا التصنيف ، على النحو السابق ، هو رغبته فى متابعة أرسطو ، فى نظرته إلى العالم الطبيعى من جهة تكوينه من هيولى وصورة ، ارتقاء من الهيولى الغفل ، التى هى عبارة عن فكرة مجردة ، ثم وصولا إلى أرقى درجات الكائنات الطبيعية وهى الإنسان ، لأن الترتيب من أدنى إلى أعلى، يفترض ان يكون كل ماهو أدنى متضمنا فيما هو أعلى منه ، وأن هذا الأعلى يزيد عليه من جهة مافى صورته من زيادة فى القوى الصورية، ولذلك يفطن إلى مافى التقسيم السابق من شبهة القصور الذى دعته إليه ضرورة التصنيف الطبيعى ، فيقرر " إنه لولا العادة ، لكان الأحسن أن يجعل كل أول شرطا مذكورا فى رسم الثانى، إن أردنا أن نرسم النفس ، لا القوة النفسية التى للنفس بحسب ذلك الفعل فإن الكمال مأخوذ فى حد النفس ، لا فى حد قوى النفس".([1])

ويتبين بوضوح ضعف إشراقية ابن سينا، عند مايتحدث عن الإدراك أو عن (نظرية المعرفة) ، فابن سينا يجعل النفس الانسانية واقعة بين جنبتين : جنبة ناظرة إلى ماتحتها ، وجانبة متجهة إلى مافوقها، فالذى تحتها هو البدن بأعضائه التى تطل منها على العالم الحسى ، أما الجنبة الناظرة إلى أعلى ، فهى التى تتعامل مع العالم العلوى ، أو العالم القدسى ويسمى الجنبة النفسية هذه الأخير (العقل). وهذا العقل – وإن كان اتجاهه إلى العالم العلوى – لايتصل بهذا العالم العلوى اتصالا مباشرا، بل إنه يتصل به بواسطة (العقل الفعال)، أى عن طريق مايفيضه العقل الفعال الذى ينتمى إلى عالم العقول المجردة المفارقة .وهو آخر العقول العشرة ، ويسميه فلاسفة الإسلام بواهب الصور لأنه المشرف على ماتحخت ملك القمر .

([1]) المرجع السابق ، نفس الصفحة.

وفـى نفـس الوقـت نجـد أن إدراك النفـس الإنســانية بالنسـبة للجنبـة المتجهـة إلـى أسـفل ، إدراكـا غـير مباشـر للعـالم الحسـى ، وذلـك مـن خـلال الحواس الظاهرة ، والحس المشترك والقوة المتخيلـة والقـوة الوهميـة والوقـوة الحافظة أو المذكرة .

أى أن هذه القوى تعمل على تجريد المعقولات من المحسوسات ومـن ثم ، فإن النفس لاتتعامل مباشرة مـع العـالم الحسـى ، بـل مـن خـلال الأدوات الحسية .

أما الجانب الأعلى من النفـس فإنهـا ايضـا تظـل فـى دائـرة الواسـطة، ولها عمليتان فى هذه الجهة ، عملية التذكر ، أى تذكـر ماكـانت تعلمـه قبـل أن تهبط من العالم العلوى إلى البدن، وعملية تلقى الفيض من العقل الفعال.

ومن هنا نجد أنفسـنا أمـام ثـلاث عمليـات إدراكيـة للنفـس الإنسـانية : تجريد للمعقولات من المحسوسات ، تذكر المعلومات الماضيـة، تلقـى الفيـض عن طريق العقل الفعال .

ويتحدث ابن سينا عن العملية الأولى ، يقول :" فمن قواهـا (النفـس) مالها بحسب حاجتها الى تدبير البـدن ، وهـى القـوة التـى تختـص بإسـم العقـل العملى ،وهى التى تستنبط الواجب فيما يجـب أن يفعـل مـن الأمـور الإنسـانية الجزئية ، لتتوصل به الى أغـراض اختياريـة ، مـن مقدمـات أوليـة ذائعـة أو تجريبية".([1]) أما العمليتان الأخريان فإنهما يتمان من خلال الجنبة العليـا التـى

([1]) ابن سينا: الإشارات والتنبيهات ، قسم ٢ ، ص ٣٨٧، ٣٨٨.

يسميها العقل النظرى وهو العقل الذى تحدث عنه الفارابى([1])، خاصة بـإدراك المعقولات سواء بالتذكر أو بطريق الفيض، وجعله مراحل ، لكل مرحلة اسم خاص به، وقد جاءت الأسماء التى ذكرها ابن سينا لهذه المراحل مختلفة عنها عند الفارابى،ولكن لامشاحة فى الأسماء ، فالحقيقة واحدة . والطريف هنـا أن ابن سينا يجعل هذه المراحـل تـأويلا لعنـاصر الصـورة القرآنيـة الجميلـة التـى ضربها الله مثلا لنوره فى قوله تعالى " الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسـه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس واللـه بكل شئ عليم"([2]) وقد لعب تأويل هذه الآيـة - علـى نحومافعلـه ابـن سـينا- دورا كبيرا فى الفكر الإسلامى الفلسفى والصوفى على حد سواء.

فالمرحلة الأولى من مراحل العقل النظرى هى : " قوة استعدادية لها نحو المعقولات، قـد يسميها قـوم عقـلا هيولانيـا ، وهـى المشـكاة " والمرحلـة الثانية:" قوة أخرى تحصـل لهـا عنـد حصـول المعقـولات الأولـى، فتتهيـأ بهـا لاكتساب الثوانى ، إما بالفكرة، وهى الشجرة الزيتونه ، إن كانت ضعفى ، أو بالحدس ، فهى زيـت أيضـا ، إن كـانت أقـوى ، فتسـمى عقـلا بالملكـة، وهـى الزجاجة الشريفة ، البالغة منها قوة قدسية ، يكاد زيتها يضئ ولـو لـم تمسسـه نار " والمرخحلة الثالثة :" ثم يحصل لها بعد ذلـك قـوة وكمـال ، أمـا الكمـال، فأن تحصل لها المعقولات بالفعل مشاهدة متمثلة فى الذهـن ،وهـى نـور علـى

([1]) الفارابى : رسالة فى معانى العقل ، ضمن مجموعة ، القاهرة ، دار السعادة ، ١٩٠٧، ص ٤٩ .

([2]) النور : آية ٣٥ .

نور ، أو بالقوة ، فأن يكون لها أن تحصل المعقول المكتسب المفرغ منه كالمشاهدة متى شاءت ، من غير افتقار إلى اكتساب ،وهو المصباح ،وهذا الكمال يسمى عقلا مستفادا ، وهذه القوة تسمى عقلا بالفعل ، والذى يخرج من الملكة إلى الفعل التام ، ومن الهيولانى الى الملكة فهو العقل الفعال، وهو النار..([1]).

ونحسب أن الهدف الذى دعا بالفلاسفة المشائين من المسلمين – وعلى رأسهم ابن سينا – إلى الذهاب إلى القول بالإدراك غير المباشر هو حرصهم على وحدة النفس الإنسانية من أن تنالها عوارض الكثرة إذا هى باشرت المدركات الحسية ، ومن هنا ذهبوا إلى الوسائط فى عملية الإدراك بين النفس والعالم الحسى غير أنهم إذا كان لهم العذر فى ذلك من جهة العالم الحسى ، فما عذرهم إذن بالنسبة للجنبة المتجهة إلى العالم المعقول، سواء أكان التعامل معه تذكرا ،أو فيضا ، فطبيعة العالم المعقول تتسم بالبساطة وعدم التركيب ، ومن هنا لم يكن هناك مبرر للقول بالوسائط فى عملية الإدراك، ومن ثم فلا عذر لهم هنا إلا لأنهم متأثرون بمشائيتهم ومتابعتهم لأستاذهم أرسطو .

وبناء عليه فإن كثيرا من الباحثين يذهبون إلى أن تصوف ابن سينا تصوف عقلى، مع فى ذلك من تناقض، إذ كيف يكون تصوفا ، وفى نفس الوقت عقلى ، إن إدراك العقل للعالم الأعلى يبدأ من أسفل متجها إلى أعلى ، ويسميه المتصوفة معرفة التعرف ، إذ ينتقل فيه العقل من إدراك الأثر إلى إدراك المؤثر ، على حين تتجه المعرفة الكشفية الصوفية من أعلى إلى أدنى

([1]) ابن سينا : الإشارات قسم ٢ ، ٣٨٩، ٣٩١.

فهم يستدلون على الخلق بالخالق ، ويطلقون على هذا النمط من المعرفة معرفة التعريف. ويستشهدون على النوع الأول بقوله تعالى " سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق"([1]) ، قال العطوى رحمة الله عليه : (تعرف) الله تعالى إلى العامة بمصنوعاته فقال: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت..)([2]) الآيات وبكلامه وصفاته فقال (أفلا يتدبرون القرآن)([3])، وقال تعالى (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين)([4])، وقال تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها)([5]). أما النوع الثانى من المعرفة وهو معرفة التعريف فيستشهدون عليه بقوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا)([6])، وقال تعالى: (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل).([7])

ولذلك فإن نقاد ابن سينا كانوا على حق عندما وضع هذه الوسائط فى طريق المعرفة الكشفية، لأنه وإن كان له عذر فى المعرفة الحسية، فلا عذر له فى المعرفة الأخرى – كما سبق أن أوضحنا – ومن هنا لم تكن اشراقيته خالصة ، وكان السهروردى على حق عندما نقده ، وكذلك كان أبو البركات

([1]) فصلت: آية ٥٣.

([2]) الغاسية : الآيات : ١٧ – ٢٠ .

([3]) محمد : آية ٢٤ .

([4]) الإسراء: آية ٨٢.

([5]) الأعراف: آية ١٨٠.

([6]) الشورى : آية ٥٢.

([7]) الفرقان : آية ٤٥ .

البغدادى على حـق أيضـا عندمـا وجـه اللـوم إليـه . الـذى يقـول عـن الإدراك المباشر للنفس عندما تتوجه إلى موضوع الإدراك " لو نالت النفس النفس ، الذات للذات ، لا بالجوارح والآلات ، لـرأت فيهـا مـاترى هـى فـى ذاتهـا مـن هذا، كمقابلة المرآة للمـرآة"(1) . ويذهـب بـاحث محـدث إلـى أن مذهـب أبـى البركات البغدادى ، كان مذهبا وسـيطا (أى بيـن المشـائية والإشـراقية) لابـد منه ، يمهد لظهور الأفلاطونية الكامنة فى مذهب ابن سينا ، وهـذا هـو الـدور الذى لعبته فلسفة أبى البركات ، إذ ساعدت بنقدها لمذهب ابن سينا (الرسـمى) علـى إنمـاء أفلاطونيتـه المسـتترة ، وبذلـك تهيـأ الجـو الفلسـفى لظـهـور التيـار الأفلاطونـى الإسـلامى الواضـح ، عنـد السـهروردى وتلامذتـه إلـى الصـدر الشيرازى"(2).

بعد هذه السياحة – على إيجازها – فى فكر ابن سـينا ،وخاصـة فيمـا يتصل بالنفس الإنسانية ،ونظريـة المعرفـة علـى الأخـص ،وبعـد إلقـاء بعـض الضوء على التجائه إلى التعبير الرمزى ، تارة فـى القصـة الخياليـة (سـلامان وأبسال) ، وتارة أخرى فى قصته (حى بن يقظان) ثم أخيرا القصـة التـى هـى موضوع الدراسة الآن والتى تمثلت فى (رسـالة الطـير) فـإن السـؤال الكبـير الذى لابد من طرحه ، هو ماذا كان يريد ابن سـينا مـن عرضـه لأفكـاره مـن خلال القصص الرمزية هذه؟ ولماذا لجأ إلى هذا اللون من التعبير عن الآراء؟ وماذا أراد أن يقوله من خلال الرمـز ، إذا كـان مـايريد أن يقولـه قـد قالـه مـن خلال القسم الرابـع مـن كتابـه الإشـارات والمقصـود بـه التعبـير عـن الاتجـاه

---

(1) البغدادى، أبو البركات : المعتبر فى الحكمة ، ج ٢، ص ٤٠٠.

(2) علـــى سامـــى النشار ومحمد على أبوريان : قراءات فى الفلسفة ، مرجع سابق ، ص ٧٣٥، ٧٣٦.

الصوفى الأفلاطونى الإشراقى ، بعد أن سطر فى كتبه الأولى ، وخاصة (الشفاء) و (النجاه) مأراد أن يعبر به عن آرائه المشائية؟.

هل كان ابن سينا منذ البداية يهدف إلى التعبير عن معتنقه الأساسى وهو الصوفية الإشراقية ،ولكنه آثر التقية فأراد أن يغلف آراءه الإشراقية بغشاء من المشائية؟ أم أنه كان يعتنق المشائية حقا منذ البداية ، ثم عدل عن ذلك نتيجة للتطور الفكرى من المشائية إلى الاشراقية؟.

إن كتبه الرمزية المشار اليها سلفا يتضح فيها الاتجاه الاشراقى، هذا بالاضافة الى رسائله الكثيرة المتنوعة التى هى عبارة عن لبنات فى بناء هذا المذهب . لكنه مع ذلك لم يستطع أن يتحرر من مشائيته ، وهو يعبر عنمشائيته ، فهل كان هذا الموقف المزدوج تأثرا بذلك الخلط الهائل الذى حدث بين آراء أرسطو وأفلاطون؟ فظن فلاسفة الاسلام عموما أن الفيلسوفين اليونانيين الكبيرين ، لايختلفان فيما بينهما فى آرائهما، مما دفع الفارابى إلى (الجمع بين رأيى الحكيمين) وظل هذا المعتقد عند ابن سينا ؟ أم ماهو الاحتمال الآخر الذى يحتاج إلى الكشف عنه ، وإيضاحه ، وبيان جذوره ؟

إنه يجدر بنا – حرصا علىالمنهجية – أن نبدأ أولا باستعراض (رسالة الطير) لابن سينا ، ثم نحاول من خلال التحليل والنقد أن نصل إلى حل لهذا المعضل قدر الطاقة.

نص رسالة الطير

يلاحظ أن الرسالة هذه جاءت فى غاية الإيجاز، على عكس " حى بن يقظان " للمؤلف ، وكذلك علـى عكس قصـة " سـلامان وأبسـال" اللتيـن سـبق عرضهما . لهذا السبب فإنه من الأجدر عرضها كاملة كما ذكرهـا صاحبهـا ، وربما كان هذا المسلك أوفق بالنسبة لقدرة الباحث، حيث أنـه مـن الممكـن إلا تند عنه إشارة أو لمح أو رمز من الرموز الغامضة التى لجـأ إليهـا المؤلـف . فهو يبدأ على النحو التالى :

هل لأحد من إخوانى فى أن يهب لى من سمعه قدر ماألقى اليه طرفـا من أشجانى ، عساه أن يتحمل عنى بالشركة بعض أعبائها . فان الصديق لـن يهذب عن الشوب أخاه ، مالم يمخض فى سرائك وضرائك عن الكدر صفاءه، وأنـى لـك بـالصديق الممـاخض، وقـد جعلـت الخلـة تجـارة يفــزع اليهـا ، اذا استدعت إلى الخليل داعية ووطر ، وترفض مراعاتها ، إذا عرض الاستغناء. فلن يزار رفيق إلا إذا زارت عارضة ، ولن يذكر خليل إلا إذا ذكرت مأربة.

اللهم إلا إخوان جمعتهم القرابة الإلهية ، وألفت بينهم المجاورة العلوية ولاحظوا الحقائق بعين البصيرة،وجلوا الوسخ ورين الشك عن السـريرة، فلـن يجمعهم إلا منادى الله:

ويلكم ، إخوان الحقيقة، تحابوا أو تصافوا، وليكشـفن كـل واحـد منكـم لأخيه الحجب عن خالصة لبه ليطالع بعضكم بعضا، وليستكمل بعضكم ببعض ويلكم، اخوان الحقيقة ، تقنعوا كما يتقنـع القنـافذ، واعلنـوا بواطنكـم ، وابطنـوا ظواهركم، فبالله ، إن الجلى لباطنكم، وإن الخفـى لظـاهركم، ويلكـم ، اخـوان

الحقيقة، اسلخوا عن جلودكم إسلاخ الحيات ، ودبوا دبيب الديدان، وكونوا عقارب أسلحتها فى أذنابها، فإن الشيطان لن يراوغ الإنسان إلا من ورائه، وتجرعوا الزعاف تعيشوا ، واستحبوا الممات تحيوا ، وطيروا ، ولاتتخذوا وكرا تتقلبون إليه ،فإن مصيدة الطيور أوكارها ،وإن صدكم عوز الجناح ، فتلصصوا تظفروا ، فخير الطلائع ماقوى علىالطيران. كونوا هواما تلتقط الجنادل المحميات، وأفاعى تسترط العظام الصلبة، وسمادل تغشى الضرام على ثقة ، وخفافيش لاتبرز نهارا ، فخير الطيور خفافيشها.

ويلكم ، إخوان الحقيقة ، أغنى الناس من يجترئ على غده ، وأفشلهم من قصر عن أمده.

ويلكم ، إخوان الحقيقة ، لاعجب أن اجتنب ملك سوءا، أو ارتكبت بهيمة قبيحا، بل العجب من البشر ، إذا استعصى على الشهوات ،وقد ضيع على استئثارها صورته ، أوبذل لها الطاقة،وقد نور بالعقل جبلته ،ولعمر الله، بن الملك بشر ثبت عند زبال الشهوة، ولم تزل قدمه عن موطئه فيه ،وقصر عن البهيمة إنس لم تقف قواه بدرء، شهوة تستدعيه.

وأرجع إلى رأس الحديث فأقول :

برزت طائفة تقتنص ، فنصبوا الحبائل، ورتبوا الشرك وهيأوا الأطعمة ، وتواروا فى الحشيش ،وأنا فى سربة طير ، إذ لحظونا ، فصفروا مستدعين ، فأحسسنا بخصب وأصحاب ماتخالج فى صدورنا ريبة ،ولا زعزعتنا عن قصدنا نهمة ، فابتدرنا إليهم مقبلين ، وسقطنا فى خلال الحبائل أجمعين، فاذا الحلق ينضم على أعناقنا ، والشرك يتشبث بأجنحتنا ،والحبائل تتعلق بأرجلنا ، ففزعنا إلى الحركة ، فمازادتنا إلا تقييدا ، فاستسلمنا للهلاك،

وشغل كل واحد منا ماشغله من الكرب عن الاهتمام بأخيه ، وأقبلنا نتبين الحيل فى سبيل التخلص زمانا حتى أنسينا صورة أمرنا ، واستأنسنا بالشرك، وأطمأننا إلى الأقفاص.

واطلعت ذات يوم من خلال الشبك ، فلحظت رفقة من الطير أخرجت رءوسها وأجنحتها من الشرك، وبرزت عن أقفاصها تطير، وفى أرجلها بقايا الحبائل ، لا هى تؤودها فتعصمها النجاة ، ولاتبينها فتصفو لها الحياة . فذكرتنى ماكنت أنسيته ، ونغصت على ماألفته ، فكدت أنحل تأسفا ، أوينسل روحى تلهفا ، فناديتهم من وراء القفص : أن أقربوا منى توقفونى على حيلة الراحة ، فقد أعنتتى طول المقام .

فتذكروا خدع المقتنصين ،فما زادوا إلا نفارا ، فناشدتهم بالخلة القديمة . والصحبة المصونة ، والعهد المحفوظ ، ماأحل بقلوبهم الثقة ، ونفى عن صدورهم الريبة ، فوافونى حاضرين ، فسألتهم عن حالهم ، فذكروا أنهم ابتلوا بما ابتليت به ، فاستيأسوا واستأنسوا بالبلوى ثم عالجونى ، فنحيت الحبالة عن رقبتى ، والشرك من أجنحتى ، وفتح باب القفص. وقيل لى :

اغتنم النجاة ، فطالبتهم بتخليص رجلى عن الحلقة ، فقالوا : لو قدرنا عليها لابتدرنا أولا وخلصنا أرجلنا ، وأنى يشفيك العليل ؟ فنهضت عن القفص أطير، فقيل لى : إن أمامك بقاعا لن تأمن المحذور إلا أن تأتى عليها قطعا ، فأقتف آثارنا نلج بك ، ونهدك سواء السبيل، فساوى بنا الطيران بين جبل الإله ، فى واد معشب خصيب ، بل مجدب خريب ، حتى تخلف عنا جنابه ،وجزنا جيزته ، ووافينا هامة الجبل ، فإذا أمامنا ثمانى شواهق ، تنبو عن قللها اللواحظ ، فقال بعضنا لبعض : سارعوا ، فلن نأمن إلا بعد أن نجوزها ناجين ، فعانينا الشد ، حتى أتينا على ستة من شواهقها ، وانتهينا إلى

السابع ، فلما تغلغلنا تخومه ، قـال بعضنـا لبعض: هل لكـم فـى الجمـام؟ فقد أوهننا النصب ، وبيننا وبين الأعداء مسافة قاصية ، فراينـا أن نخص للجمـام من أبداننا نصيبا ، فإن الشرود على الراحـة أهدى إلى النجـاة من الانبتـات، فوقفنـا علـى قلتـه، فـإذا جنـان مخضـرة الأرجـاء ، عـامرة الأقطـار ، مثمـرة الأشجار ، جارية الأنهار ، يروى بصرك نعيمهـا بصـور تكـاد لبهائهـا تشـوش العقول، وتستبهت الألباب، وتسمعك ألحانا مصرية لآذاننـا ، وأغـانى شـجية ، وتشمك روائح لايدانيها المسك السرى،ولا العنبر الطرى، فأكلنـا مـن ثمـاره ، وشربنا من أنهـاره، ومكثنـا ريـث ماأطرحنـا الإعيـاء ، فقـال بعضنـا لبعـض: سارعوا ، فلا مخدعة كالأمن ،ولامنجاة كالاحتياط ، ولاحسن أمنع من إسـاءة الظنون، وقد امتد بنا المقام فى هذه البقعة ، على شفا غفلة ، ووراءنا أعداؤنـا يقتفون آثارنا ، ويتفقدون مقامنا ، فهلموا نبرح ونهجر هذه البقعـة، وإن طـال الثواء بها ، فلا طيب كالسلامة.

وأجمعنا على الرحلة، وانفصلنا عن الناحية ، وحللنا بالثامن منها، فإذا شامخ خاض رأسه فـى عنـان السـماء ، تسـكن جوائبـه طيـور لـم ألـق أعـذب ألحانا، وأحسن ألوانا ، وأظرف صورا ، وأطيب معاشرة منها ، ولما حللنا فى جوارها ، عرفنا من إحسانها وتلطفها وإيناسها ماتغمدتنا به ، وأيادى لـن نفـى بقضاء أهونها ، وإن قصرنا عليه مدة عمرنا ، بل استمددنا إليه أضعافـــا.

ولما تقرر بيننا وبينها الانبساط ، أوقفناهـا علـى مـاألم بنا ، فـأظهرت المسـاهمة فـى الاهتمـام ، وذكـرت أن وراء هـذا الجبـل مدينـة يتبوأهـا الملـك الأعظم ،وإنى مظلـوم استدعاه ، وتوكـل عليـه ، كشـف عنـه الضـراء بقوتـه ومعونته ، فاطمأننا إلى إشارتها، وتيممنا إلى مدينة الملك، حتـى حللنـا بفنائـه منتظرين لإذنه ، فخرج الأمـر بـإذن الواردين ، فادخلنـا قصـره ، فـإذا نحـن

بصحن لايتضمن وصفه رحبه،فلما عبرناه ، رفع لنا الحجاب عن صحن فسيح مشرق ، استضقنا لديه الأول، بل استصغرناه حتى وصلنا إلى حجرة الملك ، فلما رفع لنا الحجاب ،ولحظ الملك فى جماله مقلتنا ، علقت به أفئتنا، ودهشنا دهشا عاقنا عن الشكوى ، فوقف على ماغشينا ، فرد علينا الثيات بتلطفه ، حتى اجترأنا على مكالمته ، وعبرنا بين يديه عن قصتنا ، فقال: لن يقدر على حل الحبائل من أرجلكم إلا عاقدوها بها ، وإنى منفذ إليهم رسولا يسومهم إرضاءكم وإماطة الشرك عنكم ،فانصرفوا مغبوطين ، وهو ذا نحن فى الطريق مع الرسول ، وإخوانى متشبثون بى ، يطلبون منى حكاية بهاء الملك بين أيديهم ، وسأصفه وصفا موجزا ،وأقرأ ، فأقول :

إنه الملك الذى مهما حصلت فى خاطرك جمالا لايمازجه قبح ، وكمالا لايشوبه نقص صادفته مستوفى لديه . وكل كمال بالحقيقة حاصل له، وكل نقص ، ولو بالمجاز ، منفى عنه . كل – لحسنه – وجه ، ولجوده يد، من خدمه فقد اغتنم السعادة القصوى ، ومن حرمه فقد خسر الآخرة والدنيا .

وكم من أخ قرع سمعه قصتى ، فقال : أراك مس عقلك مسا ، أو ألم بك لمم، ولا والله ماطرت ، ولكن طار عقلك ، وماقتنصت بل اقتنص لبك ، أنى يطير البشر، أوينطق الطير ؟ كأن المرار قد غلب فى مزاجك ،واليبوسة استولت على دماغك ، وسبيلك أن تشرب طبخ الأفثيجون ، وتتعهد الاستحمام بالماء الفاتر العذب ، وتستنشق بدهن النيلوفر،وتترفه فى الأغذية ، وتستأثر منها المخصبة ، وتجتنب الباه ، وتهجر السهر ، وتقل الفكر ، فإنا قد عهدناك فيما خلا لبيبا ، وشهدناك فطنا ذكيا ، والله مطلع على ضمائرنا ، فإنها من جهتك مهتمة ، ولاختلال حالك حالنا مختلة .

مـاأكثر مـايقولون ! وأقل مـاينفع ! وشـر المقـال ماضـاع ، وبالله الاستعانة وعن الناس البراءة ،ومن أعتقد غير هذا خسر فى الآخرة ،والأولى وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

تمت رسالة الطير ، ولله الحمد كثيرا.

*****

هذه هى قصة ابن سينا التى سماها (رسالة الطير). وكما هو واضح قصة رمزية - شأن بقية قصصه الأخرى التى سبق الحديث عنها .

وإذا ماأريد تحليلها من الوجهة الفنية فإننا نقف إزاءها متعجبين.إذ من المعروف أن فلاسفة الإسلام-وفى مقدمتهم ابن سينا - قد قرأوا كتاب فن الشعر لأرسطو ، فتحدثوا عنه لا من الوجهة الأدبية ، بل من الوجهة الفلسفية أى أنهم لم يفيدوا منه فائدة فنية كان من الممكن - لو فعلوا ذلك - أن تفيد الانتاج الأدبى العربى ، بل ربما ، لو أنهم اهتموا بهذه الناحية من الدراسة، لتحول مصير الأدب العربى . ولكان ذلك مجالا خصبا من مجالات الأدب المقارن، فى وقت كان من المفروض فيه أن يسبقوا ظهور هذا اللون من الدراسات الأدبية فى العالم الغربى .

وبالرغم من أن فلاسفة الإسلام قد قرأوا التراث اليونانى ، وخاصة لدى أفلاطون وارسطو، إلا أنهم حصروا كلامهم عن الأدب فى فن الشعر ، وتحدثوا عنه من الوجهة النظرية البحتة . أما من الوجهة التطبيقية فلم يعيروها اهتمامهم . ولذلك لم ينتبهوا إلى اهتمام أرسطو بالشعر الموضوعى الذى هو الملحمى والمسرحى ، كما أنه لم يهتم بالشعر الغنائى إلا اهتماما

يسيرا، وذلك على عكس أفلاطون الذى أعجب إعجابا كبيرا بالشعر الغنائى أكثر من إعجابه بالشعر الموضوعى.([1])

كما أنهم لم يهتموا بالدراسة الأدبية المأثورة عن اليونان الا فى حدود الدراسة المعرفية الأخلاقية([2]) غير عابئين بالوجهة الفنية الجمالية فى العمل الأدبى ، بل إنهم جعلوا الشعر أحد فروع علم المنطق. والفروع الأساسية فى المنطق هى : البرهان والجدل والسفسطة والخطابة والشعر فالبرهان يقدم المعرفة اليقينية ، عن طريق مقدمات صادقة وموثوق فى صحتها ، والجدل يقدم معرفة ظنية لأنه يعتمد على مقدمات مشهورة ذائعة ،والسفسطة تقدم معرفة زائفة مموهة عن طريق مقدمات مموهة مغلوطة ، والخطابة يلتمس بها إقناع الإنسان بقصد إمالته للتصديق، أما الشعر فهو يقدم معرفة تخييلية باستخدام الممثلات والمحاكيات ، ولهذا تصبح مقدماته من ذلك النوع الذى لايدقق فى صدقه أو كذبه.

وعلى أية حال فإن نظرة فلاسفة المسلمين إلى ماذكر فى التراث اليونانى عن الشعر قد حصرت فى مجال المنطق ، ولم يطوروا هذه النظرة الى ماكان يمكن أن يفيد الأدب العربى بوجه عام . ومن ثم لم يفطنوا إلى أن أهم أجناس الشعر عند أرسطو بالذات كانت هى المأساة والملهاة والملحمة . ولعل خلو الأدب العربى من هذه الأجناس الثلاثة ،هو الذى لم يلفت انتباهاه هؤلاء الفلاسفة إلى مايمكن أن تؤديه من خدمة للفن والمعرفة والأخلاق، ومن

([1]) هلال ، محمد عنيمى : المدخل إلى النقد الأدبى الحديث ، مرجع سابق ، ص ٢٣-٣٦ ، ٦٢،٥١.

([2]) الروبى،الفت كمال : نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين (من الكندى حتى ابن رشد)، بيروت ، دار التنوير ، ١٩٨٣، ص ١٩ ، ٢٠ .

ثم حصروا دراسة الشعر فى القياس الشعرى وسموه القياس التخييلى ، ولذلك عكفوا على تحديد موطن تكوين الخيال الشعرى من القوى النفسية وتحديد مكانها من تجويف الدماغ وكيفية عملها بعد أن تتلقى المدركات الحسية من الحس المشترك .

وكان من الممكن وقد مارسوا هذا اللون من التعبير عن الأفكار المجردة ، أعنى به القصص الرمزية، كان من الممكن لهم أن يشيروا إلى اهميته فى الأغراض الأخرى خارج النطاق الفلسفى .

ولنعد الآن إلى قصة ابن سينا الذى يبدأها بالشكوى مما به من أشجان ملتمسا من بعض إخوانه من يخفف عنه تلك الأشجان بالمشاركة الوجدانية فالصداقة أصبحت مغنما لامغرما ، فصديقك هو الذى لايعرفك إلا فى وقت السعة أما وقت الشدة فهو يهرب منك هروب الفريسة من الأسد وهى شكوى تقليدية ، علة كل زمان وكل بيئة ، لايكاد يخلو منها عصر أو بلد من البلاد .

لكن اللافت للنظر هى تلك الأشجان التى يحملها ابن سينا بين جنبيه أهى فعلا من خلانه المتنكرين له ؟ أم أنها بسبب أحداث سياسية شارك هو فى صنعها فانقلبت عليه لا له؟ أم من مشروع يشارك هو فيه ؟ فكثيرا مايكون هناك بعض العناصر الانتهازية التى تحفز على إحداث تغيير سياسى أو اجتماعى ، ثم اذا جد الجد اختفت هذه العناصر من مسرح الأحداث منتظرة من مخبئها ماستسفر عنه الصراعات ، فإذا كان للفريق الذى تتظاهر بالانتماء إليه سارعت إلى المشاركة فى الغنيمة ، وإذا كان بخلاف ذلك أعلنت براءتها من صانعى هذه الأحداث ، نافضة يدها من كل مسئولية.

إن مايحير الباحث المتأمل ، هو ذلك النداء الغريب للإخوان الذين لايكشف ابن سينا عن هويتهم ، إن هذه القصة ، كما هو واضح غير موجهة إلى جمهور القارئين لفكره ، ولا إلى زملائه من الفلاسفة المشاركين له فى مذهبه. إن هذا النداء موجه لأناس معينين ، يتهددهم الخطر بقدر مايسعون الى تحقيقه من أهداف لاتقل خطورة .

إن الوصية الملحة التى ركز عليها ابن سينا من خلال ندائه هى التحاب والتصافى ، والإخلاص ، والتكامل ، والتعاضد ، والتساند ، غير أن مايشمل هؤلاء الإخوان جميعا هو (منادى الله).

إن هناك احتمالين ماثلين لتفسير هذا اللغز إذا ماأجيز استخدام هذاالتعبير ، لأن الأمر هنا لم يعد داخل الإطار الرمزى فالرمز له حدوده ومعالمه بحيث يعبر عن مضمونه من خلال غشاء رقيق إمعانا فى إضفاء مسحة من الجمال التعبيرى علىالعمل الأدبى من جهة، وتجنبا للمآخذة الجماهيرية ، أو تحاشيا للوقوع تحت طائلة المحاسبة من قبل سلطة ما سواء أكانت سياسية أو فكرية . أما اللغز فلايمكن الا أن يكون شفرة بين أفراد جماعة سرية منظمة ، يتفقون عليها ، عند حدوث أم هام ، ينبغى الحيطة له، وإعدادالعدة لكل حركة أو سكنة يمكن أن تؤدى إلى نتيجية لاتحمد عقباها .

وجميع الحركات سرية ، لها شاراتها ، وألغازها التى لايفهمها إلا أعضاؤها . وعصر ابن سينا عصر اضطراب وفتن فممالك تقوم وسلطنات تهوى ، ومذهب تسود ، وأخرى تضمحل ، ومؤامرات تحاك فى الظلام، وتعلن عن نفسها مع رائعة النهار، أو تتوارى ، ريثما تحين ....، وتحل الفرصة.

أقول إن الاحتمالين الماثلين اللذين ربما لاثالث لهما هما: الاستعداد لتلك الرحلة التى لاتخلو من مغامرة ، بل هى المغامرة بعينها فى سبيل الوصول الى الله من خلال مجاهدات طويلة ، مضنية ، لايلوى فيها السالك على دنيا ولا علىأهل أو مال أو سلطان ، فالسالك الذى بدع الحقيقة الإلهية أمام عينيه لايلبث أن يضيع كل شئ فى نظره سوء لتلك الحقيقة العلوية التى لاتدانيها حقيقة ، ولايشرئب اليها إلا كل ذى همة عالية ،وطاقة لاتنفذ على العطاء والتضحية بكل مرتخص وغال .

أو المشاركة فى مؤامرة واسعة النطاق من أجل تحقيق هدف سياسى لايقل سعة عن تلك المؤامرة .وهذا ليس بغريب على ذلك العصر كما سبق أن ألمحنا . والسرية والكتمان من طابع مثل هذه الأحوال ، لأن التنظيمات السرية تعمد الى الغموض ، وتعتمد على عدة الفاظ يتفق عليها ، لايتداولها الأعضاء المنخرطون فى هذه الجماعة السرية أو تلك ، لأن الويل كل الويل لمن ينكشف أمره أو تعرف دخيلته ، بل ربما لايقف الأمر عند الخطر الذى يحدق بهذا الشخص الذى انكشف أمره ، فإنه من الممكن أن يتجاوزه إلى من عداه من إخوانه المشاركين له فىالمشرب والهدف .

والدارس للحركة الإسماعيلية الباطنية فى تاريخ الإسلام يحسب أن جميع الحركات السرية التى جاءت بعد ذلك فى تاريخ العالم إلى يومنا هذا ليست إلا تقليدا لهذه الحركة الكبيرة، وأن رجال هذه الحركات ليسوا سوى تلاميذ للدعاة من هذه الحركة الواسعة النطاق التى انتهت بقيام الدولة الفاطمية فى شمال إفريقيا أولا ثم زحفت ثانيا على مصر والشام وبلاد الحجاز، واليمن وغير ذلك من بقاع الإسلام.

وإذا مأأخذنا عدة أمثله على درجة الكتمـان الشـديد، والتمويـه المتقـن، والتعمية الذكية التى اتخذتها الحركة الاسماعيلية منهجا لها إلى درجة أن هـذا المنهج أصبح جزءا من العقيدة ، وكل من يخالفه يكون خارجا من ربقة الديـن وجدنا أنه وقد كان لهذه الحركة منظرون ، ومخططون ، ودعـاة منفـذون فـى درجـات تنازليـة أو تصاعديـة بحيث أنـه لايعـرف داع داعيـا آخـر ، بـل إن الداعى يدعو الى شخصية مجهولة لديه الا بالوصف بحيث يمكـن أن يسـتبدل إمام بـآخر فـى وقـت وجيز دون أن يؤثـر ذلـك علىمسـار الحركـة ونسـيجها المحكم، وأبسط مثال على السرية هو حقيقة الأئمة فى دور السـتر وهـو الـذى يبدأ بوفاة (اسماعيل بن جعفر) فى حياة أبيه جعفر الصادق وينتهـى بظهـور عبيدالله المهدى فى شمال إفريقيا.

ونتيجة للتكتم الشديد فى حقيقة شخصية الإمام الـذى كـان مختفيـا فـى إحدى المدن الشامية (سلمية) حدثت حادثتان كان لهمـا المغـزى البعيـد فيمـا نحن بصدده .

الأولـى: حادثـة انشـقاق القراطـة فـى منطقـة الخليـج العربـى وجنـوب العراق عن الدعوة الاسماعيلية وخروجهم علـى أئمتهـا فـى(سـلمية) " فـإنهم استطاعوا أن يعرفوا اسم الإمام ،وقابلهم الرجـل صـاحب هـذا الاسـم ،وبـارك حركتهم ، ولما عادوا اليه مرة أخرى ، وجدوا شخصا آخر يحمل نفس الاسم، وأشار اليه من حوله بأنه هو الإمام ، فشك زعماء القرامطة فى الإمـام وفـى الدعوة نفسها".[1]

---

[1] حسين، محمد كامل : طائفة الإسماعيلية ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

الثانية : هى حادثة أبى عبدالله الشيعى داعى الإمام عبيدا لله المهدى ، ذلك الداعى استطا' أن يمهد لقيام الدولة الفاطمية فى المغرب ، بين قبيلة كتامة بالذات " فإنه قبل سفره الى بلاد المغرب ، زار الإمام بسلمية ،فقابله شخص على أنه الإمام ولكن بعد ظهور المهدى بالمغرب ، رأى أبو عبدالله الشيعى أن المهدى ليس هو الإمام الذى قابله بسلمية ، وتطرق الشك فى نفسه إلى درجة أنه أفضى بذلك إلى أخيه أبى العباس ، وبعض رؤساء كتامة ، وكادت تحدث ثورة لو لم يبادر المهدى بقتل أبى عبدالله الشيعى وأخيه أبى العباس ، وبإخماد الثورة ، فى سرعة عجيبة ".[1]

بل إن المؤرخين الإسماعيليين أنفسهم يختلفون فيما بينهم فى عدد أئمة دور الستر " وكل مؤرخى من مؤرخو الإسماعيلية تناول الحديث عن هذه الفترة بما يحلو له ، حيث جاء حديثهم مضطربا أشد الا ضطراب ، مختلفا أشد الاختلاف ، فهم مختلفون فى عدد أئمة هذه الفترة ،وهم مختلفون أيضا فى اسماء هؤلاء الأئمة ، جعل بعضهم الأئمة ثلاثة ،وقال بعضهم : بل خمسة ، وقال بعضهم بل سبعة ".[2]

وإمعانا فى السرية " من أجل إنجاح الدعوة الاسماعيلية لجأ رجالها إلى التحالف مع كل اصحاب المذاهب الثائرة على الدولة العباسية ، فعملوا على توحيد جميع الحركات التى ظهرت خلال الجزء الأخير من القرن الثالث الهجرى تحت راية الجهاد الفاطمى.[3]

([1]) المرجع السابق ، ص ٢٦.

([2]) المرجع السابق ، ص ١٥.

([3]) Panayiotis L. Vatikiots: The fatimed theory of State, Lahore , Kashmiri bazar., First. Edt., Pp. 120-127.

وإمعانا فى السرية أيضا ظهروا بألقاب متعددة متنوعة فى مختلف البلاد الإسلامية ، حتى لاينتبه أحد إلى أن هذه الألقاب لحزب سرى واحد يهدف إلى الإطاحة بالنظام سياسيا وفكريا وعقديا فى آن واحد. فذكر الغزالى لهم ألقابا عشرة هى :" الباطنية ،والقرامطة ،والقرمطية ، والخرمية ، والخرمدينية ، والاسماعيلية ، والسبعية ، والبابكية ، والمحمرة والتعليمية "([1]). ويقول الشهرستانى :" ولهم ألقاب كثيرة سوى هذه (الباطنية) على لسان قوم ، فبالعراق : يسمون الباطنية ،والقرامطة والمزدكية ، وبخراسان : التعليمية ، والملحدة ".([2])

بعد هذا العرض للفرقة الوحيد ، أو الحزب الوحيدة الذى اتخذ السرية منهجا ، والكتمان طريقا فى سبيل نشر دعوته بين جماهير العالم الإسلامى شرقا وغربا. تعود إلى هذه الرمزية البعيدة التى اصطنعها ابن سينا فى هذه القصة بالذات .. بل ربما كان الرمز هنا أشبه باللغز منه فى قصتيه السالفتين: (سلامان وأبسال) ، و (حى بن يقظان) لأنه فى هاتين القصتين يمكن بسهولة تبين مغزى الرمز، وهو المذهب الصوفى الاشراقى الذى اتخذه ابن سينا معتقدا له بعد أن انتقل من المشائية الى الإشراقية على نحو ماسبق.

ولنعد مرة أخرى كذلك إلى طرح السؤال من جديد : ما المغزى الذى سعى ابن سينا لتوصيله إلى قرائة من وراء هذا الرمز المنغلق؟.

([1]) الغزالى ، حجة الاسلام : فضائح الباطنية ، وفضائل المستظهرية ، تحقيق عبدالرحمن بدوى ، القاهرة ، الدار القومية ، ١٩٦٤، ص ١١.

([2]) الشهرستانى : الملل والنحل ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ١٥٧.

ولنأخذ الاحتمال الأول : وهو التعبير عن الرحلة الصوفية ، أو طريق السعى إلى الله . خاصة أنه - كما سبق - قد تغير موقفه من مشائى إلى صوفى إشرافى.

فالطائر الذى سقط فى الشرك ،ووقع فىكمين الصيادين ، هو ابن سينا نفسه، والصيادون ، وحبالتهم وحلقهم ، وشركهم ، هم فى الواقع شهوات البدن التى تجره إلى التقيد بقيوده ، والتعلق بما يشبع هذا البدن ورغباته من نعيم الدنيا الفانية، وزخارفها الخادعة. حتى أصبح السكون إلى هذه الدنيا ببهرجها ، وخلابتها شيئا عاديا ، لايمكن الفكاك منه ومن ثم تحول ماهو شر إلى شئ محبب من طول الألفة ، وأصبح الوقوع فى شرك البدن شغلا يشغل الإنسان عن التفكير فى غيره من إخوانه ، وسيطرت الأنانية على كل أحد ، فلا يلوى على مايحيط به من أفراد مجتمعه ، فهذا هو شأن الدنيا وصراعاتها، تولد فى النفس الأنانية وحب الذات ، بحيث لاتدع له أية فرصة للتفكير فى الآخرين ، فضلا عن التفيكر فى مصيره ومآل إليه حاله من السعى وراء تحقيق متطلبات البدن ، وعدم الاهتمام باصلاح الباطن ، وتطهيره مما يعيق تطلعه الى الحياة الأسمى.

ويمكن حل الرموز بما علق بالرقبة من الجباله ، وبما علق بالجناح من الشرك . بأن ذلك رمز إلى تخلص السالك من كل مايعيقه عن سلوك السالك طريق الله عز وجل من عوائق الدنيا وملذاتها وملاهيها .

أما مابقى عالقا بالأرجل من الحلق فيمكن تأويله ببقاء النفس فى داخل البدن فإن ذلك لايمكن التخلص منه الا بالموت وبما أن الموت لم يحن بعد ، فإن هذه الحلقات تظل عالقة بالأرجل .

ومن هنا أمكن السعى فى طريق الوصول إلى معرفة الله مادامت النفس باقية فى الجسد ، وإلا فلا مجاهدة ، ولاسفر ، ولامكابدة ولامشقة ، فهذه كلها إنما تكون مادامت النفس باقية فى الجسد ؟

وبناء على ذلك فإن جبل الإله الذى يتحدث عنه ابن سينا وهو أول العقبات التى عليه اجتيازها فهى جرم القمر الذى لقبه بأنه جبل الاله ، لأنه الجرم الذى يشرف عليه العقل العاشر أو العقل الفعال الموكل بالإشراف على ماتحت فلك القمر أى عالم الكون والفساد ، ومن ثم فهو الحد الفاصل بين العالم العلوى والعالم السفلى ، ولذلك يصف ابن سينا الوادى الذى يقع دون هذا الجبل بأنه واد معشب خصيب ، ثم يستخدم (بل) التى هى للإضراب ويضيف بأنه مجدب خريب ، فما هذا الوادى الذى يجمع بين الضدين ، إنه عالم الكون والفساد الذى يبدو أمام غير العارف أو الذى فى أول طريق المعرفة بأنه (معشب خصيب) ، ولكن بشئ من الاستبصار يدرك السالك أنه وإن بدى للانسان المستغرق فى عالم المادة بأنه كذلك فانه سرعان مايدرك أنه على العكس من ذلك ، فهو مجدب خريب . ومن ثم فإن الاسراع فى الطيران واجب لابد منه حتى لايغلب فى الانسان جانبه المادى الذى يقعد به عن سلوك الطريق.

ولما أصبح فى مستوى (القمر) تبدى له العالم الأعلى متمثلا فى ثمانية شواهق هى علىالترتيب من أسفل إلى أعلى : عطارد ، والزهرة ، والشمس ، والمريخ ، والمشترى ، وزحل ، وفلك الكواكب الثابتة ، والجرم الأقصى.(1)

---

(1) ابن سينا : رسالة (فى الأجرام العلوية) ، ضمن مجموعة تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات ، مرجع سابق ، ص ٥٨، ٥٩.

ويلاحظ هنا أن الطيور قد جازت ستة جبال شاهقة جملة واحدة وهى: عطارد ، والزهرة ،والشمس ، والمشترى ،وزحل ، وفلك الكواكب الثابتة . دون التوقف عند أى منها ،ولعل ذلك من ابن سينا مراعاة للاختصار والإيجاز ، وإمعانا فى الإغماض فى هذا الرمز العجيب .

على أية حال ، فإن هذا الفلك - فى راى ابن سينا - إنما عمله هو " تتميمه ماينبعث من الجرم الأول الأقصى بأن يؤتيه شكلا ، وترتيبا ، ووضعا طبيعيا، وأما فى الأنفس ، فالاستعداد لقبول الرأى المحمود، الذى هو الظن الراسخ المتعارف، وبه تتم معاشرة أشخاص الناس بعضهم مع بعض"([1]) ولذلك يعبر ابن سينا عن ذلك فى قصته بأن جماعة الطيور وجدت فيه "جنان مخضرة " الأرجاء ، عامرة الأقطار ، مثمرة الأشجار ، جارية الأنهار، يروى بصرك نعيمها بصور تكاد لبهائها تشوش العقول ، وتستبهت الألباب، وتسمعك ألحانا مطربة لآذاننا ، وأغان شجية ، وتشمك روائح لايدانيها المسك السرى ، ولا العنبر الطرى ..."([2])

وعندما تصل جماعة الطيور إلى الجبل الثامن الذى هو (الجرم الأقصى) وهو الجرم الذى وظيفته أن يفيض منه فى العالم الأرضى " أما فى الأجسام ، فهو الاستعداد الكلى للمادة الكلية الى الجسم الكلى، وأما فى الأنفس ، فالتهيؤ لقبول العقل بالفعل الذى هوالعلم اليقين"([3]) ، ومن هنا كان مارأته جماعة الطيور فى هذا الجيل الثامن من " طيور لم ألق أعذب ألحانا، وأحسن الوانا ، وأطرف صورا ،وأطيب معاشرة منها ،ولما حللنا فى جوارها ، عرفنا

([1]) المرجع السابق ، ص ٥٨.

([2]) ابن سينا : رسالةالطير ، مرجع سابق ، ص ٦٣٤.

([3]) ابن سينا : رسالة فى الأجرام العلوية ، مرجع سابق ، ص ٥٨ .

من إحسانها وتلطفها وإيناسها ماتغمدتنا به ، وأيادى لم نفى بقضاء أهونها ، وإن قصرنا عليها مدة عمرنا، بل استمددنا إليه أضعافا ..."(1).

و (الجرم الأقصى) هذا الذى يمثل الجرم الثامن ، فى ترتيب الأجرام السماوية صعودا ، إذا أضفنا جرم (القمر) يصبح ترتيبه (تاسعا) وهو (العرش) كما يقول بذلك أصحاب نظرية الفيض ، الذين بنوا نظريتهم هذه على النظرية الفلكية القديمة يقول ابن سينا " والحكماء المتشرعون اجتمعوا على أن المعنى بالعرش هو هذا الجرم"(2)وأما الأفلاك السابق الحديث عنها فهى الملائكة ،وبما أن هناك ثمانية أفلاك أو عقول تشرف على هذه الأفلاك وهم الملائكة ، فإن الفلك التاسع الذى هو (العرش)، فإن الملائكة التى تحمل هذا العرش ثمانية كما جاء فى القرآن الكريم " ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية".(3)

فالطيور – ومنهم ذلك الطير الراوى الذى هو ابن سينا – قد استفادوا من الملائكة خيرا مهما ،وهو أن وراء هذا الجبل الذى هو العرش – كما سبق مدينة " يتبوأها الملك الأعظم ، وأى مظلوم استدعاه وتوكل عليه كشف عنه الضراء بقوته ومعونته "(4) ومن هنا قصدت جماعة الطيور مدينة الملك، واستأذنوا عليه ، فجاءهم الإذن بالدخول ، وأخذوا يجتازون الردهات

---

(1) ابن سينا : رسالة فى إثبات النبوات وتأويل رموزهم وأمثالهم ، (ضمن تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات) مرجع سابق ، ص ١٢٨ .

(2) الحاقة : آية ١٧.

(3) الحاقة : آية ١٧.

(4) ابن سينا : رسالة الطير ، مرجع سابق ص ٦٣٥.

والأبهاء، وهى من البهاء والجمال مايعجز عن وصفها الواصفون وهنا يحدث أن الملك هوالذى يلحظ أعين الطيور ، فتتعلق بجماله أفئدتها ، ويرتج عليها بسبب ما اعتراها من دهشة لجلال الموقف حتى أنها نسيت ماجاءت من أجله، وهو شكواها لما ألم بها من تعلق الحلق بأرجلها ، فتلطف الملك بها وعلم مابها ،وثبتها حتى اجترأت على الكلام ، وأخذت فى التعبير عن شكواها ، عند ذلك قال لهم : لايقدر على حل الحبائل عن أرجلكم إلا عاقدوها بها ، وإنى منفذ إليهم رسولا يسومهم إرضاءكم ، وإماطة الشرك عنكم ، فانصرفوا مغبوطين ، وبينما هم عائدون تشبث بالطائر (ابن سينا). إخوانه من الطيور، طالبين منه أن يصف لهم بهاء الملك وجماله، مع أنهم كانوا جميعا معه ، فى حضرته ، ومع ذلك فابن سينا يلبى رغبتهم ، ويصفه وصفا موجزا:" إنه الملك الذى مهما حصلت فى خاطرك جمالا يمازجه قبح ، وكمالا لايشوبه نقص ،صادفته مستوفى لديه ،وكل كمال بالحقيقة حاصل له ، وكل نقص – ولو بالمجاز – منفى عنه ، كله – لحسنه –وجه – ولجوده – يد، من خدمه ، فقد اغتنم السعادة القصوى ، ومن حرمه فقد خسر الآخرة والدنيا .(١)

وهنا نتوقف مع هذا الطائر (ابن سينا) الذى فاز من بين سائر زملائه من الطيور باستيعابه لصفات هذا الملك الذى هو (الله) لماذا هو وحده بالذات الذى مازال يتذكر صفات الملك ؟ إن علينا ان نتذكر كلام ابن سينا فى غير هذا الموضوع عن الفوز بالوصول الى ملك الملوك إنه يقول "جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد ، أو يطلع عليه إلا واحد بعد

(١) المرجع السابق ، ص ٦٣٥، ٦٣٦.

واحد ،([1]) فابن سينا وحده هو الذى وصل درجة أو مقام المعرفة الحقة دون سائر المجتهدين الذين يسعون فى طريق المعرفة .. فهو العارف اذن الذى تحدث عنه فى مجال آخر ووصف لنا صفات هذا العارف . من الوجهة الأخلاقية الظاهرة واباطنة فهو " هش بش ، بسام ، يبجل الصغير ، من تواضعه ، كما يبجل الكبير ، وينبسط من الخامل ، مثل ماينبسط من النبيه، وكيف لايهش؟ وهو فرحان بالحق ،وبكل شئ ، فإنه يرى فيه الحق ،وكيف لا يسوى ؟ والجميع عنده سواسية"([2])

إن ابن سينا هنا يحيرنا ، فهذه الصفات التى يتصف بها العارف كثيرا ماذكرها الصوفية الواصلون ، فهو تتساوى فى نظرهم اصغير الحقير وذو القدر الكبير ، إنهم تتساوى عندهم الدنيا ، ويرون أنها لاتستحق أن يحزن الإنسان لما يسوءه منها ، ولايفرح بما يسره فيها ، فهى عنده لا تساوى شيئا إزاء الجمال والجلال والكمال الذى يطرف عين فؤاده .

كل هذه المعانى تواردت على السن العارفين ، وإذا ذهبنا إلى إحصائها وإحصاء قائليها ، لن يفى هذا الحيز الصغير بها ، بل يحتاج الأمر إلى أسفار وأسفار .

ترى هل هذه عبارات محفوظة يريدها الشيخ الرئيس ، أم أنها حصيلة تجربة حقيقية ؟

([1]) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات ، القسم الرابع ، تحقيق سليمان دنيا ، القاهرة، ص ٦.

([2]) المرجع السابق : ص ١٥.

إننا نعرف عن حياته مالايتلاءم مع هذه التجربة التى يغلب على الظن أنها متخيلة ،وليست تجربة حقيقية عاناها ، وسعد بها وبذل الجهد الجهيد فى الوصول إلى نهايتها ، شان الصوفية الخلص الذين دلت أحوالهم على صدق أقوالهم ، وشهدت حياتهم بصدق ماذكروا وعبروا عن هذه التجارب العميقة . والذى يضيف الىحيرة الباحث حيرة وحيرة هوماذكره ابن سينا نفسه فى مفتتح رسالته هذه مما يجعلنا نعيد حساباتنا ونوجه الرمز وجهة غير تلك التى سبق أن تم عرضها .

لقد سبقت الإشارة الى أن بعض الباحثين قد ذهبوا إلى أن تصوف ابن سينا كان تصوفا عقليا ، بمعنى أن تصوفه ليس نابعا من تجربة فعلية حقيقية من نوع التجارب التى يعانى فيها السالك مجاهدة ومثابرة ، ومغامرة فى بيداء الروح ، حتىيصل إلى درجات القرب والسكينة .

ماذا قال ابن سينا فى أول الرسالة مما يجعله يبدو متناقضا؟ ومن ثم يدفع الباحث إلى أن يوجه الرمز وجهة أخرى ؟ يحسن بنا أن نذكر بما قاله فى هذا المجال إنه يتوجه إلى إخوانه الذين لاتغيرهم الأيام ولايتخذون من الخلة تجارة ، ولايستغلون هذه الخلة الا عندما تكون هناك نهزة ينتهزونها ، أو فرصة يغتنمونها ، إنهم الإخوان الذين يحرص ابن سينا عليهم ، ويوجه إليهم النصيحة من خالصة قلبه ، ومن ذوب فؤداه ، حتى أن هذه النصيحة تكاد تستغرق ربع الرسالة تقريبا . وهو يبدو فى هذه النصيحة بأخلاق وصفات تتنافى مع صفة العارف التى حددها هو ، ومن المفروض أنه وصل إلى مقام المعرفة من خلال عرضه لقصته هذه . أتراه يهدم فى موضع مايبنيه فى موضع آخر ؟ ماذايعنى بقوله لاخوان الحقيقة " تقنعوا كما يتقنع القنافذ وأعلنوا بواطنكم ،وأبطنوا ظواهركم " أسلخوا عن جلودكم إسلاخ الحيات ،

ودبوا دبيب الديدان ، وكونوا عقارب أسلحتها فى أذنابها " " كونوا هو اما تلتقط الجنادل المحميات ،وأفاعى تسترط العظام الصلبة وسمادل تغشى الضرام على ثقة ، وخفافيش لاتبرز نهارا ، فخير الطيور خفافيشها"؟.

إن هؤلاء الإخوان الذين يوجه إليهم هذا النصح ، بلاشك ، إخوان قد جمعوا أمرهم على ألا يرحموا أحدا ، فليكونوا كالعقارب ، والأفاعى وخفافيش الظلام ، إن عليهم أن يتخذوا العنف سبيلا إلى تحقيق أهدافهم . فمن هؤلاء الإخوان ؟ إنهم هؤلاء المقبلون على أمر خطير وأحداث جسام تتطلب الفتك والتدمير ، والقتل والتخريب .

ربما لوعدنا إلى التهمة القديمة التى ألصقت به وهو مازال فى ريعان الصبا ، وهى انتماؤه إلى طائفة الإسماعيلية ، لانحلت بعض العقد ، ولزال القناع عن تخطيط بعيد المدى يسعى هؤلاء الإخوان إلى تحقيقه.

لإن هذه النصوص ذات المغزى البعيد تعيد إلى الذاكرة هجرته من جرجان بعد أن هبت عليها ريح الاضطرابات السياسية الى همذان حيث استوزره أميرها شمس الدولة بن بويه بعد أن عالجه من مرضه وشفاه ،ولكن عسكر هذا الأمير ثاروا عليه ، واعتقلوه ، فلماذا ؟ أترى ذلك بسبب ثورة الجند علىالوزير لتأخر رواتبهم؟ أم إحساسهم بأمر خطير يدبره ابن سينا فىالخفاء؟ وبعد أن أطلق الأمير سراحه يعيده إلى الإعزاز والاكرام ، يغضب عليه ابنه تاج الملك ويسجنه ، ثم يفر هاربا متسترا فى زى المتصوفه حتى يصل إلى الأمير علاء الدول أمير أصفهان .

كل هذه الأحداث ، مع ماسبق من نصوص يضع علامة استفهام كبيرة على مسلك ابن سينا . بل إن ذلك يذكرنا بأفلاطون الذى نجا من بطش

الحكام مره فى أثينا ، ومرتين فى جنوب إيطاليا،وذلك لسعيه إلى تحقيق مآرب سياسية ، فهل ابن سينا بعيد عن مثل ماحدث لأحد فلاسفة اليونان الكبار ؟.

وإذا ماصحت تلك الفروض فهل نعود مرة أخرى الى تفسير الرموز فى القصة بوجهة غير الوجهة السابقة ؟ وخاصة إن مفتتح القصة لاينبئ عن رجل سالك الطريق إلى الله ؟

فالوادى الذى يقع دون جبل الإله هو المجتمع الإسلامى فى ظل الحكم القائم ، والذى بحكمه سلاطين متعددون ، من بويهيين وسامانيين ، وحمدانيين وغيرهم فى ظل الخليفة العباسى فى بغداد ، إنه لاشك(واد معشب خصيب) بما يحويه من خير كثير لو استولى عليه الإسماعيليون ، وأصبح ملكا لهؤلاء الذين سعوا تحت الأرض لفترة طويلة ،وهم يمهدون لهذا الانقلاب الخطير . وهو فى نفس الوقت (مجدب خريب) لأنه فى أيدى الآخرين . لكن ماهى تلك الشواهق الثمانية التى ينبغى علىالطيور اجتيازها ؟ حتى يتسنى لهم الوصول إلى نهاية الطريق ؟ وماهذه الحبال التى علقت بالأجنحة والأعناق والأرجل ؟ وكيف تخلصت جماعة الطيور مما يربط أعناقها واجنحتها ، ولم تستطع التخلص مما علق بأرجلها ومع ذلك فقد استطاعت الطيران ومواصلة الرحلة؟ ولماذا لم يستطع الملك على جلالة قدره أن يفك الحبال التى علقت بأرجلها ، غاية ماهنالك أنه نصح بالعودة إلى هؤلاء الذين عقدوها أول الأمر، وكل ماكان فى وسعه أن يرسل مع جماعة الطيور لدى عودتها رسولا يوصى هؤلاء العاقدين لها بحلها؟

أليس هنـاك مثـل وممثـول؟ إنـه مـن المعـروف عنـد الإسـماعيلية أن الأدوار سبعة سبعة سبعة([1])، وأن صاحب القيامة هو الثامن فىالدور الأخـير، وهو صاحبة القيامة الكبرى.([2])

وأن ذلك مثال للعالم الأعلى فى بدء التكوين فى عالم الكون والفساد . و" جعل لكل كوكب سبعة آلاف سنة حتى انتهى الى تسعة وأربعين الف سـنة ، وكمل دور زحل ،وتلاه كل كوكب كذلك إلىا لقمر "([3]) ولعل فى إشارة ابن سينا بأن الملك قد قال للطـير : أن مـن يسـتطيع حـل الحلـق مـن الأرجـل هـم عاقدوها . هو أن الامام الذى هو صورة للإله الأعظم على الأرض هو الـذى يستطيع أن يحل هذه العقدة ، لأنه بما فيه من عنصر الناسـوت وهـو العنصـر المادى هو الذى تسبب فى نشوب هـذه الحلقـات فـى الأرجـل ، ومـن ثـم فهـو الذى يستطيع أن يحلها بما فيه من الطبيعة اللاهوتية.([4])

ثم إذا أصغينا إلى هذا النص المنسوب إلى أحد الدعاة الاسـماعيليين ، لربما اتضح الرمز السـينوى أتـم وضـوح وهـو الخـاص بالحلقـات فىالأرجـل يقول هذا الداعى :" واعلم أن النفوس الناطقة ، قبل مفارقة الشخص الإنسـانى غير محدودة بحدود العالم الجسمانى ، فهـى إذا رامـت مقصدهـا ، مـن جهـة جسمها المحدود ، طوت تلك المساحة قدما قدمـا الـى المكـان المقصـود ، واذا

([1]) ابن منصور اليمن، جعفر : كتاب (العالم والغلام) ضمن مجموعة أربع رسائل .... مرجع سابق ، ص ٣٥.

([2]) الوادعى، على بن حنظلة : رسالة (ضياء الحلوم ومصباح العلوم) ضمن مجموعة (أربع كتب حقانية) ص ٨٠.

([3]) المرجع السابق ص ٨٥ ن ٩٢ .

([4]) المرجع السابق ، ص ٩٧.

رامت التطلع بذاتها بلغت شرق الأرض وغربها ، وعلت الأفلاك بأجمعها بلازمان معدود ، فالعالم بأسره فى ضمن أفقها محصور ، مع كونها بالحصار الجسدانى فى هيئة المأسور، فكيف بها إذا حلت من العقال ،ولم يعقها عن التجريد رباط ولا شكال ، وتحولت من منازل عالم الأفعال ، إلى غرف عالم الأقوال ، ولحقت بالصافين المسبحين ، فى فسحة لاتضيق مع الملائكة المقدسين ، فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون"([1])

أما أن ابن سينا لم تكن حياته الواقعية مماثلة لما يمكن أن يتصور من انه كان متصوفا حقيقيا ، بل كان متصوفا عقليا ، فهذا أمر لايقبل فى ضوء ماكشف عنه من أنه من وصل إلى استيعاب أسرار الدعوة الاسماعيلية لم يعد بحاجة إلى اقامة الشريعة ، بل إن جميع الأوامر والنواهى الشرعية تصبح غير واردة فى حقه ، إذ الغاية من هذه الأوامر والنواهى إنما هو تعريف السالك طريقه إلى معرفة الحقيقة عملا ، وأن العلم يمكن أن يقوم مقامها بمعنى إذا وصل الإنسان إلى معرفة الحقيقة معرفة علمية فإن العمل بالشريعة لايعود ذا معنى ، إذ قد تحقق الهدف وهو الوصول إلى تلك الحقيقة.

فماذا يقول الإسماعيليون فى هذا الأمر؟ يقول أحد الدعاة الاسماعيليون :" وسرت مواد سائر العقول ، كل واحد منهم بواسطة من دونه إلى من يقابله ويماثله من الحدود الدينية، فى مرتبته ويشاكله ، حتى يكون نظير العقل العاشر ، ونور تأييده متصل بالمكاسر ، وقام فىالدور بالخفة بالعقل العدد التام ، وهذا الدور وأهله فىرتبة الكمال والتمام ، فأسقطت عنهم

([1]) المرجع السابق ، ص ٩٤.

التكاليف الظاهرة الجسمانية، فلم يكلفوا للطافتهم وصفائهم إلا العبادة الباطنة النفسانية ، كعبادة العقول المجردة القدسانية لشدة المشابهة والمشاكلة ، وحقيقة قرب المشاكلة من المشاكلة ، حتى كأنهم على الجملة ملائكة كاملة "(1)

والحق أن رحلة ابن سينا هذه ، كما صورها فى هذه القصة على أنه طائر من بين الطيور التى وقعت فى الأسر، ثم استطاعت التخلص منه، أقول ليست هذه الرحلة بعيدة عن نظرية الاتصال لدى ابن سينا والفارابى وإخوان الصفاء والاسماعيلية : ونظرية الاتصال هذه تعتمد على بعض المبادئ أهمها نظرية الفيض ، وفحوى هذه النظرية أنها نتيجة لتوليفة عجيبة استطاع أول القائلين بها وهو أفلوطين أن يجمع شتات بعض الأفكار من هنا ومن هناك ، وهى أفكار فلسفية دينية قديمة ، قد لايجمعها رباط فى بادئ الرأى ومع ذلك فقد استطاع أفلوطين أن يلائم بينها فى مهارة عجيبة ، حتى ظهرت فى صورة نظرية متكاملة تفسر شيئين فى آن واحد : الأول ، نشأة العالم بنوعيه: عالم الأنوار أو العالم العقلى ،وعالم الكون والفساد ، أو عالم ماتحت فلك القمر .

والشئ الثانى الذى تعالجه هذه النظرية هو المعرفة الإنسانية بهذين العالمين ، والشرفى منهما فى سلم المعرفة حتى يصل إلى الوصول إلى معرفة الخير المحض الموجود فى قمة الوجود ، والذى صدر عنه كلا العالمين صدورا فيضيا بطريقة تدريجية ، غير مباشرة ،وذلك عن طريق وسائط متدرجة من أعلى إلى أدنى .

---

(1) المرجع السابق : ص ٨٨.

والنظرية الثانية التى جاءت ضمن نظرية الاتصال هى نظرية الخير والشر ومحاولة تفسير وجودهما فى عالمنا هذا الذى نحيا فيه ، وقد كان لهذه النظرية أيضا دور كبير فى المذاهب الفلسفية والديانات القديمة، لاسيما الشرقية منها ، فكان الخير والشر يتمثلان عند أصحاب هذه الديانات والمذاهب الفلسفية فى النور والظلام فالنور هو الخير ، والظلام هو الشر .وقد جرت الديانات الفارسية القديمة على اعتبار النور والظلام مبدأين لوجود العالم ، بما فيه من خيروشر ، على اختلاف بين مذاهبها فى تفاصيل هذه النظرية.

وقد استطاع اصحاب نظرية الفيض فى المحيط الإسلامى ان يصلوا إلى حل كان له تأثير بعيد حتى عند بعض الفلاسفة الغربيين وهذا الحل هو أن الخير وجود والشر عدم .(1)

وقد ساهم فى اقامة نظرية الاتصال هذه ايضا ذلك التصور الفلكى القديم الذى كان يعتبر عالم الكواكب عالما حيا له عقول وأنفس وأجرام . واذا كانت الحركات التى تتم على الأرض (عالم الكون والفساد) هى حركات إما رأسية وإما أفقية ، فإن حركات الأفلاك وكواكبها حركات دائرية . والحركات الرأسية أو الأفقية أى الحركات المستقيمة حركات ناقصة دائما، إذ إن لها بداية ولها نهاية ،وبدايتها غير نهايتها ، أما الحركات الدائرية فهى حركات كاملة تامة ، إذ إن بدايتها هى نهايتها ،ومن ثم كان النظر الى عالم الأفلاك على أنه العالم الأسمى والأرقى ، على حين عالم الأرض هو العالم الكائن الفاسد، الأول هو العالم الأزلى الأبدى ، والثانى هو العالم الفانى ، مما ترتب

---

(1) Spinoza: Correspondance, English Translation by A. Wolf, Allen and Union, 1927, pp. 357, 358.

عليه أن بعض القدماء عبدوا الكاكب ، حتى وصلت هذه العبادة إلى بعض القبائل العربية .

وقد انتقلت نظرية القيض إلى العالم الإسلامى من خلال كتاب (أثولوجيا) أو (الربوبية) الذى نسب خطأ إلى أرسطو ، وقد جاءت هذه النظرية - كما سبق - ذات عناصر متعددة ، تجمع بين نزعات مختلفة ، ومبادئ فلسفية متنوعة ، وإذا ماأريد البحث عن أصول هذه النظرية ، فيمكن ردها إلى كل من أرسطو ،وأفلاطون ، وفيثاغورس ،والديانات الفارسية القديمة، والديانات الهندية ، والصابئة .

فأرسطو مثلا يقول : إن الواحد لايصدر عنه إلا واحد([1])، وافلاطون بل يقول بالنفس الكلية([2])، وكذلك الهندوس يقولون بالبراهمى أو الروح الكلى([3]) وهو الروح المنبث فى جميع أجزاء العالم الأعلى والأدنى ، أما فيثاغورس فإنه يقول بالواحد فىقمة الوجود ،ويفسر الوجود كله تفسيرا رياضيا.([4])

من هذا كله استطاع أفلوطين أن يربط الوجود بالمعرفة فى نظرية متكاملة من حيث البناء الفلسفى ، لاتخلو من مآخذ.

([1]) Leighton , Joseph A.: The Field of Philosophy, N.Y. London , 1930, p. 109.

([2]) Plato: On the Trial and Death of socrates, Lan Cooper Trans, (1 Thaca, N.Y., Cornell University Press, 1941) , pp. 49-77.

([3]) توملين : فلاسفة الشرق ، ترجمة عبدالحميد سليم ، القاهرة ، دار المعارف ، د. ت، ص١٧٨-١٨١.

([4]) مطر، أميرة : الفلسفة اليونانية ، القاهرة ، ١٩٦٨، ص ٧٠.

فالمبدع الأول ، أو الخير المحض ، يقف فى قمة الوجود ، أبدع العقل الأول عن طريق التفكير فى ذاته ، بدون حركة وبدون زمن ، لأنه فوق الحركة وفوق الزمن ، وتكررت العملية مع العقل الأول ، ففاض ماتحته فى سلسلة الوجود ، حتىوصل الى العالم السفلى.

ولما كانت النفس الإنسانية من فيض العالم العقلى ، فإنها من جنسه ، لكنها حينمااتصلت بالبدن ، فقدت القدرة على إدراك حقائق عالمها ، فكان لابد لها لكى تستطيع إدراك الأنوار العقلية من أن تتخلص من عوائق البدن المادية، عن طريق الزهد فى الطعام ، والتأمل والتفكير ، عندئذ تبدأ فى التدرج فى المعرفة ، فعليها أولا أن تبدأ بالتأمل فى النيرات ، وتمعن النظر فى جمالها وبهائها ، ثم تنتقل من كوكب إلى ماهو أرفع منه وأشد نورانية ، لأنه " إذا أردت أن تدرك العقل الأول والعالم الروحانى ، فتأمل نفسك ومافيها من الأدناس والأوساخ، وآثار النفس البهيمية ، فارحض نفسك عنها بطول الفكر ، وكثرة الاستغفار وتقليل المأكل والمشرب ... فتقوى بصيرتك حتى تنظر اليه وتتحدبه ،وتسرى جملتك فى جملته ، فإن الأمور التى ليست بأجرام لاتتمانع من أن يسرى الكل فى الكل ، ويتحد الكل بالكل".([1])

وهذه الوسائط من النيرات من شأنها أن تمد أيديها إلينا كى ترفعنا نحو الإله الأسمى([2]) ويؤكد أفلوطين على هذه المعرفة الإشرافية ، فيذكر هذا

([1]) بدوى، عبدالرحمن : أفلوطين عن العرب ، الفصل الثالث والعشرون من (أثولوجيا)، الكويت ، وكالة المطبوعات ، ١٩٧٧ ، ص ٢٢، وانظر : أحمد فؤاد الأهوانى ، المدارس الفلسفية ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٦٥، ص ١٠٧، ١٠٨.

([2]) J. A. Leighton: The Feild of Philosophy, Op. Cit., p. 126.

النص المشهور :" إنى ربماخلوت إلى نفس ، وخلعت بدنى ، وصرت كأنى جوهر بلا بدن ..."([1]).

والمعروف أن كتاب (أثولوجيا) قد ترجم فى عهد الكندى ، ترجمه له ابن ناعمة الحمصى ، وكان لهذا الكتاب أثره البعيد فى العالم الاسلامى ، فتأثر به إخوان الصفاء([2]) والفكر الاسماعيلي كله([3]). فلا تكاد ترى كتابا من كتب الاسماعيلية الا وهو يوظف هذه النظرية توظيفا يتفق مع نظريتهم فىالإمامة .

واذا ماتذكرنا أن الفارابى يشترط فى رئيس المدينة عدة شروط، أهمها وأخطرها " أن لابد لرئيس المدينة من أن يسمو إلى درجة العقل الفعال الذى يستمد منه الوحى والإلهام ،والعقل الفعال، كما نعلم ، أحد العقول العشرة المتصرفة فى الكون ، وهو أيضا نقطة الاتصال بين العبد وربه ،ومصدر الشرائع والقوانين الضرورية الخلقية والاجتماعية "([4]) اقول : إذا ماتذكرنا ذلك ، ذكرنا أيضا ماقاله ابن سينا عن المتولى لأمر المدينة ، ولكن مع شئ

([1]) بدوى ، عبدالرحمن : " .... عند العرب ، مرجع سابق ، ص ٢٢".

([2]) عمر الدسوقى : إخوان الصفاء ، ص ١٤١ - ١٤٣ ، وانظر ، رسائل أخوان الصفاء، تصحيح خير الدين الزركلى ، القاهرة ، المطبعة العربية ،١٩٢٨ ، ج ١ ، ص ٢٩ .

([3])الكرمانى، أحمد حميد الدين : راحة العقل ، تحقيق محمد كامل حسين وآخر ،القاهرة ، دار الفكر العربى ، ص ٤٢- ٤٣، وانظر : جعفر بن منصور اليمن : البيان لمباحث الإخوان ، تحقيق مصطفى غالب ، سلمية،سوريا ، ١٩٥٦ ، ج ١ ، ص ٦٣، ٦٤.

([4]) الفارابى : المدينة الفاضلة ص ٥٧، ٥٨ ، نقلا عن ابراهيم مدكور : فى الفلسفة الإسلامية ، منهج وتطبيقه ، القاهرة دار المعارف ، ط ٢ ، ج ١، ص ٧٢.

من الاضمار والغموض فعنده أن " ليس لكل ذى عقل أن يتولاها"([1]) أى يتولى رئاسة المدينة فمن ، ياترى ، هذا الذى يصلح لأن يتولى ، اذا لم يكن لكل ذى عقل أن يصلح لذلك ؟ . فالفارابى وابن سينا متفقان على أهم شرط ينبغى توافره فيمن يتولى الرئاسة ، وهو إنسان ذو عقل ، لكنه ذو عقل غير عادى ، أو بلغ من التفكير العقلى والتجرد من كل ماهو مادى ، درجة يستطيع بها الاتصال بالعقل الفعال ، أو يصل إلى درجة العقل الفعال نفسه الذى من شأنه إلهام غيره – طبقا لنظرية الفيض – لا أن يصل فقط إلى درجة تلقى الالهام من هذا العقل ، ومن هو الذى يستطيع ذلك ، أويمكنه الوصول إلى هذه الدرجة ؟.

ونظرة عجلى إلىتوظيف الإسماعيلية لنظرية الفيض ، يرينا أن إمامهم هو نفسه رئيس المدينة لدى الفارابى وابن سينا .

فعند الإسماعيلية أن الله أبدع العقل الأول الذى هو تام بالفعل ، ثم يتوسطه أبدع النفس ، وهو التالى ، ولما اشتاقت النفس الى كمالها احتاجت الى حركة ، فحدثت الأفلاك السماوية ، وتحركت حركة دورية ، بتدبير النفس، وحدثت الطبائع البسيطة بعدها ، وتحركت حركة استقامة ، بتدبير النفس أيضا ، فتركبت المركبات من المعادن والنبات والحيوان والإنسان ، واتصلت النفوس الجزئية بالأبدان ، وكان نوع الإنسان متميزا عن سائر الموجودات، باستعداده الخاص لفيض الأنوار ، وكان عالمه فى مقابل العالم كله ،وإذا كان فى العالم العلوى عقل ونفس كلى ، فوجب أن يكون فى هذا العالم عقل شخص هو كل ، وحكمه حكم الشخص الكامل البالغ ، وهو الناطق

([1]) ابن سينا : منطق المشرقيين ، مرجع سابق ، ص ٨ .

، وهو النبى وكذلك يجب أن يكون هناك نفس مشخصة هى كل أيضا ،وهى الأساس والوصى . وبما أن النفس الإنسانية الناطقة الكلية هى المتشخصة فىنفس الآدمى كما نطق بذلك إخوان الصفاء فى قصتهم الرمزية فى الفصل السابق ، فإنها يجب أن تدوم فى الجنس البشرى، ومن ثم فإنها هى التى ينبغى أن تسود ،أو يسود من هى متشخصة فيه ، وهو الإمام،ومن هنا ، فان الوصى هو أفضل من النبى .

ولما تحركت الأفلاك والطبائع بتحريك النفس والعقل ، كذلك تحركت الفوس والشرائع بتحريك النبى والوصى فى كل زمان دائرا على سبعة سبعة، حتى ينتهى الى الدور الأخير ، وطبعا ليس هو دور القرآن – على ماسبق أن رأينا – ويدخل زمان القيامة ، وترتفع التكاليف ، وتضمحل السنن والشرائع .(1)

وتوضح كتب دعاة الإسماعيلية كيف أن إمامهم لابد أن يصل إلى مرتبة العقل العاشر ، وهو العقل الفعال عندالفلاسفة الذى يشرف على ماتحت فلك القمر ، وهو واهب الصور ، فيقول أحدهم :" فتولى السابق (العقل الأول ويسميه الإسماعيلية العقل الفعال) بواسطة من دونه من العقول إمداد كل مقام من ناطق ووصى وإمام ، يختصه من بين أهل عصره وزمانه، حصته به، له يظهر المعجزات فى أوانه ، بما يبديه ، وبهم من الناطق الباهر على لسانه ،ويظهره من الحوادث بكشفه وبيانه ، وسرت مواد سائر العقول كل واحد

(1) الشهرستانى : الملل والنحل ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤.

منهم بواسطة من دونه إلى من يقابله ويماثله من الحدود الدينية فى مرتبته ويشاكله ، حتى يكون نظير العقل العاشر ".[1]

وهنا يجب ألا ننسى أن كلا من الفارابى وابن سينا يجعلان المعرفة الإنسانية تصل الى درجة يصبح فيها الانسان فى درجة العقل الفعال (العقل العاشر عند الفلاسفة). ويجب ألا ننسى أيضا قول ابن سينا السابق " جل جناب الحق عن أن يكون شريعة لكل وارد ، أو يطلع عليه إلا واحد بعد واحد " ويجب ألا ننسى كذلك أن ابن سينا - وهو طير - قد استطاع هو وحده أن يتلقى صفات ومعالم(الملك) فى المدينة ،ولذلك يطلب منه سائر الطيور أن يصف لهم - هو بالذات - ذلك (الملك) ويجب ألا ننسى أن ابن سينا نفسه يقول عن رئيس المدينة (اليس لكل ذى عقل أن يتولاها).

وإذا كان إخوان الصفاء بصفة خاصة ، ودعاة الإسماعيلية بصفة عامة قد استخدموا نظرية الفيض على هذا النحو، ومعهم الفارابى ، وابن سينا بطبيعة الحال ، فلماذا إذن التصقت هذه النظرية بالفارابى وابن سينا وحدهما ، خاصة على لسان ابن رشد الذى ينتقد أساس هذه النظرية،ونعنى بهذا الأساس هو (أن الواحد لايصدر عنه إلا واحد) إذ يقول " وأما الفلاسفة من أهل الإسلام ، كأبى نصر الفارابى ، وابن سينا . فلما سلموا لخصومهم أن الفاعل فى الغائب كالفاعل فى الشاهد ، وأن الفاعل الواحد لايكون عنه إلا مفعول

([1])الوادعى، على بن حنظلة المحفوظى : رسالة ضياء الحلوم ومصباح العلوم ، مرجع سباق ، ص ٨٨ .

واحد ، وكان الأول عندالجميع واحدا بسيطا ، عسر عليهم وجود الكثرة عنه ..."[1]

والجواب على ذلك سهل يسير ،وهو أن ابن رشد كان يرد على الغزالى الذى خص بحملته فىكتابه (تهافت الفلاسفة) هذين الفيلسوفين ،ولأن رسائل (إخوان الصفاء) لم تكن معروفة المؤلف أو المؤلفين ، بل لم تزل الآراء مختلفة حول من ألفها حتى عصرنا ،وكانت كتب الاسماعيلية الأخرى ماتزال طى الكتمان ،ولم تبدأ فى البوح بأسرارها إلا فى عصرنا ، أضف الى ذلك أن الحركات السرية دائما يكتنفها الغموض ، خاصة أن دعاة الإسماعيلية كانوا على درجة عالية من المهارة فى التكتم، فكانوا يلبسون لكل مجتمع زيه، ويجعلون أنفسهم أعضاء ضمن المجتمع الذى يبشارون فيه دعوتهم ، ويوافقون كل طائفة بما يوافق طبعها ومشربها واتجاهها، فتراهم بين المتصوفة متصوفين، وبين الفلاسفة متفلسفين ،وبين أهل الحديث محدثين، وبين الفقهاء متفقهين ،وبين أهل الخلاعة والمجون ومن لا يقيم للدين وزنا مشجعين ومؤيدين ... وهكذا .

ولايفوتنا هنا أن نقول : إن الاطلاع على ماقاله ابن سينا بشأن الاتصال بين النفس الانسانية والعقل الفعال يؤكد مانميل إليه،فهو وبعد حديثه عن المراحل التى يمر بها العقل الإنسانى ، وهى العقل الهيولانى ،والعقل بالملكة والعقل بالفعل ،والعقل المستفاد ، كما قرر فى كتاب (الشفاء)[2] ويتحدث بطريقة التأويل الباطنى ،وذلك فى الكتاب الذى يشير اليه على أنه

([1]) ابن رشد : تهافت التهافت ، تحقيق سليمان دنيا ، القاهرة ، دارالمعارف ، ص ٣٠ ، ٣٠٢.

([2]) ابن سينا : الشفاء ، الطبيعيات ، ٦ ، ص ٣٩، ٤٠.

هو الذى يمثل اتجاهه المشرقى أو الإشراقى ، وهو كتاب (الإشارات والتنبيهات) ، إذ يفرق بينه وبين كتاب (الشفاء) ، فالأول ماألفه إلا ليظهره لنفسه وخاصة المقربين إليه ، أما العامة من مزاولى الفلسفة ، فقد ألف لهم كتاب الشفاء ، وفيه حاجتهم ، بل أكثر من حاجتهم([1]). ولذلك يستخدم أسلوبا فى (الإشارات) غير أسلوبه فى (الشفاء) فهو فى الشفاء فلسفى مشائى خالص ، أما فى الإشارات ، فهو فلسفى دينى إشراقى سياسى .

وهاك البيان : وإن كان فى ذلك إعادة لبعض النصوص المنقولة عن ابن سينا ،وإن كانت هذه المرة بشئ من التحليل والمقارنة .

فقد تحدث عن المرحلة الأولى من مراحل العقل النظرى فى كتاب (الشفاء) وسماها بالعقل الهيولانى ، أما فى (الإشارات)، فيقول " هى قوة استعدادية لها نحو المعقولات ، قد يسميها قوم عقلا هيولانيا([2]) ، وهى المشكاة " والمرحلة الثانية " قوة أخرى تحصل لها (النفس) عند حصول المعقولات الأولى ، فتتهيأ بها لاكتساب الثوانى ، إما بالفكرة ، وهى الشجرة الزيتونه ، إن كانت ضعفى ، أو بالحدس ، فهى زيت أيضا ، إن كانت أقوى، فتسمى عقلا بالملكة، وهى الزجاجة الشريفة البالغة منها قوة قدسية ، يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار " والمرحلة الثالثة " هى أن هذه القوة يحصل لها بعد ذلك قوة وكمال ، أما الكمال ، فأن تحصل لها المعقولات بالفعل مشاهدة متمثلة فىالذهن ، وهى نور على نور ، أما القوة ، فأن يكون لها أن تحصل المعقول المكتسب المفرغ منه كالمشاهد ، متى شاءت من غيرافتقار

([1]) ابن سينا : منطق المشقيين ، مرجع سابق ن ص ٤ .

([2]) نلاحظ أنه ينفض يده من هذه التسمية فى الإشارات فهى لقوم أما هو فهو يسميها (المشكاة) التى وردت فى الآية الكريمة من سورة النور كما سبق .

إلى اكتساب ، وهو المصباح ،وهذ الكمال يسمى عقلا مستفادا، وهذه القوى تسمى عقلا بالفعل ، والذى يخرج من الملكة الى الفعل التام، ومن الهيولانى الى الملكة ، فهو العقل الفعال وهو النار"([1]).

والمعروف أن الآية الكريمة تتحدث عن الله عز وجل ، فتصفه بأنه نور السموات والأرض ، ثم تشبه نوره تعالى بنور مادى مضاعف قوى ، تدخلت عدة عوامل فى تقويته . لكن ابن سينا يقيم موازاة ومماثلة بين العالم الأعلى ، ونفس الانسان الناطقة ، بل قل إنه يجعل الأنوار العليا هى نفس الأنوار السفلى أو العكس فليس هناك موازاة أو مماثلة بل الأمر واحد، وهذا مافسره إخوان الصفاء فى القصة السابقة فى الفصل السابق ، من أن الآدمى هو صاحب النفس الكلية الملائكية الإنسانية .

وعلى أية حالة فإن هذه الموازاة أو المماثلة – على فرض أنها كذلك – هى نفسها التى يصطنعها الباطنية الاسماعيلية يقول أحدهم :" فكانت صورة الإنسان آخر المطبوعات ، فظهرت بأشرف الصفات ، وهى الصورة القائمةالمنتصبة بين الجنة والنار ،ومحل العقول والنفوس والأنوار ، فتسمى العالم الصغير ، الذى حوى معانى العالم الكبير ، ففيها سر الله الأعظم ، ونوره الأتم ،هىصراط الله االممدود ، ونوره الموقود".([2])

ويضيف باحث إسماعيلي محدث الى هذه الصورة مايجعل الموازاةوالمماثلة أكثر دقة وإحكاما . إذ يقول عن الإسماعيلية إنهم" بحثوا

([1]) ابن سينا : الإشارات ، القسم الثانى ، ص ٣٨٩-٣٩١.

([2]) المعدل، الداعى الشيخ حسن : معرفة النفس الناطقة والعلوم الغامضة ، ضمن مجموعة (أربع كتب حقانية)، مرجع سابق ، ص١١٨.

مراتب الموجودات ، وقابلوها فلسفيا مع مراتب الدعوة والدين ، فخرجوا منها بقاعدة ثابتة على الشكل التالى :

١- العقل الأول = الناطق = رتبة التنزيل .

٢- العقل الثانى = الأساس = رتبة التأويل .

٣- العقل الثالث = الإمام = رتبة الأمر .

٤- العقل الرابع = الباب = رتبة فصل الخطاب .

٥- العقل الخامس = الحجة = رتبة الحكم فيما كان حقا أوباطلا .

٦- العقل السادس = داعى البلاغ = رتبة الاحتجاج ، وتعريف المعاد.

٧- العقل السابع = الداعىالمطلق = تعريف الحدود العلوية ، والعبادة الباطنية .

٨- العقل الثامن = الداعى المحدود = تعريف الحدود السفلى والعبادة الظاهرة.

٩- العقل التاسع = المأذون المطلق = رتبة أخذ العهد والميثاق.

١٠- العقل العاشر = المأذون المحدود = المكاسر أو المطالب ليجذب الأنفس .([1])

وبناء علىذلك فإن اعتراض العلامة (جب) Gibb . على إظهار أى فيلسوف إسلامى، وخاصة ابن سينا ، بأنه متمذهب فى فلسفته بمذهب دينى

([1]) غالب، مصطفى : تاريخ الدعوة الاسماعيلية ، دمشق ، دار اليقظة العربية ، ١٩٥٣، ص ٤.

سياسى كالمذهب الاسماعيلي، أوالإثنى عشرى ، اعتراض يتسم بحسن النية إلى حد كبير.([1])

****

([1]) Gibb, R. : The B.S.O.S. , 1952 - XIV/3, pp. 498-499.

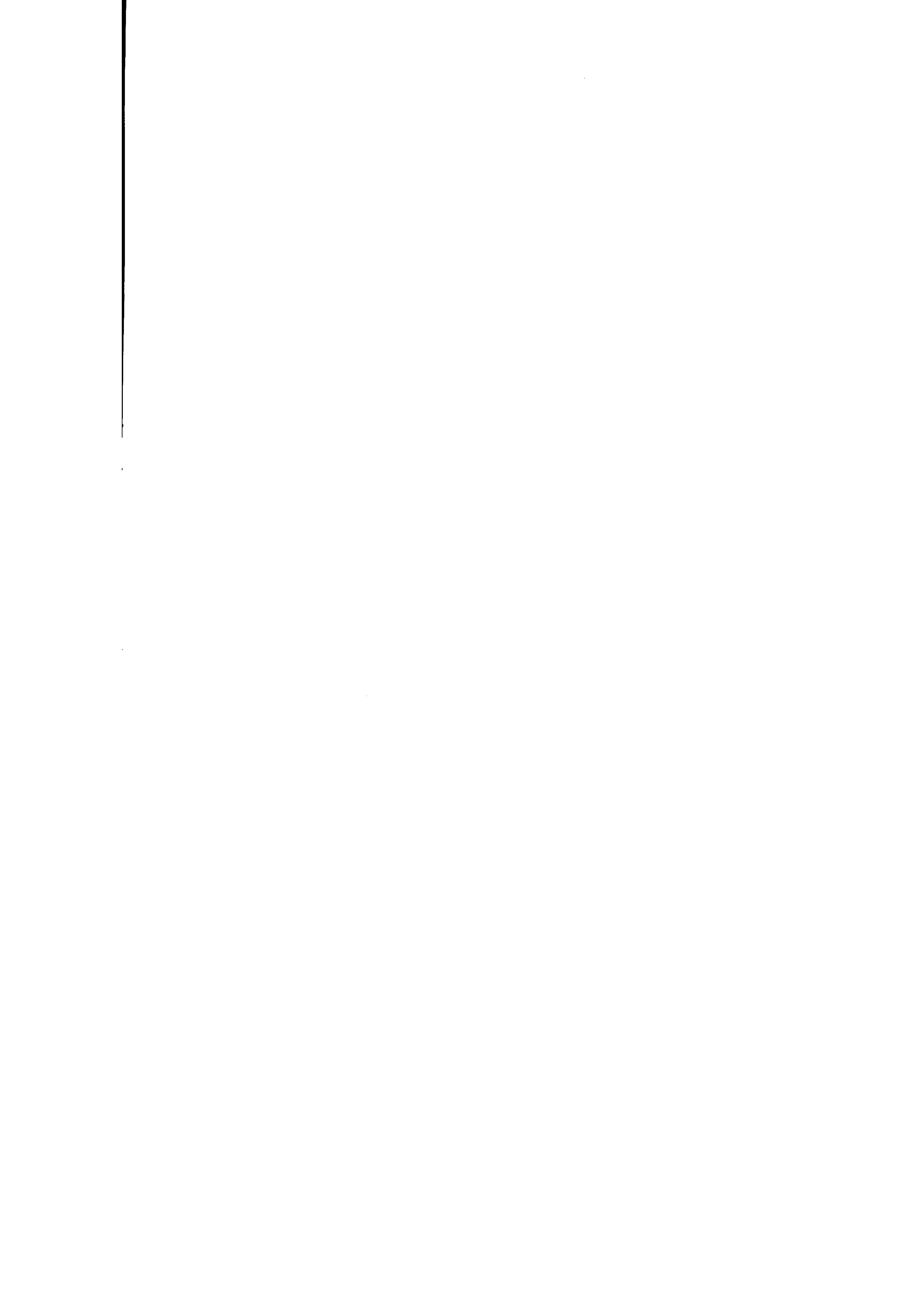
الفصــل الثالــث

رسالة الطيــر للغزالــى

١- التمهيد

٢- نص رسالة الطير للغزال

٣- التحليــل



رسالة الطير للغزالى

٤٥٠-٥٠٥هـ/١٠٥٨م - ١١١١م

(التمهيـــــد)

الامام محمد بن محمد ابن أحمد الغزالـى أو الغزالـى.([1]) ولـد بـاحدى مدن (خراسان) وهى مدينة (طوس)([2]) وتوفى والده وهو طفل ، وكـان قـد عهد بتربيته وأخيه أحمد الى أحد أصدقائه من الصوفيـة ،ولـم يـترك لهمـا إلا القليل من المال ، فتعهد الصديق الصوفى ولكـن سـرعان مـانفد ماتركـه لهمـا والدهما من مال - على ضآلته - فاعتمداه بعد الله ،على أنفسهما يحملان من كاتب كبير، وهمة عالية فى سبيل تلقى العلم ، وكان الغزالـى قـد تلقـى بعضـا من دروس اللغة العربية وعلم الفقه على بعـض شيوخ مدينتـه (طـوس). هـذا بالإضافـة الـى طـرف مـن علـوم الصوفيـة تخلقـا وسـلوكا نتيجـة تعهـد ذلـك الصوفى صديق والده . وكان من مشـايخه فىالفقـه واللغـة فـى طـوس الشـيخ أحمد بن محمد الرازكانى الطوسى .ولم يكد يقارب العشرين من عمره، حتـى سافر إلى (جرجان) حيث تتلمذ على الامام أبونصر الاسماعيلى ، ولم تعرف كم من الزمن قضـاه الغزالـى فىهذه المدينـة، غـير أنـه وهـو عـائد الـى بلـده

([1]) الغزالى بـدون تشـديد (الـزاى) نسـبة الـى قريـة مـن نواحـى طـوس اسـمها غزالـة ، والغزالى بتشديد الزاى نسبة الى صناعة غزل الصوف التى كانت حرفة والده .

([2]) لم يعد لهذه المدينة وجود فقد دمرها المغول عـام ٦١٧ هـ وكـان بهـا قبر علـى ابـن موسى الرضا ، وقبر هارون الرشيد ، وتقع بالقرب من مدينة مشهد الحالية فى إيران التى أنشئت فى القرن الثامن الهجرى .

طوس، خرج على القافلة بعض قطاع الطرق، فنهبوها ، ولما وصلوا إلى الغزالى لم يجدوا معر سوى (مخلاة) فيها بعض (التعاليق) التى كان قد كتبها أثناء تلقيه العلم على أستاذه أبى نصر الإسماعيلى ، فلما طلبها من اللصوص ، فسأله أحدهما عما فيه قال إن فيها بعض التعاليق العلمية التى حصلها من أستاذه فقال له ساخرا كيف تقول إنك حصلت العلم الذى فيها ثم تطلبها ،ثم أمر بإعطائها له . وقد نبهت هذه الحادثة ، وكلام هذا العيار إلى ضرورة حفظ كل مايحصله ، دون اكتفائه بالكتابة . وقال منشدا بعد أن حفظ كل مافيها أثناء مقامه فى بلده طوس طيلة ثلاث سنوات :

علمى معى حيثما يممت ينفعنى

قلبى وعاء له لا قلب صندوق

إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى

أو كنت فى السوق كان العلم فىالسوق

بعد هذه السنوات الثلاث ، خرج الغزالى قاصدا نيسابور سنة ٤٧٠هـ حيث التزام إمام الحرمين ابا المعالى الجوينى (ت ٤٧٨ه/١٠٨٥م) وقد أفاد منه علما غزيرا فى الكلام والفقه والفلسفة والمنطق، وكان الجوينى أستاذا فى المدرسة النظامية([1]) بنيسابور، وبعد وفاة هذا الأستاذ ، تولى الغزالى مكان التدريس فى نظامية نيسابور.

([1]) اسس الوزير نظام الملك وزير آل سلجوق فى عهد السلطان (ملك شاه عدة مدارس كلا منها تسمى النظامية فى نيسابور، وبغداد وبلخ ، وذلك لنشر المذهب السنى لكى يقاوم بذلك ، ماقام به الفاطميون فى القاهرة من تدريس المذهب الشيعى الإسماعيلى فى الأزهر.

وقد استطاع الغزالى التعرف إلى الوزير نظام الملك حيث ذهب إليه فى عسكره ، وناظر العلماء فى حضرته ، فبزهم وتفوق عليهم ، فأعجب به الوزير، وولاه التدريس فى نظامية بغداد سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٠م فكان ذلك سببا فى ذيوع صيته ، واشتهاره بالعلم الغزير.

وقد كانت فترة إقامته ببغداد فرصة له فألف كثيرا من الكتب وكان فى طليعة ماألفه ضد الباطنية : فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية([١])، والقسطاس المستقيم ،ومفصل الخلاف ،وغيرها من عناوين الكتب التى عثرنا عليها فى غضون مؤلفاته المعروفة ، دون أن يكون لها وجود حتى الآن.

كما كتب فى هذه المرحلة كتابه (تهافت الفلاسفة) الذى رد فيه على الفلاسفة غير أن الغزالى مالبث أن انتابته أزمة نفسية ، لعلها بسبب حيرته فى التماس الحق، وقد دامت قرابة الشهرين ، انتهت بحقل لسانه مما كان له أثر على صحته العامة ، وفى نهاية هذه الفترة الشكية ، غادر بغداد إلى دمشق حيث اقام مدة فى منارة مسجدها الجامع يؤلف ويتأمل ويتعبد ، ثم غادر دمشق إلى الحج، وعاد بعد ذلك إلى بيت المقدس ، حيث اعتكف متفرغا للتديس ،وقيل إنه قصد الإسكندرية ، وكان يعتزم الرحلة إلى أمير المغرب يوسف بن تشفين ، وإن كنا نستبعد ذلك لأن مصر كانت إذ تحت حكم الفاطميين ، ومن المعروف أنه سبق له أن هاجم مذهبهم فى كتبه التى خصصها للرد على الباطنية .

([١]) نسبة إلى المستظهر بالله الخليفة العباسى ، أنظر : عبدالرحمن بدوى :(مقدمة تحقق هذا الكتاب ، القاهرة ، دار المعارف ، ، ص ١٥٧

المهم أن الغزالى فى أثناء عزلته هذه ألف كتاب (إحياء علوم الديـن) وهو من أعظم كتبه فى التصوف ، وغير ذلـك مـن رسـائله الصوفيـة الكثيرة مثـل كيميـاء السـعادة ،والرسـالة اللدنيـة ، وخلاصـة التصـانيف فـى التصـوف ومنهاج العابدين .

كما أن له كتبا لم تكن للعامـة ، منهـا المضنـون بـه علـى غير أهلـه، والمضنون الصغير ، ومشكاة الأنوار .

ولعل من أعظم ماكتب الغزالى ذلك الكتاب الذى يعتـبر ترجمـة ذاتيـة له هو (المنقذ من الضلال). وهو ليـس ترجمـة ذاتيـة فـى الواقـع بقـدر مـاهو عبارة عن اعترافات تتحدث عن تطوره الفكرى بين مراحل حياته ، وفى نفس الوقت يعتبر نقدا دقيقا لكل مصادر المعرفة فى عصره عند مختلف المذاهب والاتجاهات الفكرية والسياسية .

وبعـد هـذه العزلـة التـى أنجـز فيهـا الغزالـى مـاأنجز ، عـاد إلـى بلـده طوس، منصرفا الى تعليم المحيطين به والى العبـادة ، غير أنـه تحـت إلحـاح من الوزير الذى أصبح ابـن نظـام الملـك ، قـام بـالتدريس لبعـض الوقـت فـى نظامية نيسابور ، ثم عاد إلى الخلـود والراحلـة إلـى بلـده طـوس مـرة أخـرى حيـث أنشـأ مدرسـة للفقهـاء وخانقـاه للصوفيـة([1]) إلـى أن توفـى سـنة ٥٠٥هـ/١١١١م.

والحق أن عصر الغزالى ، وخاصة النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى – وهـو الفـترة التـى عاشـها – كـانت بمثابـة صـراع سياسـى فكـرى مذهبى وحـدا فـاصلا بيـن وصـول الحضـارة الإسـلامية إلـى أوجهـا ، وبدايـة

([1]) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، القاهرة ، مطبعة بولاق ١٢٢٩هـ ، ج ١ ، ص ٥٨٧.

لتغيرات سياسية واجتماعية شكلت – فى الواقع – المراحل التى تلت هذه الفترة ، وطبعتها بطابع سيظل يعمل عمله حتىمطلع العصور الحديثة .

ففى عصر الغزالى كان للعالم الإسلامى ثلاثة خلفاء : الخليفة العباسى فى بغداد ، والخليفة الفاطمى فى مصر ، وورثة الخلافة الأموية فى الأندلس .

أما الخليفة العباسى ، فلم يعد له من سلطان سوى أن يدعو الخطباء على المنابر ، وتضرب السكة باسمه ، وماعدا ذلك ، فقد توزعت السلطات بين أمراء فى أقاليم الدولة ، ليس لهم من شأن سوى النزاع فيما بينهم ، من أجل التغلب والسيطرة ، فالسامانيون ، والبويهيون ، والأتراك السلاجقة ، وكان وراء كل فريق أيديولوجيته ، فالسامانيون والسلاجقة ستة ، والبويهيون شيعة اثنا عشرية ، وخلال الأقاليم التى يسيطر عليها هؤلاء نسيج من الدعاة الإسماعيليين الفاطميين السريين الذى يعملون على نشر مبادئهم وعقائدهم التى كانت فى واقع الأمر على النقيض من كل من مبادئ السنة والشيعة الإثنى عشرية . ولعل استيلاء (البساسيرى) على بغداد فترة وجيزة على الشئوى فى بغداد داعيا باسم الخليفة الفاطمى فى مصر كان يمثل قمة الصراع ، بين هذه التيارات السياسية والاجتماعية المتنازعة ، ويكفى شاهدا على نتيجة هذا الصراع المدمر ، ماحدث عندما جاء الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام ، أن ذهب وفد من رجال الشام إلى بغداد للاستنجاد بعاصمة الدولة الإسلامية حينئذ ، فذهبوا إلى قصر الخليفة ، فلم يقابلهم أحد وذهبوا إلى قصر السلطان ، فلم يعرهم أحد انتباها ، وهكذا حتى إذا جاء موعد صلاة الجمعة التالية ، فما كان من هؤلاء الوفود الشامية إلا أن ذهبوا إلى المسجد الجامع فى بغداد ، فحطموا المنبر وعاثوا جنبات المسجد ، ومنعوا الناس من

الصلاة تعبيرا عن سخطهم على الأوضاع المتردية فى عاصمة الدولة ، وعدم الاهتمام بأمور المسلمين ، والأخطار المحدقة بالعالم الإسلامى ، إزاء هذا الخطر الصليبى المحدق.

ولم يمض غير قرن ونصف بعد وفاة الإمام الغزالى ، حتى اجتاح التتار جميع أرجاء الدولة العباسية ، وذبحوا آخر خليفة عباسى ، ودمروا بغداد سنة ٦٥٦هـ ووصل المد التتارى إلى بلاد الشام فاحتلوها . ولم يردهم عن غيهم سوى قادة الدولة المملوكية فى مصر ، وذلك فى موقعة عين جالوت بأحد سهول فلسطين .

فى هذا الخضم كانت حياة الغزالى الذى شارك فى بعض أحداثها بقدر ماأسعفته امكاناته من الوجهة الفكرية ، والسياسية .

وقد تمثل ذلك فيما كتبه عن الباطنية – وقد سبقت الإشارة اليه – خاصة أن الوزير نظام الملك كان منخرطا فىصراع عسكرى مع الحسن الصباح الذى استولى على قلعة (الموت) وأعلن المذهب الاسماعيلى النزارى الذى طرح فيه الظاهر كلية وأخذ بالباطن أخذا تاما .

ولعل الغزالى فى سعيه إلى تحديد منهج التأويل الذى ينبغى أن يأخذ به المؤول للقرآن كان بمثابة الرد الحاسم على هذا التيار الاسماعيلى النزارى لدى الحسن الصباح.

فإنه – وإن وقف من المفسرين الواقفين عند حدود الظاهر فقط موقفا معارضا – ذهب إلى أن الأخذ بالمعانى الخفية الباطنة للقرآن ينبغى أن يكون ملتزما بقواعد محددة لايتجاوزها، وإلا أصبح من أولئك الباحثين الذين جعلوا القرآن مستباحا أمام أهوائهم.

يقول بالنسبة للواقفين عند المعنى الظاهر فقط :" فاعلم أن من زعم ألا معنى للقرآن إلا ماترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حدنفسه ،وهو مصيب فى الإخبار عن حد نفسه ، ولكنه مخطئ فى رد الخلق كافة إلى درجته التى هى حده ومحطه ، بل الأخبار والآثار تدل على أن فى معانى القرآن متسعا لأرباب الفهم "([1]).

أما ماورد من النهى من التفسير بالرأى، فإنه ذلك مقصود به هؤلاء الذين ينجرون إلى التفسير برأى يعبر عن ميله من جهة هواه وطبعه ،وذلك إما أنه يعلم فساد ماذهب غليه ، كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته ، وإما لجهله فيتردد بين الراجح والمرجوح ثم يميل المرجوح لموافقته غرضه ، وإما أن يكون للمفسر غرض صحيح ، فيؤول الآية للاحتجاج على غرضه مع أنه يعلم أنه ماأريد بالآية ذلك ، كمن يدعو إلى مجاهد القلب القاسى ، فيقول : قال تعالى :" **إذهب إلى فرعون إنه طغى** " مشيرا إلى أن المراد بفرعون هو القلب .وهذا النوع قد تستعمله الوعاظ فى المقاصد الصحيحة ، تحسينا للكلام ، وترغيبا للمستمع ، مع أن ذلك ممنوع. وقد تستعمله الباطنية فى المقاصد الفاسدة لتعزيز أناس ، ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل، فينزلون القرآن على وفق رايهم وهواهم علىأمور يعلمون قطعا أنها غير مرادة به"([2]).

وأحيانا يجنح المفسر إلى تفسير القرآن بظاهر العربية ، من غير استظهار بالسماع والنقل ، فيمايتعلق بغرائب القرى، ومافيه من الألفاظ

([1]) الغزالى : احياء علوم الدين ، القاهرة ، المطبعة العثمانية ، ط ١ ، ١٩٣٣م، ج١، ص ٢٦٠.

([2]) المرجع السابق ، ص ٢٦١، ٢٦٢.

المبهمة، والمبدلة ،ومافيه من الاختصار والحذف والاضمار والتقديم والتأخير. ومن ثم فإنه يصبح من زمرة الذين يفسرون القرآن المنهى عنه.(1)

أما شرط صرف اللفظ عن ظاهره ، عند إرادة تأويله ، فيشترط أن يكون ثمة دليل على أن اللفظ أريد به غير ظاهرة. ولذلك فإن " التأويل عبارة عن اخلال يقصده دليل يسير به أغلب على الظن من المعنى الذى يدل عليه الظاهر، ويشبه أن يكون كل تأويل صرفا للفظ عن الحقيقة إلى المجاز، وكذلك تخصيص العموم ، برد اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز .. إلا أن الاحتمال تارة يقرب ، وتارة يبعد ، فإن قرب، كفى فى إثباته دليل قريب... وإن كان بعيدا ، افتقر إلى دليل قوى يجبر بعده ، حتى يكون ركوب ذلك الاحتمال البعيد أغلب علىالظن من مخالفة ذلك الدليل، وقد يكون ذلك الدليل قرينة ، وقد يكون قياسا ،وقد يكون ظاهر آخر أقوى منه".(2)

بهذا القانون فى التأويل وضع الغزالى الباطنية خارج إطار الشرعية الدينية ،وبالتالى خارج إطار الشرعية السياسية ، ومن هنا كان بمثابة الجهاز الإعلامى للسلطة التى يتبعها على نحوماسبقت الإشارة إليه، كما يضع الغزالى الأساس الفكرى الدينى للتعامل مع النص القرآنى ، تثبيتا لمذهب أهل السنة والجماعة الذى يعتنقه السلاجقة فى ظل الخليفة المستظهر بالله العباسى ولذلك لم يكن من المستغرب أن يسمى كتابه الرئيسى فى الرد على الباطنية "فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية " ولذلك يؤكده القانون السابق فى هذا الكتاب أيضا إذ يقول " فإن لنا معيارا فى التأويل، وهو أن مادل نظر العقل

---

(1) المرجع السابق ، ص ٢٦٣.

(2) الغزالى : المستصفى من علم الأصول ، القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٣٢٢هـ ، ج ، ص ٣٨٧، ٣٨٨.

ودليله على بطلان ظاهره ، علمنا ضرورة أن المـراد غير ذلـك ، بشـرط أن يكون اللفظ مناسبا له بطريق التجوز والاستعارة "([1]).

ولم يكتف الغزالى بذلك ، بل أنه وضع رسالة على درجـة عاليـة من الأهمية فى هذا المجال ، وهى (قـانون التـأويل)([2]) وليـس هنـا مجـال لبيـان محتويات الرسالة بالرغم من أهميتها .

والذى يهمنا هنا هو الحديث عن هذا الرمـز القصصـى الـذى سـطره الغزالى فى رسـالته الموجـزة علـى أهميتهـا وهـى (رسـالة الطـير)([3]) . إنهـا

([1]) الغزالى : فضائح الباطنية ، مرجع سابق ، ص ٥٣.

([2]) انظر الغزالى : قانون التأويل ، القاهرة ، مكتبة الجندى ، د . ت .

([3]) جاء فى فهرس كتاب مؤلفات الغزالى للدكتور عبدالرحمن بدوى أربعة عناوين لرسالة (الطير) للغزالى هى : رسالة الطير تحت رقم ١٨٩ ، رسالة الطير فى الرد على من طغى تحت رقم ١٩٩ ، رسالة الطير من انشاء الغزالى تحت رقم ٧٥ ، الرسالة الطيرية تحت رقم ٧٥.

وبالرجوع الـى رقـم ١٨٩ فـى صلـب الكتـاب ، وجـد أن هـذا الرقـم هـو لرسـالة أخـرى للغزالى هى :(رسالة فى الحدود) ، وبالرجوع الى رقم : ١٩٩ وجد فعلا أن الرقم يحمل نفس العنـوان غير أن الدكتـور بـدوى يذهـب مـع المرتضـى وبويـج الـى أن هـذا العنـوان هولرسالتين وليس لرسالة واحدة هما : رسالة الطير ، والرد علـى مـن طغـى . أمـا الرقـم ٧٥ وهو من المفروض أنه خاص بالعنوانين الإخيرين (رسالة الطير من إنشاء الغزالى) و (الرسالة الطبرية). فلم يوجـد فـى متـن الكتـاب تحـت هـذا الرقـم إلا عنـوان (رسـالة الطير). والمعروف فى كتاب الدكتور بدوى ، أن الكتب أو الرسائل من رقـم ٧٣ إلـى ٩٥ والتى تشمل القسم الثانى من الكتاب ،هى كتب يدور الشك فى صحة نسبتها إلى الغزالى . ويعتمد الدكتور بدوى فى شكه هذا علىمايذهب إليه بويج من نفس الشـك، وإن كـان هـذا الإخير يضيف أنه لو صحت نسبة الرسالة للغزالى فيجب أن تكـون مـن عهد متـأخر فـى حياة الغزالى . على حين يذهب جاردنر إلى أنه من المحتمل أن تكون فى عهـد مبكـر مـن

لاشك تختلف عن (رسالة الطير) لدى ابن سينا ، فى مبناها ومعناها . فهى تمثل المرحلة النهاية من حياة الغزالى . مرحلة (التصوف) أو مرحلة السلوك إلى الله .

وقد يظن البعض مما قلناه (المرحلة النهائية) أن ذلك يعبر عن مرحلة زمنية من حياة الغزالى ، فالمطلع على تاريخ هذه الحياة وتسلسلها: يرى أن هذه المرحلة قد استغرقت حياته كلها ، من أولها إلى آخرها ،وإن بدت للوهلة الأولى أنها كانت خاتمة المطاف فى حياة الغزالى ، وللتذكير، ينبغى الالتفات إلى أن الغزالى تفتحت عيناه على بيئة صوفية ، يوم أن عهد والده لهذا الصوفى الرقيق الحال بتربية ولديه : محمد ، وأحمد ، ويوم نفاذ هذاالمال الضئيل ، فاعتمد الطفلان على الله ،ولم يصرفهما العوز عن السعى إلى تحصيل العلم ، وأصبح بعد ذلك ملء سمع العالم وبصره ، ولكنه مع ذلك ، يرفض مايصبو إليه كل متطلع إلى العرض الزائل -- وهو فى يده – ليسلك طريق الله وعلوم الآخرة. إن التصوف معه منذ أن كان حدثا ،والمتصوف الحق هو الذى يسعى للوصول إلى الحقيقة " وقد كان التعطش

حياة الغزالى . أما السبكى وحاجى خليفة والمرتضى فإنهم ينسبونها إلى الغزالى . ثم يورد الدكتور بدوى عنوانا مماثلا بالفارسية منسوبا إلى أحمد الغزالى ويورد سطرا من أول الرسالة دون أن يوضح ماإذا كان هذا النص الفارسى هو النص العربى الذى نشره شيخو ضمن مجموعة (رسالة لقدماء الفلاسفة العرب " أم لا ، كما أنه لم يفعل نفس الشئ مع النص العربى أيضا الذى نشره محيى الدين صبرى الكردى بالقاهرة مرتين الأولى ضمن مجموعة بعنوان (رسائل)، والثانية ضمن مجموعة (الجواهر الغوالى من رسائل الإمام حجة الإسلام الغزالى) ويذكر الدكتور بدوى أن هذه الرسالة ترجمها الدكتور نبيه أمين فارس إلى الانجليزية فى مجلة Moslem World ، ج ٣٤ ، سنة ١٩٤٤ ، ص ٤٦-٥٣ . أنظر : عبدالرحمن بدوى : مؤلفات الغزالى ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، ١٩٧٧.

إلى درك حقائق الأمور دأبـي وديدنـي ، مـن أول أمـرى ، وريعـان عمـرى ، غريزة ، وفطرة من الله ،وضعتـا فـي جبلتـي ، لا باختيـارى وحيلتـي ، حتـى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة ، على قرب عهد سن الصبا ، إذ رأيت صبيان النصارى لايكـون لهـم نشـوء إلا علـى التنصـر ،وصبيان اليهود لا نشوء إلا على التهود ،وصبيان المسلمين لانشـوء لهـم إلا على الإسلام".([1])

ومن هنا كانت مشاركته فيالحياة الفكرية والسياسية لا من أجل نصـر فئة على فئـة لمجـرد تشيعه لهـذه الفقـه أو تلـك ، بـل بسـبب قناعتـه بـأن مـن يناصره إنما هو علـى الحـق ، ومـن يناصبـه العداء والحـرب إنمـا هـو علـى الباطل، ولذلك نـراه يقـول :" وأن تتجلـى اسـار الملكوت لقـوم إلههم هوأهـم، ومعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهـم دراهمهـم ودنـانيرهم ،وشـريعتهم رعونتهـم ، وإرادتهم جاههم وشهواتهم ، وعبادتهم خدتهـم أغنيـاءهم ... فهـؤلاء مـن أيـن تتميز لهم طاعة الكفر من ضياء الإيمان ، أبإلهام إلهى ؟ ولم يفرغـوا القلـوب عن كدرات الدنيا لقبولها ؟ أم لكمال علمى، وإنما بضـاعتهم فـى العلـم مسألة النجاسة وماء الزعفران ؟".([2])

فالتصوف فى نظـر الغزالـى ليـس انسـحابا مـن الحيـاة ، وليـس حالـة سـلبية تعـترى السـالك فيدير ظهـره للدنيـا، وإنمـا التصـوف مغـامرة يخـوض الصوفى غمارها فى سبيل الوصـول إلـى الحقيقـة العظمـى، والهـدف النهـائى الذى يصبح فيه صاحب معرفة يقينية بأنه على الحق، ومن ثـم فقد اسـتغرقت

([1]) الغزالى: المنقذ من الضلال ، القاهرة ، مكتبة الجندى ، ص١٣

([2]) الغزالـى : فيصـل التفرقـة ، ضمـن مجموعـة (القصـور العوالـى مـن رسـائل الامـام الغزالى) القاهرة ، مكتبة الجندى ، د . ت ، ص ١٤٥ ،١٤٦.

تجربته المعرفية كل عمرة " ولم أنزل فى عنفوان شبابى – منذ راهقت البلوغ – إلى الآن ،وقد أناف السن على الحسين ، افتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لاخوض الجبان الجذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة، وأقتحم كل ورطه ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ،ومتسنن ومبتدع"(١).

ومن هنا وجدنا الغزالى متكلما ، وفيلسوفا ، وعالما فىالنفس الإنسانية وأصوليا، وصوفيا . ومن حيث علم الكلام فهو متكلم أشعرى ، والأشاعرة كما هو معروف أقرب المذاهب الكلامية إلى مذهب المتصوفة الذين يرون أن الفعل كله إنما هو لله ،وإن حاولو عن طريق زعيمهم أبو الحسن الأشعرى تبرير الحساب والثواب والعقاب بما جاء به من نظرية الكسب .

وفى مجال التصوف ينبغى أن نعى أن الغزال الذى عاش فىالنصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، قد سبقه القرنان الثالث والرابع والنصف الأول من القرن الخامس. فبالنسبة للقرنين الثالث والرابع، فى حركة التصوف قد أخذت اتجاهين : الأول التصوف السنى والثانى التصوف الفلسفى . وقد مثل الاتجاه الأول المحاسبى والخبير وغيرها ، والثانى يمثله البسطامى والحلاج . أما النصف الأول من القرن الخامس ، فقد بدأ التصوف الفلسفى يؤول إلى نوع من البيات، بينما بدأ التصوف السنى فى الانتعاش والانتشار على بدنى القشيرى والهروى . ومن ثم فقد جاء الغزالى ليسير بالتصوف السنى على طريق مطروق ، غير أنه خطابه خطوات بعيده .

---

(١) الغزالى : المنقذ من الضلال ، مرجع سابق ، ص ١٢.

ويعلل بعض الباحثين لظاهرة ضمور التصوف الفلسفى ، وازدهار التصوف السنى فى القرن الخامس إلى غلبة الاتجاه السنى وخاصة انتشار مذهب الأشاعره.([1])

وينبغى أن تلف الأنظارهنا الى طبيعة كتب الغزالى الصوفية ، فهى لاشك لمن يقرأها قراءة متسرعة ، دون أن يفطن إلى منهج الرجل ، قد تعتريه بعض الشكوك مسلكه من حيث وقوعه فى بعض التناقضات، غير أننا إذا ماكان لنا أن نتأتى فى اصدار الأحكام . ويتجنب شيئا من التسرع والمجازفة أمكننا أن نتبين ان الغزالى لم يكن بهذه المثابة أبدا .

فالمفكر الإسلامى ينبغى أن يتضمن عدة مستويات ،وذلك تمشيا مع طبيعة البشر الذين لم يكونوا ولن يكونوا ذوى مستوى واحد .وإزاء هذا الموقف نجده يحاول تنقية هذا الفكر من آراء قد تمس العقيدة الإسلامية فى جذورها مثل مذهب الباطنية القائلين بضرورة الأخذ من الإمام المعصوم، وكذلك من بعض الآراء الفلسفية التى تتعارض مع هذه العقيدة ، كما تمثل ذلك فى حملته المشهورية على الفلاسفة ،اما علم الكلام ، فقد كانت حملته عليه ليست حملة من أجل رفضه رفضا كليا ، بل كانت حملة نقدية ذات شقين الأول : يتمثل فى اعتماد أصحابه على مقدمات غير يقينيه([2]) والثانى يتمثل فى أن هذا العالم لايناسب عقليات الجمهور الأعظم من عامة المسلمين ولذلك ألف لهذا الغرض كتابة (ألجام العوام عن علم الكلام) ولذلك يقول فيه " وأردت أن أشرح لك اعتقاد السلف ، وأن أبين مايجب على عدم الخلق أن

([1]) التفتازانى، أبو الوفا الغنيمى : مدخل إلى التصوف الإسلامى ، القاهرة، دار الثقافة ، ١٩٨٣ ، ص ١٣٥ .

([2]) الغزالى : المنقذ من الضلال ، مرجع سابق ، ص ١٥.

يعتقدوه فى هذه الأخبار (الموهمة للتشبيه) وأكشف فيه الغطاء عن الحق، وأميز مايجب ابحث عنه ، عما يجب الإمساك والكف عن الخوض فيه"([1]).

فالغزال لم يكن وهو يكتب فى أى فرع من فروع العلم بمعزل عن قارئه، بل إنه كان يشعر أنه لايكتب إلى طائفة مخصوصة ، بل إلى عامة جماهير الإسلام . وهذا المنهج قد طبقه فى جميع ماكتب فيه .

فإذا كان قد كفر الفلاسفة فى ثلاث مسائل وبدعهم فى الباقى ، فإنه قد أدرك أن بعض فروع الفلسفة لاغنى عنها لتثقيف العلماء ،والإفادة منهما فالمنطق وهو أحد العلوم الفلسفية ، قد أعجب به أيما إعجاب ، ومن ثم فإنه بالرغم من أنه قد حذر منه فى كتابه المنقذ([2]) فخانه أن يفهم القارئ من دقة مقاييسه أن الفلاسفة يطبقون هذه المقاييس فى باقى علومهم لاسيما العلم الالهى. أقول بالرغم من ذلك ، فإنه يعتبر المسئول عن الدعوة إلى اتحاذ هذا المنطق منهجا للتفكير لدى علماء المسلمين ،وذلك فى مجالين مجال الرد على الباطنية فى كتابه (القسطاس المستقيم) حيث غير أسماء الأشكال الأربعة للقياس ، وسماها (الموازين) ، بل الأكثر من ذلك أن نسب وضع هذه الموازين إلى الله ، ونسب تعليمه إلى جبريل ، ونسب استخدامه إلى إبراهيم الخليل ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم وسائر النبيين([3])، بل لاشك أنه أخذ بالفروع الفلسفية الأخرى عدا العلم الإلهى ومسالة قدم العالم من العلم ،وذلك

([1]) الغزالى : الجام العوام عن علم الكلام ، ضمن مجموعة القصور العوالى ، مرجع سابق ، ص ٢٣٩.

([2]) الغزالى : المنقذ ، مرجع سابق ، ص

([3]) الغزالى : القسطاطس المستقيم ، ضمن مجموعة القصور العوالى ، مرجع سابق ، ص ١٨.

يتضح من كثير من كتبه ،سواء التى استخدمها فـى شـرح تهـافت الفلاسـفة أو غيرها . ولذلك فإن حملته على الفلسفة فى عمومها بحاجة إلى إعادة النظـر ، ليتبين من خلالها أنه كان يعنى بهذا الهجوم هومايخص التعارض مـن العقيـدة الإسلامية فقط أما سائر الفـروع الفلسـفية مـن باطنيـه وطبيعيـة وغيرهمـا فقـد كانت سلاحه فى عرض أفكاره .

أما المجال الثانى الذى استخدم فيه هذا المنطق ، فقد جاء فى معرض حديثه عن المتصوفة لابد أن يتسلحوا بشيئين : العلم والعمل ، وقد وضـع فـى الأول كتابا سماه (معيار العلم) وفى الثانى كتابا آخر سماه (معيـار العمـل) والأول هو المنطق بجميع مسائله من تصورات وتصديقات ، حيث يقول فيه " إعلم وتحقق أيها المقصور على درك العلوم حرصه وارادتـه ، الممـدود نحـو أسرار الحقـائق العقليـة همتـه ، المصـروف عـن زخـارف الدنيـا ونيـل لذاتهـا الحقيرة سـعيه وكـده ، الموقـوف علـى درك السـعادة بـالعلم والعبـادة جـده وجهده"([1]).

وهكذا نجد أن الغزالى يخاطب الجماهير بما يوافقها ويلائمها .

وكذلـك كـان منهجـه فـى عـرض قضايـا التصـوف وهوالاتجـاه الـذى ارتضاه لنفسه منهج حياة منذ بدايـة تلـك الحيـاة حتـى نهايتهـا ، فهـو يـرى أن الحياة الصوفية ، ليست ذات مستوى واحـد ، بـل هـى عدة مسـتويات ، تبـدأ بعدم الوقوف عند اشكال العبادة التقليدية بمعنى ، أن هو الانسان المسلم بوجـه عام ، لاينبغى له أن يقف عند حدود الرسوم الفقهية ، فيكون همه فقط اسـتيفاء

([1]) الغـــــزالى : معيار العلم ، تحقيق سليمان دنيا ، القـاهرة ، دار المعـارف ، ط ٢، ص ٥٩.

الأركان فىالصلاة أو الزكاة أو الصيام أو الحج ، ومجرد مراعاة مايبطل تلك العبادة ، ومايصحها كما تقول بذلك قواعد الفقه،بل إن من يقصرهن على ذلك يكون بمثابة من يحتج إلى القشر دون اللباب، إذ لابد من تعمق هذه العبادات إلى ماوراء الظواهر التى تقتضيها الأحكام الفقهية،وهل كتاب إحياء علوم الدين كان موظفا لهذه الغاية أى بيان ماينبغى للإنسان المسلم أن يتبينه من معانى العبادة، فقد قسم الكتاب قسمين ، وكل قسم مقسم قسمين آخرين أى أن الأقسام الحقيقية للكتاب أربعة أرباع أربع العبادات ويبدأه بكتاب العلم إذ العمل لابد أن ينبنى على العالم فلا تصح العبادة بلا أساس علمى ويتمثل ذلك فىالإيمان ،والربع الثانى هو ربع العادات وقد بدأه بكتاب الأكل،والربع الثالث ربع المهلكات ، وقد بدأه بكتاب شرح عجائب القلب ، وربع النجيات، قد بدأه بكتاب التوبة .

وقد جاء تحت كل ربع من هذه الأرباع عشرة كتب ، فصار مجموع كتب الكتاب أو أبوابه أربعين كتابا .

أما الكتب الصوفية التى قصد بها الغزالى أوساط الصوفية ، فإنها كثيرة مابين كتاب ورسالة منها كتاب (معارج القدس فى مدارج معرفة النفس)وكتاب (كيمياء السعادة) وغيرهما .

والمستوى الثالث تصوف الغزالى هو ذلك المستوى الذى أودعه كتبه التى لايصح أن يطلع عليها إلا من وصل فى مراحل الطريق الصوفى الىمداه ويمثله كتاب (مشكاة الأنوار)، (والمضنون به على غير أهله) ، و(المضنون الصغير)، وغيرها مما لايجب الغزالى أن يطلع عليه إلا أناس معينون وصلوا الى درجة من التجرد والكشف مالم يخط به غيرهم . وهذا النوع الأخير هو الذى عناه الغزالى فى مقدمة كتابه (مشكاة الأنوار) حينما

توجه للسائل الذى سأله أن يكشف له أن يبث إليه أسرار الأنوار الإلهية فقال:" لقد ارتقيت بسؤالك مرتقى صعبا ، تنخفض دون أعاليه مرامى أعين الناظرين ، وقرعت بابا مغلقا لاينفتح الا للعلماء الراسخين ، ثم ليس كل سر يكشف ويفشى ، ولا كل حقيقة تعرض وتجلى ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار ، ولقد قال بعض العارفين : إفضاء سر الربوبية كفر ، بل قال سيد الأولين والآخرين (إن من العلم كهيئة المكنون، يعلمه العلماء بالله ، فإذا نطقوا به ، لم ينكره عليهم إلا أهل الاغترار بالله) ومهما كثر أهل الاغترار بالله ، وحبف حفظ الأسرار عن وجه الأشرار" ([1])

ولذلك يرى الغزال أن الكثيرين ممن سلكوا الىالطريق إلى قد يسقطون صرعى الجبروت ،ولايتحملون هذا الموقف الرهيب فتزل ألسنتهم بكلام فى حالة السكر والغيبة ، ومن ثم فإنهم يقدرون ولذلك يقول" العارفون بعدالعروج إلى سماء الحقيقة اتفقوا على أنهم لم يروا فىالوجود إلا الواحد الحق لكن منهم من كان له هذه الحالة عرفانا علميا ،ومنهم من صار له ذوقا وحالا ،وانتفت عنهم الكثرة بالكلية، واستغرقوا بالفردانية المحضة ، واستهوت فيها عقولهم ، فصاروا كالمبهوتين فيه،ولم يبق فيهم متسع لذكر غير الله ، ولا لذكر أنفسهم أيضا ، فلم يبق عندهم إلا الله ، فسكروا سكرا وقع دونه سلطان عقولهم فقال بعضهم : أنا الحق ،وقال الآخر سبحانى ماأعظم شانى ، وقال الآخر : مافى الجبة إلا الله ،وكلام العشاق فى حال السكر يطوى ولايحكى ، فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذى هو ميزان

([1]) الغزالـــــى : مشكاة الأنوار ، ضمن مجموعة القصور العوالى ،مرجع سابق ، ص ١٨٢، ١٨٣.

الله فى أرضه ، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد، بل يشبه الاتحاد، مثل قول العاشق فى حال فرض العشق:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

فلا يبعد أن يفاجئ الإنسان مرآة ، فينظر فيها ، ولم ير المرآة قط ، فيظن أنا لصورة التى رآها فيالمرآة هى صورة المرآة متحدة بها ،ويرى الخمر فى الزجاج ، فيظن أن الخمر لون الزجاج ، فإذا صار ذلك عنده فالوفا، ورسخ فيه قدمه استغرقه فقال :

رق الزجاج وراقت الخمر وتشابها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولاقدح وكأنما قدح ولا خمر

... وهذه الحالة إذا غلبت سميت بالإضافة إلى صاحب الحال فناء ، بل فناء الفناء ، لأنه فنى عن نفسه ، وفنى عن فنائه ، فإنه ليس يشعر بنفسه فى تلك الحال ، ولابعدم شعوره بنفسه ، ولو شعر بعدم شعوره بنفسه، لكان قد شعر بنفسه، وتسمى هذهالحال بالاضافة إلى المستغرق فيها بلسان المجاز اتحادا ، وبلسان الحقيقة توحيدا ، ووراء هذه الحقائق أيضا أسرار لايجوز الخوض فيها".([1])

إذن هناك محاذير فى العبادة ، والصوفى فى حالة الصحو ، أو فى حالة البقاء بعد الفناء ،وقد رد اليه عقله ،ومن ثم فلا يجوز له أن يعبر عما كان فيه ، بعد أن تحول إلى ماهو فيه ، لأن الفاظ اللغة تصدق عن التعبير عنه ، فالمستوى اللغوى يتناسب مع الحالة العقلية ، أما الحالة الوجدانية ،

([1]) الغزالى: المرجع السابق ، ص ١٩٧، ١٩٨.

فليس هناك مايكافئها من ألفاظ اللغة، ومن هنا كان لجوء الغزالى مرة إلى كتمان بعض رسائله أو كتبه عما هو غير أهل لتلك الأسرار المودعة فيها، وأحيانا يلجأ إلى الرمز دون التصريح ،وكان هذه الرموز شفرات بين الكاتب، والقارئ المخصوص وليس أى قارئ ، خاصة أن رأى ماحدث للحلاج الذى فاه بألفاظ حسبت عليه ،وكانت هذه العبارات تعبر عن مستوى غير عادى .

ومن ثم فإن الناس فى إدراك الحقائق الالهية لايستوون ، لأن طبائع الناس مختلفة وفطرهم متنوعه ، وكل ميسر لما خلق له " وقد خلق الناس أشتاتا متفاوتين ، كمعادن الذهب والفضة وسائر الجواهر ... بل نرى الناس يتفاوتون فى الحرف والصناعات ، فقد يقدر الواحد بخفة يده ، وحداقة صناعته ، على أمور لايطمع الآخر فى بلوغ أوائله ، فضلا عن غايته ولو اشتغل بتعلمه جميع عمره ، فكذلك معرفة الله تعالى ، بل كما ينقسم اناس إلى جبان عاجز لايطيق النظر إلى التطام أمواج البحر وإن كان على ساحله، إلى من يطيق ذلك لكن لايطيق رفع الرجل عن الأرض اعتمادا على السباحة، وإلى من يطيق السباحة إلى حد قريب من الشط ، لكن لايطيق خوض البحر الى لجنة والمواضع المغرقة المخطرة ، وإلى من يطيق ذلك لكن لايديق الغوص فى عمق البحر إلى مستقره الذى فيه نفائسه وجواهره ، وهكذا مثال بحرالمعرفة ،وتفاوت الناس فيه مثله حذو القذة بالقذة من غير فرق".([1])

بعد هذا التمهيد لبيان اتجاه الغزالى فى تصوفه ،وفى تعبيره عن تجربته الصوفيه فيكون من باب ماهو جائز التصريح به ،وماهو غير جائز تصوير تلك التجربة الصوفية العميقة فى رمز قصصى أبطاله جماعة منا

([1]) الغزالى : الجام العوام من علم الكلام ، ضمن مجموعة القصور الغوالى ،ص ٢٦٩، ٢٧٠ .

لطير تريدأن تبحث عن ملك لها وهو (العنقاء) ومثل الحديث عن هذه القصة ومحاولة حل رموزها فإنه من الأفضل والأوفق حيث المنهج ومن حيث المعرفة على حد السواء البدء بعرض هذه القصة .

نص القصة (رسالة الطير) للغزالى

اجتمعت أصناف الطيور على اختلاف أنواعها ، وتباين طباعها ، وزعمت أنه لا بد لها من ملك ،واتفقوا أنه لايصلح لهذا الشأن إلا العنقاء ، وقد وجدوا الخبر من استيطانها فى مواطن الغرب، وتقررها فى بعض الجزائر، فجمعتهم داعية الشوق وهمة الطلب، فصمموا العزم علىالنهوض إيها ، والاستغلال بظلها ، والمثول بفنائها ، والاستسعاد بخدمتها ، فتناشدوا وقالوا :

قموا إلى الدار من ليلى تحييهـــا

نعم ونسألهم عن بعض أهليهـــا

واذا الأشواق الكامنة قد برزت من كمين القلوب ، وزعمت بلسان الطلب:

بأى نواحى الأرض ابغى وصالكـم

وأنتم ملوك ما لمقصدكـــم نحـو

وإذا هم بمنادى الغيب ينادى من وراء الحجب (ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة) لازموا أماكنكم ،ولاتفارقوا مساكنكم، فإنكم إن فارقتم أوطانكم، ضاعفتم أشجانكم ، فدونكم والتعرض للبلاء ، والتحلل بالفناء:

إن السلامة من سعدى وجارتهـــا

أن لاتحل على حـــــال بواديهـا

فلما سمعوا نداء التعذر من جناب الجبروت ، ماازدادوا إلا شوقا وقلقا وتحيرا وأرقا ،وقالوا من عند آخرهم :

ولو داواك كل طبيب أنـــس

بغير كلام ليلـــى ماشفاكـــــا

وزعموا :

أن المحب الذى لاشـــئ يقنعـــه

أويستقر ومن يهوى به الـــــــدار

ثم نادى لهم الحنين ، ودب فيهم الجنون ، فلـم يتلعثمـوا فـى الطلـب ، اهتزازا منهم إلى بلوغ الأرب ، فقيل لهم : بين أيديكمالمهامه الفيح ، والجبـال الشـاهقة ، والبحـار المغرقـة ، وأمـاكن القـر ، ومســاكن الحـرب فيوشـك أن تعجزوا دون بلوغ الأمنية ، فتخـترمكم المنيـة، فـالأحرى بكـم مسـاكنة أوكـار الأوطار، قبل أن يستدر حكمـا لطمـع ،وإذا هـم لايصعـون ، إلـى هـذا القـول ولايبالغون ، بل رحلوا وهم يقولون :

فريد عن الخلان فى كـــــــــل بلدة

إذا عظم المطلـــوب قل المســاعد

فامتطى كل منهم مطية الهمة قد الجمها بلجام الشـوق ، وقومهـا بقـوام العشـق وهو يقول :

أنظر الى ناقتـــى فى ساحة الوادى

شديده بالسرى من تحت ميــــاد

اذا اشتكت من كلال البين أوعدهـا

روح القدوم فتحيا عند ميعـــاد

لها بوجهك نورد تستضئ بـــه

وفى نوالك من أعقابها حـــادى

فرحلوا من محجة الاختيار ، فاستدرجتهم بحد الاضطرار ، فهلك من كان فى بلاد الحر فى بلاد البرد ، ومات من كان من بلاد البرد فى بلاد الحر ،/ وتصرفت فيهم الصواعق ، وتحكمت عليهم العواصف ، حتى خلصت منهم شرذمة قليلة إلى جزيرة الملك ، ونزلوا بفنائه ،واستظلوا بجنابه . والتمسوا من يخبر عنهم الملك ، وهو فى أمنع حصن من حمى عزه ، فأخبر بهم فتقدم إلى بعض سكان الحضرة أن يسالهم : ماالذى حملهم علىالحضور؟ فقالوا : حضرنا ليكون مليكنا .

فقيل لهم : أتعبتم أنفسكم ، فنحن الملك شئتم أم أبيتم، جئتم أو ذهبتم ، لاحاجة بنا إليكم .

فلما شملتهم الحيرة ، وبهرتهم العزة . قالوا : لاسبيل إلى الرجوع فقد تخاذلتا لقوى ،وأضعفنا الجوى ، فليتنا تركنا فى هذه الجزيرة لنموت عن آخرنا ،وأنشاوا يقولون هذه الأبيات :

أسكان رامة هل من قـرى   فقد دفع الليل ضيفا قنوعـا

كفاه من الزاد أن تمهـــدوا   له نظرا وكلاما وسيعـــا

هذا وقد شملهم الداء ، وأشرفوا على الفناء ،ولجأوا إلى الدعاء:

ثمل نشــــاوى بكأس الغرام   فكل غدا لأخيه رضيعـا

فلنل غنعن البأس ، وضاقت بهم الأنفاس ، تداركتهم أنفاس الإيناس وقيل لهم: هيهات ، فلا سبيل إلى الياس ، فلا ييأس من روح الله إلا القوم الخاسرون ، فإن كان كمال الغنى يوجب التعزز والردة ، فجمال الكرم أوجب السماخحة والقبول ،فبعد أن عرفهم مقداركم فيا لبحر عن معرفة ، قدرنا ن فحقيق بنا إيواؤكم فهو دار الكرم ، ومنزل النعم ، فإنه يطلب المساكين الذين رحلوا عن مساكنة الحسبان ، ولولاه لما قال سيد الكل وسابقهم (أحينى مسكينا) ومن استشعر عدم استحقاقه ، فحقيق بالملك (العنقاء) أن يتخذه قرينا .

فلما استأنسوا بعدها استيأسوا ، وانتعشوا بعد أن تعسوا ، ووثقوا بفيض الكرم ، واطمأنوا إلى .... النعم ، سألوا عن رفقائهم ، فقالوا : ما الخبرعن اقوام قطعت بهم المهامه والأودية، أمطلول دماؤهم ، أم لهم دية ؟.

فقيل : هيهات هيهات (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره علىالله) ، اجتبتهم أيادى الاحتباء بعد أن أبادتهم سطوة الابتلاء (ولاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء).

قالوا : فالذين غرقوا فى لحج البحار ، ولم يصلوا إلى الدار ، ولا إلى الديار ، بل التقمتهم لهوات التيار .

قيل : هيهات (ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء) فالذى جاء بكم وأمهاتهم أحياهم ،والذى وكل بكم داعية الشوق حتى استقللتم العناء والهلاك فى أريحية الطلب، دعاهم وحملهم وأدناهم وقربهم ، فهم حجب العزة واستارالقدرة (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر).

قالوا : فهل لنا إلى مشاهدتهم سبيل ؟

قيل : لا ، فإنكم فى حجاب العـزة ، وأستار البشرية ، وأسر الأجل وقيده فإذا قضيتم أوطاركم ، وفارقتم أوكاركم ،فعند ذلك تزاورتم وتلاقيتم ..

قالوا : والذين قعد بهم اللؤم والعجز ، فلم يخرجوا ؟

قيل: هيهات ، (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدته ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم) ولو أردناهم ، لدعوناهم ، ولكن كرهنـاهم فطردنـاهم ، أنتم بأنفسكم جئتم ، أم نحن دعوناكم ؟ أنت اشتقتم أم نحن شوقناكم ؟ نحن أقلقناكم، فحملناكم ، (وحملناهم فى البر والبحر).

فلما سمعوا ذلك ، واستأنسوا بكمال العناية وضمان الكفاية، كمل اهتزازهم ،وتم وثوقهم ، فإطمأنوا وسكنوا ، واستقبلوا حقائق اليقين بدقائق التمكين ، وفارقوا - بدوام الطمأنينة - إمكان التلوين (ولتعلمن نبأه بعد حيـــــن).

فصـــــــل

أترى حل كان بين الراجع إلى تلك الجزيرة ، وبين المبتدئ من فرق؟ إنما قال : جئنا ملكنا . من كان مبتدئا ، أما من كان راجعا إلى عيشه الأصل: (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى ، فرجع لسماع النداء ، كيف يقال له : لم جئت ؟ فيقول : لم دعيت ، لابل فيقول : لم حملت إلى تلك البلاد، وهى بلاد القربة .

والجواب على قدر السؤال ،والسؤال على قدر النفقة ، والهموم بقدر الهمـــــم .

فصـــــــل

من يرتاع لمثل هذه النكت ، فليجدد العهد بطور الطيرية ، وأريحية الروحانية ، فكلام الطيور لايفهمه إلا من هو من الطيور ، وتجديد العهد بملازمة الوضوء ، ومراقبة أوقات الصلاة وخلوة ساعة للذكر ، فهو تجديد العهد الحلو فى غفلة لابد من أحد الطريقين ، (فاذكرونى أذكركم) أو (نسوا الله فنسيهم) ، فمن سلك سبيل الذكر ، أنا جليس من ذكرنى ومن سلك سبيل النيان : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين).

وابن آدم فى كل نفس مصحح أحد هاتين النسبتين ،ولابد يتلوه يوم القيامة أحد السيمائين أما (يعرف المجرمون سيماهم) أو الصاحلون بسيماهم وفى وجوههم من أثر السجود)؟.

أنقذك الله بالتوفيق، وهداك إلى التحقيق ، وطوى لك الطريق ، إنه بذلك حقيق.

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين آمين .([1])

([1]) النص منقول من مجموعة (القصور العوالى) ، القاهرة ، مكتبة الجندى ، د.ت.، ص ٢٢٨ - ٢٣٢.

تحليل رسالة الطير للغزالى

أولا: لعل من الملاحظ أن وجهة ابن سينا فى رسالته عن (الطير) لم تكن محددة منذ البداية ، بل كان الهدف من الرحلة هو الهروب من واقع خطر غير مرغوب فيه، وهجرة لايعرف إلى أين . كما أنه من الواضح ايضا أن الملك الذى سعد ابن سينا بلقائه لم يكن معروفا لديه من قبل ، بل إن تلقائية الهروب هى التى أفضت إلى قصره بعد رحلة شاقة ، لم يفقد أثناءها أى طائر من الطيور حياته ، كما أنه لم يحدد المكان الذى يستقر فيه قصر الملك وكل ماهنالك أن ثمة جبالا شاهقة عبيرها جماعة الطيور ، فى حجلة من أمرها مخافة إدراك الأعداء الذين خلفوها وراءها.

أما الغزالى هنا فإن الهدف محدد سلفا ، وأن جماعة الطيور قد صممت منذ البداية على الوصول إلى (العنقاء) ليكون لها ملكا ، وأن هذا الملك محدد الموقع عند الطيور ، فهى تعرف مكانه منذ البداية ، وأنه فى جهة الغرب ، وأما الرحلة فكانت شاقة أمام جماعة الطيور ، غير أن مشقتها بسبب الجبال الشواهق عند ابن سينا ، بل بسبب اختلاف الأجواء والمناخات وجماعة الطيور – كما يفهم من كلام الغزالى – لم تكن فى الأصل تنتمى إلى مناخ واحد أو جو واحد ، فمناخاتها مختلفة ، وأجواؤها متنوعة بين الأجواء شديدة الحرارة ، والأجواء شديدة البرودة ، ولذلك هلك منها الكثير عند اجتياز الأجواء التى لاتتلاءم مع بيئاتها الأصلية.

وهنا يبدو سؤال : لماذا (العنقاء) بالذات ؟ وما هذاالعنقاء الذى اختاره الغزالى لجماعة الطير كى يكون ملكا لها؟ ولماذا اختارا جهة الغرب؟ مع أن الغرب فى قصة (حى بن يقظان) عند ابن سينا يمثل العالم المادى،

ومن ثم فإن الرمز عند الغزالى بناحية (الغرب) عبر الرمز عند ابن سينا ، فمكان الإشراق العلوى عند ابن سينا هو جهة الشرق لا جهة الغرب . فالشرق عنده هو مكان العقول المجردة التى هى أنوار خالصة . أما الغرب عنده فهو ظلمة تلوح فيها الإشراقات خلسات ثم تتلاشى كما هو واضح فى رسالة (الطير) عنده .

إن الطابع السياسى قد يغلب على رحلة ابن سينا ، اذ هو لاينسى نفسه على أنه واحد من جماعة الطير التى وقعت فى الشرك ، والذى خلصه هم زملاؤه ، وجماعته ،ومع ذلك فإنه وحده هوالذى فاز فى النهاية باستيعاب المشاهدة الملكية ، ومن ثم كان هو وحده ، من بين سائر زملائه من الطيور ، هو القادر على وصف جمال وكمال ذلك الملك أما الغزالى قام بذكر نفسه على أنه وكان واحد من جماعة الطير ، كما أن فكرة الرحلة لم تنبع من واحد من هذه الطيور، بل الفكرة نبعت من جميع الطيور التي التقت عند هدف واحد بلا سابق اتفاق بينها ، فليس هناك قيادة ملموسة عند الغزالى ،وهذه الأوجه من الاختلاف بين القصتين الرمزيتين لها مغزاها البعيد التى ربما تكشفت عند محاولة حل هذه الرموز الغزالية بعدما تمت محاولة حل رموز ابن سينا.

فما هو (العنقاء) اصلا ، بصرف النظر عن اتخاذ الغزالى له كرمز ؟

لعله من الأوفق البدء برأى إخوان الصفاء، فى قصتهم ، التى سبق عرضها عن هذا العنقاء. لقد سأل ملكا لجن الببغاء المرسل من قبل ملك الطيور عن هذا الملك فقال الببغاء (العنقاء) فقال ملك الجن :" أن يأوى من البلاد. قال : على أطواد الجبال الشامخة ، فى جزيرة البحر الأخضر، قل

مايبلغ إليها مراكب البحر ، أو أحد من البشر، قال : صف لنا هذه الجزيرة . قال : نعم ، أيها الملك ، هى طيبة التربة، معتدل الهواء، تحت خط الاستواء، عذبة المياه ، من العيون والأنهار ، كثيرة الأشجار ، من دوح الساج العالية فى جو الهواء ، وقصب آجامها القناء ، وعكرشها الخيزران ، وحيواناتها الفيلة والجواميس والخنازير ، وأصناف آخر لايحصيها إلا الله عز وجل . قال : صف لنا (العنقاء) وأخلاقها وسيرتها . قال : نعم ، هو أكبر الطيور جثة وأعظمها خلقة ، وأشدها طيرانا ، كبير الرأس ، عظيم المنقار ، كأنه معول من الحديد حاد المخالب مقوسات ، كأنها خطاطيف من الحديد، عظيم الجناحين ، إذا نشرهما كأنهما شراعان من شرع مراكب البحر ، وله ذنب مناسب لهما ، كأنه منارة نمروذ الجبار ، وإذا انقض من الجو فى طيرانه ، تهتز الجبال من شدة تموج الهواء من خفقان جناحيه ، وهو يختطف الجواميس والفيلة من وجه الأرض فى طيرانه"([1]).

إن موطن العنقاء عند اخوان الصفاء هو جزيرة جنوب خط الاستواء معتدلة الهواء ، وهى نفس جزيرة (حى بن يقظان) عند ابن طفيل الذى سبقت الإشارة إلى قصته . وليس مكان العنقاء هو جهة الغرب كما يشير الغزالى.

والوصف الذى جاء فى رسائل اخوان الصفاء ، على النحو المذكور، إنما يتلاءم مع الشكل الأسطورى للعنقاء كما ورد فى مختلف الثقافات التى تحدت عنه . فماذا تحدثت عنه تلك الثقافات.

([1]) رسائل إخوان الصفاء ، مرجع سابق ، مجلد ٢ ، ص ٢٧٥

وانظر : فريدرخ ديتريصى : فى تداعى الحيوانات على الانس عند ملك الجن ، ص ٦٩، ٧٠ .

لقد وصفه اليونان بأنه طائر خرافى قريب الشبه من ذلك الطائر الوهمى المقدس ، رمز الخلود ، وموطنه صحراء الجزيرة العربية . ويرجع ايمان العرب بوجوده إلى أزمنة سحيقة ، حيث ربطوا بينه وبين (أصحاب الرس) الذين أشار القرآن الكريم إلى قصتهم فى قوله تعالى (كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود)([1]) غير أن هذه الأسطورة قد أخذت نوعا من التأكيد فى حديث منسوب إلى ابن عباس يقرر فيه أنه فى بداية خلق الله للعنقاء قد وهبه الله الكمال، ثم أصبح ملعونا ، ويعزو هذا الحديث التخلص من هذا الطائر اللعين ،ووضع حد للخراب والدمار الذى كان يجره على العالم، الى واحد من أنبياء زمن (الفترة) وهو إما (خالد بن سنان) أو (حنظلة بن صفوان).([2])

وبعد مجئ الإسلام ، اختلط العنقاء بطائر أسطورى هو (السيموع) الذى لعب دورا مافى الأساطير الإيرانية ،وربما أيضا فىالأسطورة الهندية عن (جارودا Garuda) حول الإله (فيشنو Vishnu) الذى كان معبودا لدى الهنود القدماء، وكانت تقدم له القرابين على أنه الإله الحافظ المتجسد فى آلهة الخير مثل (رام Ram، وكريشنا Crishna) . وقد اعتقدت بعض فرق الشيعة مثل (الشحيطية)([3]) فى أنه (العنقاء) من ممتلكات الإمام المستور .

([1]) يونس : آية: ١٢ .

([2]) المسعودى : مروج الذهب، ج ٤ ، ص ١٩ ومابعدها .

([3]) الشمطية : أتباع يحيى بن أبى شميط قال : إن جعفر (الصادق) قال : إنه صاحبكم إسمه اسم نبيكم، وقد قال له والده رضوان الله عليهما : إن ولد لك ولد ، فسميته باسمى

وقد ذكر بعض المؤلفين بعض أوصاف هذا النوع من الطيور ،بالرغم من اعترافهم بأنه دائر منقرض ، وادعى آخرون أن الفاطميين كانوا يقتنون عينات من هذا الطائر فى حدائق الحيون عندهم ، غير أن هناك شكوكا فى ذلك إذا ان هذا الطير موضوع الحديث لم يكن سوى (مالك الحزين).([1])

ومن الملاحظ أن إخوان الصفاء قد أطلقوا على هذا الطائر كلا الإسمين العربى والفارسى وهما (العنقاء) و(السيمرغ) وأحيانا كانوا يسمونه (الشاه مرغ).([2])

ومن الواضح أن الغزالى يذكر هذا الرمز (العنقاء) بمعنى غير الذى سبق لإخوان الصفاء ، أو الشمبيطية أن استخدموه فيه .

فالغزالى يرمز به الى (الله) أما الشميطية فإنهم يجعلونه من جنود الإمام المستور الذى يملك مالايملكه الشخص العادى من أمور خارقة العادة ومن بينها ذلك الطائر الخرافى الذى لم يره أحد ولم يسمع به أحد إلا من خلال القصص الأسطورية ، وذلك تضخيما لشأن الإمام والقاء للرهبة والإعجاب فى قلوب الناس الذين يوجهون إليهم دعوتهم للانخراط فى سلك الدعوة الباطنية الإسماعيلية . أما إخوان الصفاء فإنهم يرمزون به رمزا آخر يتفق مع سياق القصة التى عرضوها ليؤدى غرضا معينا من أغراضها العامة التى سبقت الإشارة إليها .

فالإمام بعده و ابنه محمد . انظر الشهرستانى ، تحقيق عبدالعزيز الوكيل ، القاهر، الحلبى ، ج ١ ، ص ١٦٧.

([1]) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة (عنقاء).

([2]) الرسائل ، مرجع سابق ، مجلد ٢ ، ص ٢٤٨ ، ومابعدها .

ثانيا : بالرغم من أن صورة الطائر في الفكر الإنساني العالمي قد اتخذت رمزا للنفس الإنسانية كما هو واضح عند قدماء المصريين ، وقدماء اليونان ، والجاهليين من العرب ، وكثير من فلاسفة الإسلام – كما سبق الكلام عليه – فإن هذه الصورة قد اكتسبت بعدا آخر فى الحديث النبوى ، وهو أنها أصبحت رمزا للتوكل على الله ،ورقة القلوب . فقد روى مسلم فى صحيحه، وأحمد بن حنبل فى مسنده ، عن النبى صلى الله عليه وسلم " يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير"، وروى أحمد بن حنبل فى مسنده، والحاكم فى المستدرك عن النبى صلى الله عليه وسلم " لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق اطير ،تغدو خماصا ،وتعود بطانا "([1]).

وهنا ينبغى أن نقف وقفة لبيان السبب الذى جعلنا نذهب إلى هذا البعد الإسلامى الذى اكتسبته صورة الطير مع الغزالى، دون الإشارة إلى هذا البعد مع ابن سينا، فابن سينا ، وإن بدأ مشائيا ، وانتهى إشراقيا، إلا أنه ظل دائرا فى الإطار الفلسفى، أما الغزالى فإنه وإن خاض غمار الفلسفة وعلم الكلام ، فما كان منه ذلك إلا ليؤكد الموقف الأصلى له وهو الموقف الصوفى ،ولعل كتاب (المنقذ) خير دليل على ذلك . فالموقف الصوفى عنده أصيل ـفتحت عيناه عليه منذ نعومة أظفاره.

وبناء على ذلك ، فإن طيور ابن سينا كانت مشدودة إلى الشرك المادى والحبائل الجسدية ، والقيود البدنية ، ومن ثم فقد سعى إلى التخلص من هذه القيود فى قصته توصلا إلى المعرفة . ومن ثم فقد فرق بين الزاهد والعابد والعارف . ولعل حياته الواقعية تفسر أن العارف لايلزم أن يكون

([1]) انظر : الأبشيهى : المتطرف من كل فن مستظرف ، بيروت ، دار إحياء التراث العربى ، ومؤسسة التاريخ العربى ، ط ١ ، د. ت ، ج ١ ، ص ١١٦.

زاهدا أو عابدا ، ومن هنا كان القائلون بأن تصوف ابن سينا كان تصوفا فلسفيا أو عقليا ، أقرب إلى الصواب.

أما تصوف الغزالى فكان تصوفا نظريا وعمليا فى آن معا ، وحينا تأخر العمل عنده عن العلم ، أصيب بالأزمة المشهورة، فكان ماكان من أمر اعتقال لسانه عند التدريس فى نظامية بغداد ، وترتب على ذلك إصابته بالمرض الجسمى ، بعد أن داهمه المرض النفسى ، فعقد العزم على ترك الدنيا ، والتفرغ للعبادة والهجرة الجسدية المصاحبة للهجرة الروحية إلى الله، غير عابئ بارتباطاته الدنيوية من جاه ومنصب وعيال ، وظل حاله هكذا فى الإغلب بقية عمره.

وبالرجوع إلى طيور ابن سينا لانجد فى مطلع الرسالة إلا العنف والحدة والشدة، وضرورة كشف ماهو مستور من قوة ضد الخصم – كما سبق الكلام عليه – أما طيور الغزالى فهى طائفة مختارة لم يحركها سوء الشوق ورقة القلوب وحب المحبوب ، وهذا يتمشى مع منهج الغزالى فى جميع كتبه ورسائله الصوفية فإن " إعراب القلب – عنده – على أربعة أنواع: رفع ، وفتح، وخفض ، ووقف . ومع القلب فى ذكر الله تعالى ، وفتح القلب فى الرضا عن الله تعالى ، وخفض القلب فى الاشتعال بغير الله تعالى ، ووقف القلب فى الغفلة عن الله تعالى ، فعلامة الرفع ثلاثة أشياء: وجود الموافقة ، وفقد المخالفة ، ودوام الشوق ، وعلاقة الفتح ثلاثة أشياء : التوكل والصدق ، واليقين . وعلامة الخفض ثلاثة أشياء : العجب ، والرياء،

والحرص وهو مراعاة الدنيا ، وعلامة الوقف ثلاثة أشياء : زوال حلاوة الطاعة ، وعدم مرارة العصبية والتباس الحلال "([1]).

فالتوكل هو احدى علامات الفتح عندا لغزالى . والتوكل فقام من المقامات الصوفية ، وهو الذى صراحة الغزالى بقوله :" هو أن تستحكم اعتقادك بالله تعالى فيما وعده يعنى تعتقد أن وأقدرلك سيصل إليك لامحالة، وإن اجتهد كل من فى العالم على صرفه عنك ، ومالم يكتب لن يصل إليك ، وإن ساعدك جميع العالم"([2]) والغزالى هنا يشرح معنى التوكل شرحا شرعيا إسلاميا، فكأنه ينظر إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن عباس رضى الله عنهما ، قال: كنت عند النبى، صلى الله عليه وسلم، فقال:" ياغلام ، إنى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله ،وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن تنفعك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعت على أن تضرك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف".([3])

والحق أن الصوفية ربما يتجاوزون هذا المقام أى مقام التوكل إلى ما أفعل منه فى باب التسليم لله عز وجل ، وهو ترك التدبير لأنفسهم، واستقبال مااختار الله لهم بالقبول والرضا والطمأنينة فإن " لأهل الخصوص مع الله

([1]) الغــــزالى : منهاج العارفين ، ضمن مجموعة القصور العوالى ، مرجع سابق، ص ٨٢،٨٣ .

([2]) الغزالى : أيها الولد ، ضمن مجموعة القصور العوالى ، مرجع سابق ، ص ١٣٥.

([3]) أخرجه أحمد فى المسند ، ج ١ ، ص ٢٩٣ ، حديث رقم ٢٦٦٤.

حالا ليست لمن سواهم ، ولله فيهم تدبير لايتوجـه بـه لمـا عداهـم "([1]) ولعل هذا هو ماعنيه الغزالى فى قصته هـذه بقولـه :" مـن يرتـاع لمثـل هـذه النكـت فليجدد العهد بطور الطيبية ، وأريحية الروحانية ، فكلام الطيـور لا يفهمـه إلا من هو من الطيور " فماذا يعنى الغزالى بطور الطيرية؟ فكلمة طور هذه مـن مفرداتالغزالى المستعملة فى كثير من كتبه، تطور الحس وطور العقل وطـور فن طور العقل.([2]) ولعل طور الطيرية هذا هو الطور الذى فوق طـور العقـل، أو بعبارة أوضح هو مرحلة متوغلة من هذا الطور ، طور التسليم الكامل للـه - كما يرزق الطير .

والصوفية يشيرون إلى هذه المرحلة ، بل إنهم يقولون إن أساس خلـق آدم مبنى على هذه القاعدة ، ولذلك يلمح الغزالى اليها بعبـارة (تجديـد العهـد) فهذا العهد قديم، وقد تحلل الكثير منه وسلكوا منهجـا مخالفـا . فـالتوكل كمقـام من مقامات الصوفية مرحلة ساذجة لأن التوكل فـى معنـاه بـذل الجهـد وتـرك النتيجة لله . أما (طور الطيرية) فهو مرحلة أبعد من ذلك بكثير.

وقد كان ابن عطاء الله السـكندرى مـن بيـن المتصوفـة الذيـن اهتمـوا بهذا الجانب إى إهتمام ولذلك يقول : " إذا اردت أن يكون لك من الله اختيـار فاسقط معه الاختيار، وإن اردت أن يكون لـك حسـن التدبـير ، فـلا تـدع معـه وجود التدبير ، وإذا أردت الوصول إلى المراد ، فذلك بأن لايكون معه مـراد ،ولذلك لما قيل لأبى يزيد ، ماتريد؟ قال : أريد أن لا أريد فلم تكن أمنيته مـن

([1]) ابن عطاء الله السكندرى : التنوير فى إسقاط التدبير ، القاهرة ، المطبعة الأزهرية ، ط ١ ، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م ، ص ١٥ .

([2]) الغزالى : المنقذ من الضلال.

الله . ولاطلبته منه إلا سقوط الإرادة معه ، لعلمه أنها أفضل الكرامات وأجل القرابات ".([1])

وليس معنى ذلك عند الصوفية عموما ،والغزالى خصوصا ، أن على الإنسان السالك عليه أن يستسلم ولايعمل ، بل أن عليه أن يعمل أولا كما أمره الله عز وجل ثم بعد ذلك يستسلم لقضاء الله وقدره ، وليس معنى أن يكون السالك فى طور الطبريةألا يعمل ، فالطيور تغدو وتروح ، وغدوها ورواحها إنما هو عمل فإن الله " غنى عنك وعن عملك، وإنما كل نفس بما كسبت رهينة ،وإياك أن تقول : إن الله كريم رحيم يغفر الذنوب للعصاة، فإن هذه الكلمة حق أريد بها باطل، وصاحبها ملقب بالحمامة، بتلقيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث قال: (الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ،والأحمق من اتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى) واعلم أن قولك هذا ياضا هى قول من يريد أني صير فقيها فى علوم الدين من غير أن يدرس علما واشتغل بالبطالة ،وقال : إن الله رحيم كريم قادر على أن يفيض على قلبى من العلوم ، ماأفاضه على قلوب أنبيائه وأوليائه من غي جهد وتكرار وتعلم ، وهو كقول من يريد مالا ، فترك الحراثة والتجارة والكسب وتعطل ، وقال : إن الله كريم رحيم ، وله خزائن السموات والأرض .. فانت إذا سمعت كلام هذين الرجلين استحقتهما وسخرت منهما ، وإن كان ما وصفاه من كرم الله تعالى وقدرته صدقا وحقا ، فكذلك يضحك عليه أربا البصائر فى الدين ، إذا طلبت المغفرة بغير سعى لها، والله تعالى يقول : (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى) ، ويقول : (إنما تجزون بما كنت تعملون) ويقول : (إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم) ، فإذا لم تترك السعى فى طلب

([1]) ابن عطاء الله السكندرى : التنوير ، مرجع سابق ، ص ١٨ .

العلم والمال اعتمادا علىكرمه ، فكذلك لاتترك التزود للآخرة ولاتفتر ، فإن رب الدنيا والآخرة واحد ، وهو فيهما كريم رحيم ، وليس يزيد لـه بطـاعتك ، وإنما كرمه فى أن ييسر لك طريق الوصول إلـى الملـك المقيـم والنعيـم الدائـم المخلد "([1])

على أن هناك كلا ما للغزالى فى موضع آخر ، قد يفهم منه البعض أنه يدعو إلى ترك العمل من أجل الرزق ، اتكالا على أن الله قد ضمنـه فـى مثل قوله تعالى" ومامن دابـة فـى الأرض إلا علـى اللـه رزقهـا" وأن الـرزق والأجل متروكان لله فلا حيلة للعبد فى الرزق كما لا حيلة له فى الأجل.([2])

والحق أن الغزالى فى هذا السياق لايمنع من الأخـذ بالأسـباب، ولكنـه يمنع الركون إلى هذه الأسباب ، بل يدعو إلى الركون إلى مسبب الأسباب.

وبهذا الذى يقرره الغزالى من أن الاستسلام لقضاء الله وقدره لايمنـع الأخذ بالأسباب تصل إلى الملحوظة التالية ..

ثالثـا : يصـرح الغزالـى بـأن طريـق اللـه بالنسـبة للصوفـى لايعنـى الاكتفاء بتصحيح الباطن دون تطهير الظاهر، بل إنه من غير الممكـن أن يتـم الأول دون الثانى ، وأن من يدعىعكس ذلك. فإنما هو مغرور ،ذلك أن حدود الشريعة أمر مقرر ، إذا أريد سلوك طريق الله ولذلك يقول عند تجديـد العهـد بطور الطبرية إنه " تجديد العهد بملازمة الوضوء ، ومراقبـة أوقـات الصـلاة ،وخلوه ساعة للذكر ، فهو تجدبد العهد الحلو فى غفلة " ويؤكـد ذلـك " ملمحـا

([1]) الغزالى : بداية الهداية ، ضمن مجموعة يشمل : منهاج العابدين ، والكشف والتبيين، وبداية الهداية ، القاهرة ، مكتبة الجندى ، ط ١ ، ١٣٧٣هـ ، ١٩٥٤م، ص ٢٦٥.

([2]) الغزالى : منهاج العابدين ، ضمن مجموعة ، مرجع سابق ، ص ٩٢-١٠٣.

إلى أن هناك من يدعى إمكان المعرفة مع إسقاط الفرائض ، والتحلل من الأوامر والنواهى الشرعية، بحجة أن الهدف هو الوصول، ومادام الوصول قد تم، فقد زال معنى الالتزام ولذلك يضيف " لابد من أحد الطريقين: فاذكرونى أذكركم أو نسوا الله فنسيهم ، فمن سلك طريق الذكر ، أنا جليس من ذكرنى ، ومن سلك سبيل النسيان (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطان فهو له قرين).

وهذه النقطة الخطيرة يلح عليها كثير من متصوفى السنة ، وماكانت رسالة القشيرى الى المتصوفة إلا بسبب ظهور بعض من اندسوا فى زمرة السالكين مدعين أن إسقاط الأوامر الشرعية هو غاية السالك ومنتهاه ،وقد جاء الغزالى نفسه وأكد هذه الحقيقة فى غير ما مناسبة ،وهو إذ يتحدث عن أصناف المغرورين ، يذكر منهم المغرورين من المتصوفة " وما أغلب الغرور على هؤلاء منهم متصوفة هذا الزمان - إلا من عصمه الله - اغترارا بالزى والمنطق والهيئة ، فشابهوا الصادقين من الصوفية فى زيهم، وهيئتهم وألفاظهم وآدابهم ، ومراسمهم ،واصطلاحاتهم ،وأحوالهم الظاهرة فى السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادة ، مع إطراق الرأس، وإدخاله فى الجيب ، كالمتفكر ، مع تنفيس الصعداء، وفى خفض الصوت فى الحديث وفى الصياح ، إلى غير ذلك ، فلما تعلموا ذلك ، ظنوا أن ذلك ينجيهم ، فلم يتعبوا أنفسهم قط بالمجاهدة والرياضة والمراقبة للقلب ، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الجلية والخفية ، وكل ذلك من منازل التصوف ، ثم إنهم يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين ، ويتنافسون فى الرغيف والفلس والحبة ، ويتحاسدون على النقير والقطمير ،

ويمزق بعضهم أعراض بعض ، مهما خالفه فى شئ من غرضه ، فهؤلاء غرورهم ظاهر".([1])

ولاينسى الغزالى أن يعذر من زل لسانه فى حال السكر ، ففقد نفسه، ولاقى حتفه لأن لم يجد من يلتمس له العذر ،فأخذه الناس بسيف الظاهر ، ومات دون أن يواصل الرحلة إلى الله ،وذلك أنه لما بدا له بعض خلسان من نور الحق لم يستطع تحمل قهر هذه الخلسات ، فسبق إلى لسانه كلمات توهم الكفر ، وتشن بالخروج من الملة ، فحوسب على تفوهه بأمثال هذه العبارات، فقتل دون أن يكون قاصدا بها أن يخرج على هذا الدين ، ومن ثم فإنه تاج ، لأنه أراد الوصول إلى الحق .... يعادون أن يخطى بالوصول .

وهذا هو منهج الغزالى فى فكره الصوفى ، وقد عبر عن ذلك غير مرة فى المنقذ وغيره من كتبه ورسائله الصوفية ، فلم ينسى فى قصته الرمزية هنا أن يلمح إلى هذا النوع من الصوفية .

يقول الغزالى " فى مجال آخر بطريق اصرح " العارفون ، بعد العروج إلى سماح الحقيقة ، اتفقوا علىأنهم لم يروا فى الوجود إلا الواحد الحق. لكن منهم من كان له هذه الحالة عرفانا علميا ، ومنهم من صار له ذوقا وحالا، وانتفت عنهم الكثرة بالكلية ،واستغرقوا بالفردانية المحضة ، واستهوت فيها عقولهم ، فصاروا كالمبهوتين فيه ،ولم يبق فيهم متسع لذكر غير الله ،ولا لذكر أنفسهم أيضا ،فلم يبق عندهم إلا الله فسكروا سكرا وقع دونه سلطان عقولهم ، فقال بعضهم : أنا لحق ، وقال الآخر : سبحانى

([1]) الغزالى : الكشف والتبيين فى غرور الخلق أجمعين ، ضمن مجموعة ، مرجع سابق ، ص ٢١٨.

ماأعظم شانى ، وقال الآخر : مافى الجبة إلا الله ن وكلام العشاق فى حال السكر يطوى ولا يحكى . فلما خف عنهم سكرهم ،وردوا إلى سلطانا لعقل الذى هو ميزان الله فى أرضه ، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد، بل يشبه الاتحاد مثل قول العاشق.

أنا من أهوى ومن أهوى أنـــا

نحن روحان حللنا بدنـــــا

فلا يبعد أن يفاجأ الإنسان مرآة فينظر فيها ، ولم ير المرآة قط ، فيظن أن الصورة التى رآها فى المرآة هى صورة المرآة متحدة بها ..."[1].

وقد رمز الغزالى فى هذه الرسالة إلى نوعين من هؤلاء الرجال ، فبعضهم مات ضالا فى " المهامه والأودية " وبعضهم " فرقوا فى لحج البحار، ولم يصلوا إلى الدار ولا إلى الديار ، بل التقمتهم لهوات التيار".

وهنا يستخدم الغزالى التفسير الإشارى، إذ ينطبق على هؤلاء وأولئك قوله تعالى (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد ومع أجره على الله ".

اما النوع الأول فإنه فى حكم الشهداء الذين يقتلون فى سبيل الله ، واليهم الإشارة بقوله تعالى (ولاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء) وجزاؤهم : " اجتبتهم أيادى الاجتباء، بعد أن أبادتهم سطوة الابتلاء".

([1]) انظر: الغزالى : مشكاة الأنوار ، ضمن مجموعة القصور العوانى ، مرجع سابق ، ص ١٩٧.

والنوع الثانى تشير إليهم الآية " ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء" وتبرير ذلك من جهة الملك (العنقاء) الذى هو الله جل جلاله فى تفسير الرمز أنهم مثل الواصلين الذين واصلوا الرحلة إلى نهايتها " فالذى جاء بكم وأماتهم أحياهم ، والذى وكل بكم داعية الشوق، حتى استقللتم العناء والهلاك فى أريحية الطلب ، دعاهم وحملهم وأدناهم وقربهم ، فهم حجب العزة وأستار القدرة (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر).

ويبدو أن الغزالى يقصد بالفريق الأول من الذين ماتوا دون الوصول ، وهو الفريق الذى لقى حتفه فى المهام والقفار ، هذا الفريق هم الذين عاقبهم المجتمع بالقتل لما صدرت منهم العبارات الموهمة مثل الحلاج وغيره.. أما الفريق الثانى وهم الذين ماتوا فى البحار فهم من ماتوا ميتة طبيعية دون أن يبلغوا نهاية الطريق ، ولذلك فالغزالى يعتبرهما جميعا ضمن الشهداء .

ولذلك فإن الفريقين فى نظر الغزالى قد أصبحوا بعد موتهم ، دون بلوغ المرام هم حجب العزة واستار القدرة . وفى هذا إشارة إلى أنهم تحولوا إلى أنوار تحجب النور الحقيقى الذى يتحدث عنه الغزالى فى (مشكاة الأنوار، إذ النور الحق كما يقول : (هو الله الذى هو نور الأنوار وكل ماعداه من أنوار إنما هو هى أنوار بطريق المجاز .[1] أما الأحياء من السالكين الذين واصلوا السير إلى نهايةالطريق ، فهم لم يتحولوا إلى حجب للعزة ، بل إنهم مازالوا محجوبين بحجب العزة وأستار البشرية ، فالبشرية حجاب آخر من الحجب التى تحجب العزة الإلهية .

([1]) الغزالى : مشكاة الأنوار ، مرجع سابق ، أنظر الفصل الثالث من هذا الكتاب الذى يشرح فيه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم " إن لله سبعين حجابا من نور وظلمة ... الحديث ص ٢٢٠ - ٢٥٧.

رابعا: إن أهم مايمكن ملاحظته فـى قصـة الغزالـى هـو أن السـاعين إلى طريق الله بغيـة الوصـول ، قد جمعهم الحب والعشق ، لا الرغبـة فـى المعرفة لذاتهـا ، ومـن ثم كـانت العبـادة وسيلة لهـذا الحب ، والحب وسـيلة للمعرفة . ولذا يتحدث الغزالى فى بداية قصته أن الذى جمع أصناف الطيـور على الذهاب إلى العنقاء ليكون لها ملكا هو" داعية الشوق وهمة الطلب " ولعل الأبيات التى تمثل بها فـى هذه القصـة أوضـح دليـل علـى ذلـك ، ورمـز إلـى محبوب الطيور وموضع شوقهم بليلى ..

قوموا الى الدار من يليلى نحييهـا

نعم وتسألهم عن بعـــــض أهليها

ولذلك لما سمعوا النداء عن جناب الجبروت بـالتحذير عـن المخـاطر، كان ذلك من شـأنه أن يزيدهم إلحاحـا فـى الطلب والشـوق والتعلـق مردديـن البيت :

ولو داواك كل طبيب إنسى بغير كلام ليلى ماشفاكـــا

فجانب الجمال فى الذات الإلهيـة هـو حـاديهم ، وداعيتهم إلـى تجشـم مخـاطر الرحلة . وهذا من طبيعة العاشق الذى مهما خوف وحذر من تماديه فـى حبـه لم يرده ذلك إلا تعلقا بالمحبوب ، وذلك مشهور عند ذوى الحب العفيـف ممـن وقعوا فى غرام الآدميات فما بالك من اخترق حب الذات العليـة ، ولذلـك أثـر عن مجنون ليلى ان بعضهم اقترح عليه الذهاب إلى الكعبة ، والدعاء إلى اللـه تعالى أن يشفيه من حب ليلى فلمـا ذهبـوا بـه إلـى هنـاك تعلـق باسـتار الكعبـة قائلا:

يارب لتسلبنى حبها أبدا ويرحم الله عبدا قال آمينا

فاذا كان هذا هو حال العاشق للآدامية ، فما بالك بهؤلاء السالكين طريق الله حبا وشوقا ، ومن المعروف أن الحب العذرى فى الجزيرة العربية إبان العصر الأموى قد تحول فيما بعد فى الثقافة الفارسية إلى حب للذات الإلهية.(1)

والحب الصوفى يبدأ بالخوف من النار " الخوف من النار يقطع أكباد المؤمنين ،ويصفر وجوههم، ويحزن قلوبهم ، فإذا تمكن هذا منهم صب الله عز وجل على قلوبهم ماء رحمته ولطفه ، وفتح لهم باب الآخرة فيرون مأمنها ، فإذا سكنوا واطمأنوا وارتاحوا قليلا فتح لهم باب الجلال فقطع قلوبهم واسرارهم ، كثر خوفهم اشد من الأولى ، فإذا تم لهم ، فتح لهم باب الجمال ، فسكنوا واطمانوا ، وتنبهوا ، وتبوءوا درجات هى طبقات : شئ بعد شئ"(2) فإذا كان الحب قد بدأ بالخوف من النار ، فقد وصل إلى السكون والإطمئنان بالجمال.

والغزالى يعمد إلى الرمز البعيد الغامض ، ربما كان هذا الغموض على غير سالكى الطريق ، أما من ذاق وتحقق ، فربما كان الرمز عليه قريبا، بل ربما لم يكن هناك رمز أصلا ، قلعة القوم قريبة إلا على من سلك طريقهم، فهو يفرق بين المبتدئ فى طريق التصوف وبين من انتهى إلى نهاية الطريق :" أترى هل كان بين الراجع إلى تلك الجزيرة ، وبين المبتدئ من فرق !! " فالذى وصل إلى نهاية الطريق غير الذى مازال فى بداية الطريق

---

(1) انظر : محمد غنيمى هلال : ليلى والمجنون بين الأدبين العربى والفارسى ، القاهرة، دارالمعارف ، ١٩٦٢.

(2) الجيلانى، عبدالقادر : الفتح الربانى والفيض الرحمانى ، القاهرة ، مصطفى الحلبى ، ١٩٧٩، ص ٨.

:إن المبتدئ عندما يصل بقول" جئتما ملكنا " لأن كان قبل ذلك بعيدا عن الملك أما مصاحب الحق ، فإنه يقول :" مرجعنا " أى عدنا الى ماكنا فيه

والرجوع هنا ليس معناه العودة إلى الدنيا وزخارفها ، لأنه لم يبارح جناب الحق قبلا ، فالرجوع هنا إلى الحق ، فقد كان قبلا معه ورجع إليه (ياأيها النفس المطمئنة ارجعى).

فما معنى هذا ؟ إن رجع " لسماع النداء" كأنه سمع هذا النداء سقبل ذلك ، بل إنه سمعه حقا قبل ذلك ، وليس على سبيل التمثيل والتخييل إنه سمع النداء قبل ذلك على سبيل التحقيق ، وإذا كان الغزالى لم يفصح عن ذلك، فقد أفصح غيره . ولعل فى استشهادنا بكلام الجيلانى السابق وهو معاصر للغزالى ، خير معوان على الفهم فالجيلانى ولد سنة ٤٧٠ هـ وتوفى سنة ٥٦١هـ.

والنداء الذى يتحدث عنه الغزالى هنا هو النداء الأزلى الذى وجهه المولى عز وجل إلى البشر يقول " الست بربكم " كما جاء فى قوله تعالى :" وإذأخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم (ألست بربكم) قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون"([1]).

وقد مثل هذا النص دورا بارزا لدى صوفية الإسلام ، سواء قبل الغزالى أو بعده . والغزالى ليس بمعزل عن التراث الصوفى هذا ،وقد تمثله تمثلا كاملا ، حيث ذكر فى المنقذ أن حصل هذا العلم فهما وحفظا ، ولم يبق أمامه سوى أن يهضمه تجربة وتحققا .

([1]) الأعراف : ١٧١، ١٧٢.

وقد ذهب المتصوفة فى هذا النص القرآنى السابق فريقين : الأول يرى أن مشهد أخذ الميثاق والعهد على البشر ثم قبل نزولهم إلى الأرض ،وكانت الأنفس إذ ذاك فى غاية الوعى بذلك ، حتى أن أحدهم ليذكر أنه كان واعيا بمن كان عن يمينه وعن شماله من النفوس ، وأن عرف إذ ذاك من اساتذته وتلاميذه ،ومن يفتح عليه معهم منهم ومن لايفتح عليه بل إن من هذا الفريق من يقول إن هذا النداء مازال يرن فى أذنى فهو إذا نداء حقيقى ثم فى حالة وعى كامل من النفوس . فمن هذه النفوس من نسى هذا العهد واميثاق ، ومنها مازال يحفظ هذا العهد والميثاق. " وأما ماكان الأمر ، فإن الصوفية لم تقلقهم بعض الاعتراضات التى أثير حول فهم الآية على أنها تسجيل لإشهار حقيقى بين المخلوقات وبين الله جل جلاله فى مرتبة من الوجود تغاير المرتبة الحالية ، وعلى ذلك ففى رأى الصوفى أن كل روح أو كل نفس شاهدت ربها وأقرت بربوبيته ،وهذا الإقرار كان حتميا ، لأنها صنعته المباشرة، وهى فى عالم الحق ، لاتنطق إلا الحق ، تماما كما فى يوم القيامة، حين تشهد الجوارح على صاحبها ، أويصدق الكافر فى اصابته ".([1])

وهذا الفرق من الصوفية يشمل ذى النون المصرى ٢٤٥ هـ، وسهل ابن عبدالله التسترى ٢٨٣ هـ ، ويرى هذا الفريق – كما سبق – أن النفوس كانت فى كامل وعيها وتمييزها ، وعلى ذلك فالآية تشير الى مشهد حقيقى وتجربة حية فيها عرفت النفوس ربها ، وهذا مايطلق عليه الصوفية (المعرفة الأصلية)أو (القديمة)،وإلى هذا اللون من المعرفة يشيرون فى بعض نصائحهم ، مثل قولهم : (لاتكونوا ابناء الدهر ، وكونوا أبناء الأزل)

([1]) جعفر، محمد كمال : التصوف طريقا وتجربة ومنهجا ،القاهرة ، دار المعرفة الجامعية ،١٩٨٠، ص ١٩٠.

ويريدون بذلك أن يوجه الإنسان اهتمامه وكيانه كله ليظفر بمثل هذا اللقاء المباشر الذى فيه يتلقى عن الله بلا واسطة ، أويظفر فيه بصفاء نفس ينطق عنه، وينزع إلى الله ولاشئ غير الله سبحانه "([1]).

أما الفريق الثانى ، فيقف على رأسه أبو القاسم الجنيد ٢٩٧ هـ وهو الملقب بسيد الطائفة ، ويرى هذا الفريق أن اللقاء بين الذات الإلهية والنفوس البشرية ، وإن تم قبل الهبوط إلى الأرض كما يرى الفريق، فإنه كان لقاء على سقوط اقل مما يراه الفريق الأول : ولذلك كان الإجابة على السؤال: ألست بربكم" إلا نتيجة لتدخل إلهى ، حتى إن الجنيد ليرى أنها إجابة تولاهما الله عنهم ، لأنهم كانوا فى حالة فناء تام ، بحكم قانون الحضرة الإلهية التى لايقف أمامها أى كائن إلا أن يشاء الله ، فيهب تلك التقوى مابها تقوى على روعةا للقاء"([2]).

ويعلق الدكتور محمد كمال جعفر على اختلاف وجهتى النظر لدى هذين الفريقين فى طبيعة اللقاء بين النفوس البشرية والذات الإلهية بأن إيجابية اللقاء لدى الفريق الأول، وعدم ايجابيته لدى الفريق الثانى بأن أخذ الميثاق من أجهل إقرار البشر بالربوبية ، لدى الفريق الأول وبذلك تقتضى الربوبية مربوبا فلابد اذن من ايجابية المربوبين فىشهادتهم بها ، أما الإقرار لدى الفريق الثانى فهو إقرار بالوحدانية ، والوحدانية تقتضى الفناء لتلك النفوس فلا يبقى إلا الله.([3])

([1]) المرجع السابق : ص ١٩١.

([2]) المرجع السابق : ص ١٩٤.

([3]) المرجع السابق : ص ١٩٨.

وإذا ماعدنا إلى الغزالى فى رمزيته الموجزه جدا ، فإن من السهل علينا قراءة مايريد أن يقول من خلال هذه العبارات القصيرة فى هذا الصدد " أترى هل كان بين الراجع إلى تلك الجزيرة ، وبين المبتدئ من فرق؟ إنما قال : جئنا ملكنا ، من كان مبتدئا ، أما من كان راجعا إلى عيشه الأصلى (ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى) فرجع لسماع النداء . كيف يقال له : لم جئت ؟ فيقول : لم دعيت ، لا ، بل فيقول : لم حملت إلى تلك البلاد ، وهى بلاد القربة ، والجواب على قدر السؤال والسؤال على قدر التفقه ،والهموم بقدر الهمم".

وكان الغزالى يجمع فى هذا النص المركز من قصته بين الفريقين السابقين،ولو أن استاذنا الدكتور جعفر تنبه إلى هذا النص لتبين له أن الفرق بين الفريقين ليس راجعا إلى الربوبية أو الوحدانية ، لأن الآيتين الكريمتين ناطقتان بالربوبية والوحدانية معا وإنما الفرق بينهما يرجع إلى أن الفريق الأول أكد فى الوصول من الأول فالأول شاهده مشاهدة حقيقة واضحة لا مجال فيها لأى تأويل ، أما الفريق الثانى فهو الفريق الذى مازال على أعتاب الحضرة ، ويرمز إليه الغزالى بالمبتدئ، أما الفريق الذى وصل إلى غاية (التمكين) فقد كان راجعا إلى عيشه الأصلى إلى الحالة الكاملة التى وعاها وعيا كاملا عند أخذ الميثاق ، ولعلنا لو أصغينا إلى هذا النص الآتى جيد ، فربما نحلت بعض الألغاز فى قصة الغزالى ، أنه يقول صراحة " من هنا يترقى العارفون من حضيض المجاز الى ذروة الحقيقة ، واستكملوا معراجهم، فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس فى الوجود إلا الله ، وأن كل شئ هالك إلا وجهه ، لأنه يصير هالكا فى وقت من الأوقات ، بل هو هالك أزلا وأبدا ، إذ لايتصور إلا كذلك ، فإن كل شئ سواه ، إذا اعتبرت ذاته من حيث

ذاته فهو عدم محض ، وإذا اعتبر من الوجه الذى يسرى إليه الوجود من الأول الحق رؤى موجودا ، لا فى ذاته ، بل من الوجه الذى يلى موجده، فيكون الموجود وجه الله فقط ، ولكل شئ وجهان : وجه إلى نفسه ، ووجه إلى ربه ، فهو باعتبار وجه نفسه عدم ،وباعتبار وجه الله وجود ، فإذن لاموجود إلا الله ووجهه فإذن كل شئ هالك إلا وجهه أزلا وأبدا ،ولم يفتقر هؤلاء إلى قيام القيامه ليستمعوا نداء البارى : لمن الملك اليوم ! لله الواحد القهار، بل هذا النداء لايفارق سمعهم أبدا".([1])

ولذلك يعقب الغزالى على هذا الكلام بالدعوة إلى تجديد العهد بطور الطيرية ، لأن هذا العهد قديم سابق ، فيحتاج إلى تجديد ، والغريب أن الغزالى يصف هذا العهد بالحلاوة ، وبالطيرية ويحرص على أن يكون هذا التجديد مصحوبا بدوام الوضوء ومراقبة أوقات الصلاة ، ومن ثم فإن هذا الوصول ، وهذه المعرفة لاتتم إلا فى الإطار الشرعى.

****

([1]) الغزالى : مشكاة الأنوار ، ضمن مجموعة القصور العوالى ، مرجع سابق ، ص ١٩٦.

الفصل الرابع

منطق الطير لفريد الدين العطار

١- التمهيـــــد .

٢- قصة منطق الطير (النظرة العامة).

٣- عرض القصة (ملخصة)

٤- التحليـــــل.

منطـق الطيـر
لفريد الدين العطــار (ت ٦٢٧هـ/١٢٣١م)
(التمهيـــــــد)

فريد الدين أبوحامد محمد بن أبى بكر إبراهيم بن أبى يعقوب إسحق العطار ولد بمدينة نيسابور وتوفى بها.

حياة هذا الصوفى حياة حافله ، غير أنا لمؤرخين الذين أرخو له حالهم شديدة العجب ، فقد اختلفوا حول اسمه وحول لقبه وحول أسماء أجداده ، وحول سنة ولادته ،وحول سنة وفاته .

ولم يقف الأمر فى اختلاف المؤرخين إلى هذا الحد ، بل إنهم تجاوزوا ذلك إلى مذهبه : هل كان سنيا أو كان شيعيا ، واختلفوا كذلك حول كتبه حتى أن البعض نسب إليه ماليه له .

ولعل أعظم من تعرض لهذه الاختلافات بالمقارنة والنقد والتمحيص هو الباحث النابه الدكتور بديع محمد جمعه فى مقدمة ترجمته لمنطق الطير وقد استطاع بصبر وأناه أن يستعرض اجتهادات المؤرخين قديما وحديثا حول مايتصل بهذا الشاعر الصوفى من سلسلة نسبه وتاريخ ولادته ووفاته ومؤلفاته، وإن كان الشك مايزال يحيط بهذه الأمور موضوع الاختلاف ، لكنه على أية حال جهد مشكور يفتح أذهان الباحثين علىضرورة الاهتمام بهذه الشخصية العجيبة ذات الشعر الفلسفى الصوفى الذى يعد استمرار لهذا الخط الرمزى الطيرى الذى أخذنا أنفسنا بتتبعه .

إن الذى انتهى إليه ذلك الباحث المجتهد بالنسبة لتاريخ ميلاد الرجل هو أنه ولد مابين سنتى ٥٤٥هـ و ٥٥٠هـ/ ١٠٤٩ هـ - ١٠٥٤م وأن وفاته على الأرجح كانت سنة ٦٢٧هـ/١٢٣١م ،وبذلك تكون حياته قد استغرقت مابين السبعة والسبعين ، والاثنين والثمانين عاما.

وأغلب الظن أن السبب فى عدم اتفاق المؤرخين الذين كتبوا عن هذا الشاعر الوفى ، هو أنه كان بعيدا عن الحكام والسلاطين ،ولذلك لم يؤثر عنه أنه مدح حاكما أو مسئولا من أركان الدولة التى عاش فى كنفها ، كما أنه لم يهد أى كتاب من كتبه إلى أحد من هؤلاء([1]).

ويستدل على ذلك بأن جاء فى أحد أبيات (منطق الطير) ماترجمته: شكرا لله ، فلم ألجأ إلى قصر ، ولم أكن ذليلا لكل حقير.([2])

ومن هنا لم يكن مثل الغزالى الذى تولى أعلى مناصب التدريس فى زمانه فى نظامية بغداد ، ونظامية نيسابور ،وأن ذلك كان بأمر الوزير نظام الملك نفسه وزير السلطان ملك شاه فى عهد الخليفة العباسى المستظهر بالله كما أنه ألف كتابه فى الرد على الباطنية كرسوما باسم هذا الخليفة اذ سماه (فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية). ولذلك لم يختلف الناس حول تاريخ ولادته أو تاريخ وفاته .

أما هذا الشاعر الصوفى ، الذى احترف مهنة العطارة والطب وراثة عن أبيه ثم انخرط فى طريق التصوف والعزلة بعيدا عن الخلق وإفراغ

([1]) جمعة، بديع محمد : مقدمة منطق الطير ، بيروت ، دار الأندلس ، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .

([2]) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

مواجيده شعرا فلم يكد يأبه به أحد ممن عاصروه إلا من كان يسير على ديدنه من مشايخ التصوف الذين لايعنون بالشهرة وانتشار الصيت . كل ذلك حال دون الوقوف الدقيق على كثير من معالم حياته .

بل إن التخمينات والخبط الكثير قد تجاوز ذلك إلى الحديث عن أولاده ....، وقصة تحوله من مهنة الطب والعطارة إلى التصوف وكان شخصية العطار ، قد تحولت إلى مايشبه الأسطورة.

والا عجب من ذلك أن قبره لم ينج من هذه الأساطير ، فعلى حين أن انتاجه الفكرى شعرا أو نثرا يوضح أنه كان سنيا شافعيا فيغير تعصب ، فإن الكتابات التى خطت على قبره بعد وفاته بزمن طويل تشى بتشيعه ، وتقول هذه الكتابات :" اللهم صلى على النبى الوصى والبتول والسبطين وزين العباد والباقر والصادق والكاظم والرضا والتقى والنقى والعسكرى والمهدى صلوات الله عليهم".(1)

ومن الواضح أن هذه أسماء الأئمة الاثنى عشر وآخرهم المهدى المنتظر واذا كان العطار فى معظم دواوينه يذكر الخلفاء الأربعة بلا أدنى تمييز بينهم ، وهذا عكس مايقول به أتباع المذهب الاثنى عشرى على الخصوص والشيعة على العموم ، فإنه فى بعض هذه الكتب قد أزيلت هذه العبارات كما أن بعض المستشرقين ممن يودون اتساع الهوة بين فرق

---

(1) المرجع السابق ، ص ٤٥، ٤٦.

المسلمين يذهبون إلى إن فعل العطار هذا من إشادته بالخلفاء الأربعة إنما كان منه تقية.([1])

أما دخوله فى الطريق الصوفى، وتركه لمهنة الطب والعطاره فقد حبكت أساطير حولها ، وهذا ولاشك من فعل من يتشبثون بالأولياء تكسبا وجريا وراء العرض الدنيوى ،ولذلك نسجون حول مشايخهمقصصا تبين ماكان لهم من كرامات فالمعروف أن العطار قد عاصر اجتياح التتار لمدينة نيسابور ، وقد أنزلوا بأهلها مذبحة بشعة ، شأنهم فى كل مدينة إسلامية استولوا عليها . وكان ذلك سنة ٦١٨هـ/١٢٢٢هـ فادعى البعض أنه قتل على أيدى جنود التتار فى حادثة درامية لاتحدث الا للأولياء أصحاب الكرامات.([2])

أما ماحكى عن حادثة تحوله الى التصوف فان عبدالرحمن الجابى فى كتابه نفحات الأنس يروى قصة ، لاتتلاءم على مع أصحاب الكرامات الكبار ، ولا تذكرنا إلا بقصة إبراهيم بن أدهم يقول :" ذات يوم كان العطار فى دكان عطارته فجاءه هناك فقير ،وقال له عدة مرات : اعطنى شيئا لله، فلم يأبه بالفقير . فقال القير : أيها السيد، كيف تموت ؟ فقال العطار : كما ستموت أنت . فقال الفقير : أيمكنك أن تموت مثلى ؟ فقال العطار : نعم فوضع الفقير تحت راسه وقال : الله ! وأسلم الروح، فتغير حال العطار وتخلص من

([1]) المرجع السابق ، ص ٣٤، ٤٥ . وانظر أيضا : شاه ولى الله الدهلوى : مختصر التحفة الأثنى عشريه ، ص ٤٦.

([2]) جمعة، بديع محمد : مقدمة منطقة الطير ، مرجع سابق ، ص ٤٣،٤٢.

متجره تـوا وجـاء الـى هـذا الطريـق "([1]). ويعلـق الدكتـور جمعـة علـى هـذه الرواية بأن ذلك مشكوك فيه ، لأن العطار كان متعلقـا بـالتصوف منـذ نعومـة أظفاره بدليل ماذكره العطار نفسه فى مقدمة كتابه (تذكرة الأولياء) كمـا أنـه ألف بعض أشعاره الصوفية الأخرى ، وكان مايزال فى دكان عطارته([2]).

أما عن ثقافة هذا الشاعر الصوفى فهى لاشك تتلاءم مع ثقلـه الذهبـى والشـعرى ، فهـو صوفـى أولا وشـاعر ثانيـة ، ولايمكـن إلا أن يكـون قـد ألـم بمختلف الاتجاهات الصوفية لا من سبقوه ،بالاضافة الى معاصرين ، خاصـة أن عصره كان عصرا مليئـا بـالقلق ،ويكفـى أن عـاصر اجتيـاح التتـار للعـالم الإسلامى ولاشك أن مقدمات هذا الاجتيـاح لهـا مالهـا مـن الآثـار الاجتماعيـة والثقافية والسياسية والفكرية عامة مامن شأنه أن يكون إرهاصا بهـذه الكارثـة الأليمة ولكل ذلك يتلاءم مع ارتداد الإنسان صاحب السيرة الصافيـة إلـى ذاتـه واللجوء إلى الخلوات ،والتفكر فى ملكوت السموات والأرض. أما كونـه كـان شاعرا ، فذلك يحتاج إلـى إعـداد ثقـافى غيـر عـادى ، ومـن هنـا لاتعجـب إذا وجدنا فى شعره ، وفى تصوفه مايشى بأنه كان على بصيرة واعية بالتـاريخ والفقه والحديث فضلا عن القرآن الكريـم حفظـا ودراسـة . أضـف إلـى ذلـك مايشـهد بـه كتابـه تذكـــرة الأوليـــــاء وكتابـه منطـق الطـير مـن قصـص واحـداث تنـم عـن بصـره بـالمذاهب والديانـات والمذاهـب وأخبـار الرجـال مالايستهـان بـــه.

([1]) جامى : نفحات الأنس ، تعريب النقشبندى ، مخطوطـة بـدار الكتـب المصريـة ، ج : ٩٧٩٥ ، ورقة : ٣٦١ ، نقلا عن بديـع محمـد جمعـة ، مقدمـة منطـق الطـير ، مرجـع سابق ، ص ٢١ .

([2]) المرجع السابق ، ص ٢٢.

واذا كان الغزالى ، يسبب اتساع تأثيره قد الصقت به رسائل وكتب لاتتفق مع مشربه الدينى والسياسى ، سعيا من هؤلاء الذين فعلوا ذلك إلى بيان أنه بالرغم من عداوته لهم فى كتبه المشهوره ، إلى إثبات أنه رجع عن آرائه فيهم ، أوأنه كان له مذهبان أحدهما للعامة ، والآخر للخاصة ويعنون أنفسهم بأنهم هم الخاصة.(1) فقد حدث نفس الشئ بالنسبة للعطار فبالرغم من أنه كان سنيا شافعيا على نحو ماسبق ، فإنه نسبت إليه كتب تثبت تشيعه وإشادته .... بعلى بن أبى طالب ، وماذاك إلا لتقل وزن الرجل علما وثقافة وتأثيرا فيما جاء بعده من أجيال .

أما موقفه من الفلسفة ، فانه يشبه الغزالى إلى حد بعيد ، ويخيل إلى الباحث أن أثر الغزالى فى موقفه من الفلسفة والفلاسفة ، قد امتد أثره إلى العطار ، وإن لم يقف تأثير الغزالى فيه عند هذا الحد ، بل تعداه إلى أمور أخرى لعل أهمها مانحن بصدده من هذه القصة الرمزية (منطق الطير) التى ربما لاتكون سوى اسهاب لما ركزه الغزالى فى قصته التى سبق الحديث عنها. بل إن الباحث قد لايتجاوز الحقيقة ، اذا ماذهب إلى أن المشرب الصوفى نفسه يكاد يكون واحدا عند الرجلين.

الغزالى عبر فى أكثر من كتاب عن رأيه فى الفلسفة والفلاسفة فى (التهافت) وفى (المنقذ) وغيرهما ، أما العطار ، فكان موقفه شعرا ،ولذلك

---

(1) انظر عبدالرحمن بدوى : مؤلفات الغزالى ، مرجع سابق ، ص ٥٢٧-٥٥٠ وانظر كتابه الغزالى : المضنون به على غير أهله ، ضمن مجموعة القصور العوالى ، مرجع سابق ، ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ حيث يذكر أنه من الممكن الاستشفاع بأولاد النبى " ولو بعد توالد وتناسل ...".

فتوقع أن يكون ذلك إشارات ، وخطرات ، دون أن يكون ذلك منهجا علميا منظما تضمه دفتا كتاب .

لم يقتصر العطار على مجرد رفض الفلسفة ، بل إنه فضل الكفر عليها ، وهذا طبعا من دواعى التعبير الشعرى فهو يقول ماترجمته بن منظمة منظومة الطير:

- كيف تعرف عالم الروحانيين من بين حكمة اليونانيين ؟

- ولن تكون رجلا فى حكمة الدين إن لم تفارق هذه الحكمة .

- وكل من يحمل هذا الاسم (أى فيلسوف) فى طريق العشق ، فلن يكون خبيرا فى مجال الدين بالعشق .

- وبجق المعرفة ، كم أفضل هنا كاف الكفر على فاء الفلسفة.(1)

ولعل تفضيل العطار الكفر على الفلسفة - كما سبق - من باب المبالغة الشعرية لأنه يعود فيقرر ان علوم الدين أفضل بكثير من الفلسفة فهو يقول أيضا فى منطق الطير:

- ويكفى رجل الدين حكمه ، السيرة(المحمدية) ، فانثر التراب على مفرق اليوانيين من طريق الدين.(2)

ويكاد العطار يترسم خطا الغزالى فى موقفه من علوم عصره ، ونحن نعلم أن موقف الغزالى من علم الكلام كان أخف من موقفه من الفلسفة، فإنه قرر فى المنقذ ان علم الكلام غير واف بمقصوده ، وإن كان وافيا

---

(1) جمعة، بديع محمد : المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(2) المرجع السابق ، ص ٣١.

بمقصود الآخرين بل إنه لايشك فى ذلك ، اما العطار فانه يقرر أن علم الكلام يقطع الطريق على السالك طريق التصوف ، ولذلك يقول فى منطق الطير أيضا :

- ولكن إن يقطع علم الجدل الطريق ، فهو هكذاكثيرا مايقطعه على العارفين.([1])

والعطار - كما ألمحنا قبلا - يترسم خطا الغزالى ، حتى فى المذهب الصوفى فهو لم يلتزم بطريقة معينة ، ولم يغتم إلى طائفة من طوائف الصوفية، بل إنه سلك الطريق معتمدا على استيعابه لعلوم المتصوفة ، مقتديا بسلوكهم التى أهمها التنصل من العلائق الدنيوية والتخلى بالأخلاق الحميدة ، ثم الخلوة ومراعاة الأوراد ، ولم يمنعه ذلك من الاتصال ببعض متصوفة عصرة أو الاشادة ببعض السابقين من رجال التصوف .

أما مؤلفاته ، فقد كثر حولها الكلام، وتضاربت حولها الآراء ، شأنها فى ذلك شأن بعض معالم حياته - كما سبق الكلام عليه - حتى أوصل البعض هذه المؤلفات إلى مائة وأربعة عشر كتابا بعدد سور القرآن الكريم، وبعضهم أوصلها إلى ثلاثين وآخرون أوصلوها إلى ستة وستين . ولكن بعض الباحثين العرب بعد الفحص والنقد أوصلوا هذه المؤلفات التى وصلتنا الى تسعة كتب فقط كلها منظومات عدا واحد هو (تذكر الأولياء) وهذه الكتب هى :

١- تذكرة الأولياء	٢- أسرار نامه
٣- إلهى نامة	٤- يند نامه

([1]) المرجع السابق ، نفس الصفحة.

٥- خسرو نامه ٦- الديـوان

٧- مختار نامه ٨- مصيبت نامه [1]

٩- منطق الطير

وجميع هذه المؤلفات بالفارسية ، وقد ترجم بعضها إلى العربيـة ومـن هذه المؤلفات المترجمة إلى العربيـة (منطـق الطـير) الـذى ترجمـه الدكتـور بديع محمد جمعة مع مقدمة قيمة حول المؤلف ومضمون الكتاب .

****

---

(1) المرجع السابق ، ص ٥٠ .

قصة (منطق الطير)

النظرة العامة :

لقد نظم العطار قصته هذه شعرا - كما سبق -وقد جاءت فى أربعة آلاف وستمائة وسبعة وأربعين بيتا وطبقا للترجمة العربية([1]) وقد تابع فيها صاحبها نظام (المثنوى) بحيث يتفق شطرى البيت الواحد فى القافية دون التزام هذه القافية فى بقية الأبيات، كما أن وزن الأبيات من بحر الرمل الذى يتكون البيت فيه من ست تفعيلات كل شطر ثلاث منها هى : فاعلاتن .

وقد قسم العطار قصته ثلاثة أقسام هى : المقدمة، والموضوع، والخاتمة . وإن لم يطلق اسم الموضوع علىالقسم الثانى ، ولكنا اعتبرناها كذلك لأن هذا القسم الثانى هو المشتمل على لب القضية وموضوعها .

وقد جاءت المقدمة مشتملة على عدة موضوعات فرعية فقد بدأها بالمناجاة وهى حمد الله تعالى ، ثم انتقل الى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم مدح الخلفاء الأربعة ، ثم تحدث عن ذم التعصب بين السنة والشيعة، ثم عرض لحديث بين عمر بن الخطاب وأويس القرنى ، ثم ذكر ماحدث بين على وقاتله ، ثم ذكر حديثا للرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم

([1]) يختلف عدد الأبيات باختلاف النسخ ففى نشرة باريس ١٨٥٧ م يصل العدد إلى نفس العدد أعلاه ، لأن المترجم العربى اعتمد علىهذه النسخة ، أما فى ترجمة استنبول ١٩٦٢م. فيصل العدد إلى ٤٩٣١بيتا، ونسخة أصفهان ١٣١٩هـ يصل العدد إلى ٤٧٠٣ بيتا، أما نسخة أصفهان ١٣٣٤ هـ فعدد أبياتها ٤٧١٧ بيتا.

انظر :جمعة، بديعة محمد ، مقدمة منطلق الطير ، ص ٥٦.

تحدث عن شفاعته صلى الله عليه وسلم .وكأن هذه المقدمة بمثابة الخطبة التقليدية فى أول الكتاب .

أما الموضوع الرئيسى للقصة فقد جاء فى خمس وأربعين مقالة ..

الأولى : تتحدث عن اجتماع الطيور للبحث عن سلطان لهم .

الثانية : تتحدث عن اقتراح الهدهد على الطيور أن تختار (السيمرغ) وتذهب اليه ليكون له ملكا ،ويحدثهم عن هذا (السيمرغ).

من المقالة الثالثة إلى المقالة الثانية عشرة : عرض الاعذار التى تقدمت بها ثلة من الطيور بسبب عدم قدرتها على خوض غمار الطريق إلى السيمرغ : البلبل ، الببغاء ، الطاووس ، البطة ، الحجلة ، الهما ، الصقر ، مالك الحزين ، البومة ، الصعوة . عشرة طيور اعتذرت عنرغبتها فى هذا الفرع الشاق إلى السيمرغ ، وكل عذر لطائر من هذه الطيور استغرق مقالة من المقالات.

المقالة الثالثة عشرة: تتحدث عن أعذار جميع الطيور فى عدم قدرتها على السفر الى السيمرغ.

المقالة الرابعة عشرة: تتحدث عن بداية اقتناع الطيور بإمكان السفر ثم سؤالهم الهدهد عن الكيفية .

المقالة الخامسة عشرة : تبين تمام اقتناع الطيور بضرورة السفر ، ثم نادوا بضرورة اختيار قائد لهم بالاقتراع ، فوقعت القرعة على الهدهد .

المقالـة السادسـة عشـرة : تبيـن أن ثمـة بقيـة مـن تـردد فـى أنفـس الطيور فيسألون الهدهد مزيدا من الأسئلة عن أحوال الطريق ، فيقـف الهدهـد يفهم خطيبا .

مـن المقالـة السـابعة عشـرة إلـى المقالـة الثامنـة والثلاثيـن: سـرد بعض أعذار لمجموعة من الطيور مابين اعتراض وبيـن استفسـار ، علـى أن المقالة الأخيرة مـن هـذه المجموعـة وهـى رقـم ٣٨ قـد قسـمت قسـمين الأول خاص بحكاية عـذر أحـد الطيـور ، والثـانى عـن بدايـة الراحلـة وهـذه البدايـة اسمها (وادى الطلب ، وهذا الوادى هو أول الأودية السبعة التى سيتم سـردها تباعا فى المقالات التالية .

فالمقالة التاسعة والثلاثون : تصف وادى العشق .

والمقالة الأربعون : تتحدث عن شرح وادى المعرفة .

والمقالة الحادية والأربعون : تشرح وادى الاستغناء.

والمقالة الثانية والأربعون : تصف وادى التوحيد .

والمقالة الثالثة والأربعون : تصف وادى الحيرة.

والمقالة الرابعة والأربعون : تصف وادى الفقر والغناء.

والمقالة الخامسة والأربعون : تستعرض اتجاه الطيور الـى حضـرة السيمرغ ثم مثولها أمامه .

وأخيرا تأتى خاتمة الكتاب .

عرض القصة (ملخصة)

لم يكن من الممكن نقل النص كـاملا هنـا ، كماهوالحـال فـى (رسـالة الطير) لدى كل من ابن سينا والغزالى ، إذ إن هاتين القصتين كانتا فى غايـة الإيجاز ، وإن كانتا تحملان معانى وأفكار غزيرة ، أما (قصة منطـق) عند العطار فقد جاءت طويلـة مفرطـة فىالطـول ، فهـى أشبه الملاحـم منهـا بفـن القصة ، خاصة أن الناظم قد حشد فيهـا مـن الحكايـات الكثيـرة بيـن المقـالات المشار إليها سلفا ، وبعض هذه الحكايات تستغرق صفحات طوالا مثل (حكاية الشيخ صنعان وعقدة الزنار لعشقه الفتاة المسيحية). ولذلك فإنـه مـن الأوفـق اللجوء إلى التلخيص لكل هذه الموضوعات ، حتى يتلاءم ذلك مع طبيعة هـذا البحث .

ففى رأى الباحث أنه بالرغم من طول النص ، فإنه لايكاد يأتى تجديـد عما جاء فى رسالة الغزالى ، وكما سبق ، فإن ماأوجزه الغزالـى فـى رسـالته قد شرحه وبينه فى كتبه الأخرى . وللوهلة الأولى يمكن الوصول إلـى نتيجـة مؤقته وهى أن تفاصيل العطار المسهبة ليست إلا ماشرحه الغزالى فـى سـائر كتبـه ورسـائله الصوفيه ، والجديـد عنـد العطـار هـو ذلـك الإطـار الشـعرى، والحكايات المشوقه والخـط الـذى يقترب مـن الخـط الدرامـى بمفهومـه الفنـى الأدبى.

التقديم : ويشمل الأبيات من (١) الى (١٩٨).

يحمد الله على مختلف نعمـه الظـاهرة والباطنـة السـماوية والأرضيـة والإنسانية والحيوانية والمعدنية والمائية والنباتية . بل إن الله هـو الكـون وإن

كان غيره ، أو أن الكون هو الله وإن كان سواه ،ولامعرفة للإنسان بالكون إلا بالله " ولتعرف الله بالله لابنفسك ، فالطريق إليه من لايعقلك " " وليس لإنسان قط علم به ولا عرفان ، فتخل عن نفسك فهذا أصل الكمال ، وكفى ، وافن نفسك ، فهذا عين الوصال ،وكفى ، فلتفن نفسك فيه حيث فى الغناء الخلود، ثم يدعوا الله أن يخلصه من حيرته ، وأن يهديه الطريق ، فكل من حاز البقاء فى حضرة المولى أصبح سعيدا ، بعد أن فنى فيه ، واصبح بنفسه غير مكترث .

ثم يورد العطار حكاية من حكم عليه بالإعدام وهو جائع فأعطته زوجة الجلاد كسرة خبز وعندما علم الجلاد بذلك امتنع عن قتله لأن من أكل خبزه حرم عليه قتله.

ويتبع العطار دعاءه الى الله يتناسب مع هذه الحكاية وتستغرق الحكاية الأبيات من ١٩٩ إلى ٢٤٣.

فى نعت سيد المرسلين (٢٤٤-٣٨٧):

يبدأ كلام فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه سيد الدنيا والدين وصدر العالمين وبدرهما ، ويسترسل فى ذلك ، فينتقل إلى الحديث عن النور المحمدى ، وأن هذا النور هو قطعة من النور الأكبر ،/ نور الله، وأنه خلق قبل أى خلق ، وأن بقية الخلق فيض من نوره العرش والكرسى والسماوات والأرض بما فيهما ومن فيهما قبسة من النور المحمدى .ولذلك فهو أفضل الأنبياء والمرسلين ، وشرعه ناسخ كل الشرائع ، وأمته العالم أجمع ، وعلما أمته كأنبياء بنى اسرائيل ... ثم يطلب من الرسول صلى االله عليه وسلم الشفاء والتعطف والترفق به .

ويردف ذلك بحكاية الطفل الذى سقط فى اليم فألفت أمه بنفسها وراءه حتى أنقذته (٣٨٨ - ٤٠٥) ويتابع هذه الحكاية بأن يشفق عليه النبى شفقة الأم بوليدها .

فى مناقب أمير المؤمنين أبى بكر الصديق[1]: (٤٠٦-٤١٨)

ثانى اثنين وصديق الرسول ، مكانته نابعة من حكمته ، تمنى عمر أن يكون شعرة فى صدر أبى بكر .

فى مناقب أمير المؤمنين عمر (٤١٩-٤٣٠):

سيد الشرع . من ختم به العدل والإنصاف ، اذا تكلم فالحقيقة على لسانه وتخرج سافرة من قلبه ، أحيانا كانت روحه تخترق من ألم العشق ، كما كان لسانه يخترق من نطقه بالحق .

فى مناقب أمير المؤمين عثمان (٤٣١-٤٤٣):

سيد النورين ذلك الذى غرق فى بحار العرفان ، صدر الدين عثمان بن عفان بحر التقوى والحياء ، وكنز الوفاء ، قال الرسول : إن الحق تعالى لن يجرى مع عثمان أى حساب . وضع الرسول يده بدلا من يد عثمان يوم بيعة الرضوان لأنه لم يكن موجودا فتمنى غيره أن لم يكن موجودا مثله.

([1]) يلاحظ أن أبا بكر رضى الله عنه لم يلقب بلقب أمير المؤمنين ، بل لقب فقط بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما أول من لقب بذلك فهو عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

في مناقب أمير المؤمنين على المرتضى :(٤٤٤-٤٥٦)

قريـن البتـول وابـن عـم الرسـول ، السـيد المعصـوم ، صـاحب سـر " سلونى "[1] ومن قال فيه الرسول :" أقضاكم على " ، ومرجع اليـد المقطوعـة إلى صاحبها ومحطم الأصنام حول الكعبة ، وماوجد له صفيا بين الخلق.

فى تعصب أهل السنة والشيعة : (٤٥٧-٥٠٢)

يقرر أن التعصب نتيجة للجهل ، فلو كان لأبى بكر وعمر رغبـة فـى الخلافة فلمـاذا لـم يعطياهـا مـن بعدهمـا لابنيهمـا؟ ولـو كـان سلب الحـق مـن أصحابه ، فلماذا سكت بقيـة الصحابـة ؟ بـل إنهـم وافقـوا ،فلـو كـان الصحابـة كاذبين، لكان فى ذلك إنكار أحاديث رسول الله صلـى اللـه عليـه وسـلم ، فـى مدح الصحابة ، لو كان لدى أبى بكـر رغبـة فـى الخلافـة لمـا قـال: أقبلونـى، ولوكان لعمر كذلك لما قتل ابنه بالدرة وعمر الذى عاش زاهدا لايتفق ذلك مع رغبته فىالخلافة ، ولم إذن كا نصيبيه أسمال الدراويش ؟

ويردف ذلك بحكاية حديث بين عمر وأويس (٥٠٣-٥١١) يبين فيها إعراب عمر لأويس عن رغبتـه فـى التخلـى عـن الخلافـة ، فينصحـه أديـس بالبقاء .

بين على وقاتله : (٥١٢-٥٢٢)

لما سدد الغادر ضربته إلى علـى وأقبـل النـاس يسـقونه ، أصـر علـى على أن يبدأوا بسقاية قاتله لأنهما سيكونان قرينين فىالجنة . ويستنتج العطـار من ذلك أنه إذا كان هذا هو موقـف علـى مـن قاتلـه فكيـف يكـون موقـف مـع

([1]) إشارة إلى مايروى عنه :" سلونى قبل أن تفقدونى".

صديقه ؟ العتيق (أبىبكر) ومادامت الحياة فلن يخلق الله حبيبا للصديق مثل على ، وهل يمكن أن يقع ظلم على أمد الله؟

حديث محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام : ٥٢٣-٥٣٨)

يدور هذا الموضوع حول حديث للرسول صلى الله عليه وسلم أنه طلب من أحد الصحابة ماء من بئر ، فوجد هذا الصحابى البئر دما ، لأن عليا بث فيه اشجانه ، ويستنتج العطار من ذلك أن من هذا شأنه لايتسع قلبه لحقد ، وإذا كان قد اضطر لمواجهة جيس عائشة فى وقعة الجبل ، فأجرى به أن يكون فى إمكانه مواجهة أبيها لو كان قد ظلمه .

ويردف العطار ذلك بثلاث حكايات تشمل الأبيات من ٥٣٩ إلى ٥٧٠.

الأولى: حول شجاعة على ، **والثانية** حول الهول والعذاب الذى أصاب بلالا ،ومع ذلك لايرى العطار من المتعصب الشيعى ذما فى عابد من عبدة الأصنام بل ذما فى صحابة رسول الله .

الثانية: تدور حول تضحية على بنفسه بمبيته مكانه ليلة الهجرة ، وبتضحية أبى بكر بنفسه بمصاحبته فى الهجرة . ويعقب بحيدث عن رابعة العدوية التى لم تشغل نفسها إلا بالله ولم تشغل نفسها بموالاة هذا أو التبرؤ من ذاك .

قول فى شفاعة الرسول عليه السلام من أجل أمته : (٥٧١-٥٩٢)

أراد الرسول صلى الله عليه وسلم من الله أن يطلعه علىذنوب أمته فقال له الله : لن نستطيع تحمل ذلك ، لأنك قلما تجد طاهر ذيل ، فإن كان الأمر كذلك بالنسبة للمصطفى فكيف بك أيها المتعصب ، فأولى بك إما أن

تكون فى الصدق مثل الصديق ، أو فى العدل مثل عمر ، أو فى الحياء. مثل عثمان ، أو مثل الحيدر بحرا فىالجود والعلم.

إلهى، ليس لدى هذا الفضلو ، فليحفظنى من التعصب على الدوام، ولتطهر قلبى من التعصب ، وإلا ، لا كانت هذه القصة فى ديوانى.

بهذا الحديث ختم العطار (التقديم).

ثم بداية الموضوع الأصلى للديوان :

المقالة الأولى :

فى اجتماع الطير : (٥٩٣-٦٥٧)

يتحدث العطار عن اجتماع الطيور طواعية طالبين البحث عن ملك لها ويحددهم الشوق والهيام فقام الهدهد خطيبا فيهم وأخذ يوجه كلامه إلى كل طائر منها على حدة بما يوافق طبعه وقدره علىقدر ذكره فى النصوص الدينية أو النصوص الأسطورية ، ويطلب من كل واحد من هؤلاء الطيور أن يجعل الحق مقصد.

المقالة الثانية :

حديث الهدهد مع الطيور فى طلب السيمرغ (٦٥٨-٧١١)

لما اجتمعت الطيور والحث فى ضرورة البحث عن ملك لها لأن الحياة بلا ملك ضلال ، قام الهدهد كذلك وأخذ يصف نفسه عبر التاريخ القديم مبينا أنه يمتاز بالمعرفة وأنه رسول الحضرة . وأكد أن للطيور ملكا يوجد خلف جبل قاف .

(السيمرغ) وهو منا قريب ،وإن كنا نحن عنه جد بعيدين. وعلينا أن نتخلص من نفوسنا بواسطة أرواحنا لنصل إليه، لأن مقره فوق شجرة عظيمة الارتفاع تكتنفه مئات الألوف من الحجب : بعضها من نور وبعضها من ظلمة، ولابد لسلوك الطريق إليه من إخوان أحباب .

ابتداء أمر السيمرغ :(٧١٢-٧٢٤)

إن السيمرغ مرت مجلوة الطلعة ببلاد الصين،وسقطت منها ريشة هيجت العالم ، وهى الآن محفوظة فى متحف بالصين ،ولذلك قال الرسول : اطلبوا العلم ولو فى الصين . عند ذلك زاد شوق الطيور إلى الرحلة ومع أن الكل عزم على سلوك الطريق إلا أن كلواحد من الطيور أخذ يسوق عذرا من الأعذار .

المقالة الثالثة :

عذر البلبل (٧٢٥-٧٣٥)

اعتذر البلبل عن الرحلة باكتفائه بمشاهدة عشق الوردة عن عشق السيمرغ . فأجابه الهدهد بأنه تعلق بالصورة الزائلة الذابلة ذات الأشواك .

حكايــــة: (٧٥٣- ٧٧٧)

مسكين تعلق بابنة ملك فاتنة الجمال ، فهدده حراسها بالموت ، ونصحته بالانصراف خوفا على حياته ، فلم يصغ لها ، فتركته وانصرفت عنـــــه .

المقالة الرابعة :

عذر الببغاء: (٧٧٨-٧٨٨)

قالت الببغاء لا شأن لى بالسيمرغ ، إننى أنشد ماء الحياة بعد طول السجن فى الأقفاص الذهبية ، فقال لها الهدهد : ينبغى طلب ماء الحياة من روح الحبيب . ولو بفداء الحبيب بروحك .

حكايـــــة : (٧٨٩-٧٩٤)

رجل مجذوب قابله الخضر ، فعرض عليه الخضر مصاحبته ، فرفض المجذوب قائلا : إنك شربت من ماء الحياة ، أما أنا فقد وهبت روحىأنثرها كل يوم .

المقالة الخامسة :

عذر الطاووس (٧٩٥-٨١٣)

اعتذر الطاووس عن سلوك الطريق إلى السيمرغ ، لأنه كان فى الجنة وأخرج منها فهو يسعى للعودة إليها .

فقال له الهدهد . إنك تسعى إلى جنة النفس ، أما دار القلب فغاصة بالصدق ، وحضرة الحق بحر خضم عظيم ، وقطرة صغيرة منه تساوى جنات النعيم.

حكايـــــة: (٨١٤-٨٢٢)

سأل طالب الأستاذ : لم خرج آدم من الجنة ؟ فأجابه : كان آدم قبل الهبوط إلى الجنة أعلى منزلة . إن كل من تعلقوا بالماديات سقطوا جميعا حتى ولو كانوا كآدم فى المنزلة .

المقالة السادسة :

عذر البطة (٨٢٣-٨٣٨)

خرجت البطة مغتسلة بالماء ، وقالت لاحاجة لى إلىمشقة طريق السيمرغ وانا أغتسل بالماء ،ولايمكننى البعد عن الماء فهو طهارتى ونظافتى.

فقال الهدهد إن الماء لايناسب إلى من كان دنسا ، فابحثى عن الماء ومهما كنت طاهرة نقية كالماء، فإن طلعتك شبيهة بطلعة كل دنس .

حكايـــة (٨٣٩-٨٤٥)

سأل رجل أحد المجازيب : ماحقيقة هذين العالمين مع هذا الخيال؟ قال: هذان العالمان قطرة ماء ، ولكن انظر إلى كل بناء أقيم على صفحة بالماء إنه مجرد خيال . فكيف يقام علىالماء أساس راسخ مستقل؟.

المقالة السابعة :

عذر الحجلة : (٨٤٦-٨٧١):

قالت الحجلة إن عيشى على حب الجواهر وأن عشقها يضرم النار فى قلبى فأنا بين الجواهر والناس ، ولا شان لى بالسيمرغ . أجابها الهدهد: إذا تلاشى لون الجوهر عاد حجرا إن عديم القيمة يصطبغ بلون ، أما عالى القيمة فليس به حاجة إلى لون ، والرجل الأصيل الجوهر لايبغى حجرا.

حكايـــة : (٨٧٢-٨٨٦)

لم يكن هناك أنفس من جوهر خاتم سليمان ، امتلك به الدنيا ، ومع ذلك فإنه طلب من اللـه ألا يعطى إنسانا آخر فصا ،وإختار صناعة الزنابيل،ومع أن هذا الجوهر مكن لسليمان فى الملك إلا أنه أصبح فى طريقه

عائقا، فخلص قلبك من الجوهر ياطالب الجوهر ، وكن جوهريا دائما فى الطلب .

المقالة الثامنة :

عذرا لهما : (٨٨٧-٩٠٣)

أنا رمز تنصيب الملوك ، فكل ملك لاينصب نفسه ملكا إلا فى ظلى فلا شأن لى بالسيمرغ . فأجابها الهدهد : يامن استبد بك الغرور ماعاد لك تنصيب الملوك فى هذا الزمان ، وحتى لو كان الأمر كذلك ، فسرعان مايزول ملك الملوك ، وإن لايرى ظلك ملك ، فأى بلاء تعيشين فيه إلى يوم الحساب .

حكايـــــة: (٩٠٤-٩١٤)

رأى رجل (محمود)([1]) فى المقام بعد موته ، فقال له : كيف حالك ياسلطان . فقال له : صه ليتنى لم أك سلطانا ، الحق هو السلطان ، إذا أردت ندائى ، فاسمى العاجز. فليضمر ريش تلك الهما وجناحاها .حيث أظلتنى بظلها .

المقالة التاسعة :

عذر الصقر : (٩١٥-٩٣٧)

جاء الصقر مفتخرا بأنه مرافق للسلاطين فى الصيد ،وقال : ليس لى حاجة بمقابلة السيمرغ ، فيكفينى ماأنا فيه من عز برفقه السلاطين . فأجابه الهدهد بقوله : ياعاشق المجاز والصوره ، السلطان الحق هو السيمرغ لأن

([1]) السلطان محمود الغزنوى.

أوامره تنفذ فى مختلف الأقاليم . أما السلطان الدنيوى فليس ... وفاء ، والسيمرغ هو صاحب الوفاء.

حكايــــة : (٩٣٨-٩٤٩)

كان هناك ملك ، وكان يعشق أحد الغلمان ، وذات يوم صوب الملك سهما إلى تفاحة وضعها فوق راس هذا الغلام فامتقع لون الغلام ، فسئل عن السبب فقال : إن أصابنى السهم أعلن الملك عدم التبعة ، وإن أصاب الهدف قيل: إن هذا من يمن طالع السلطان ، فأنا فى الحالين مهموم.

المقالة العاشرة :

عذر مالك الحزين : (٩٥٠-٩٧١)

جاء مالك الحزين ، وقال : إن كل همى عشق البحر أقف على شاطئه مغموما لأنى لا أستطيع ارتشاف قطرة منه ، ومع ذلك لا أفارقه ،وهذا يكفينى، ولاطاقة لى بمشقة السيمرغ ، فمن يكون أساسه قطرة ماء ، أنى له إدراك الوصول إلى السميرغ؟ فأجابه الهدهد :إن هذا البحر غدار فكيف تأمن له، مر ومالح وهائج وغضبان ومغرق ، دائما فى اضطراب شوقا للحبيب ، والحبيب الحق أولى وما البحر الا نبع من محيط عالمه ، فلم تقنع أنت بالتخلى عن وجهه؟.

حكايـــــة: (٩٧٢-٩٨٧)

سأل رجل ذو بصيرة البحر: لم هذا الهيجان ولباس الحزن الأزرق .
قال : إنى مضطرب لفراق الحبيب فإن أحظ بقطرة من ماء كوثره ، أعش إلى الأبد على أعتابه .

المقالة الحادية عشرة :

عذر البومة : (٩٧٩-٩٩٣)

أنا عاشقة الخرابات أبحث عن الكنز فى الخرابة ،ووقف العشق على السيمرغ خرافة فعشقى إنما هو للكنز فى الخرابة . أجابها الهدهد: يامن ثملت يعشق الكنز إن عبادة الذهب دليل الكفر ، فلا تكونى من قوم (السامرى) وكل قلب يصاب بالخلل من عشق الذهب ، صورته ستمسخ صورته يوم القيامة .

حكايـــة: (٩٩٤-١٠٠٠)

امتلك أحدهم حقامن ذهب ، ثم مات ، فرآه ولده فى النوم فأرا يحوم حول المكان ، فسأله ابنه عما يبحث قال : عن حق الذهب ، حتى لايمتلكه إنسان ، فسأله عن صورة الفأرية ، فقال كل من يعشق الذهب يمسخ كذلك .

المقالة الثانية عشرة :

عذرة الصعوة : (١٠٠١-١٠١٦)

جاء الصعوة واعتذرت بضعفها عن إمكانها الوصول إلى السيمرغ ، وقالت يكفينى أن أبحث عن يوسف فى البئر ، قال الهدهد : كفى خداعا ، ولاتشعلى نار الغيرة دواما ، حيث اصبح عشق يوسف على العالم حراما .

حكايـــة:(١٠١٧-١٠٢٩)

بسبب افتراق يوسف عن يعقوب ، حزن الأب عليه ، وظل يرد اسمه فجاءه جبريل ، وطلب منه عدم ذكر اسم ابنه ، فأطاع ، ومع ذلك يتردد الاسم بقلبه وفى الرؤيا أراد يعقوب أن ينادى ابنه ، لكنه تذكر الحظر ،

فخرجت منه زفرة ، ولما هب من نومه جاءه جبريل مخبرا إياه بأنه نقض التوبة وبسبب هذه الزفرة ، فانظر ماذا يفعل العشق بنا.

المقالة الثالثة عشرة :

أعذار الطيور كلها (١٠٣٠ - ١٠٦٩)

كان حال الطيور العجز والياس عن امكانية الوصول إلى السيمرغ. وهنا وجهت الطيور هذا السؤال إلى الهدهد : أخبرنا عن كيفية الوصول إلى السيمرغ بعد هذا العجز الذى بدى علينا. أجاب الهدهد : إن العشق غير مستساغ من سئ الطوية ، وجميع طيور العالم ماهو إلا ظل لهذا السيمرغ.

وكل من أدرك ذلك فليكن حذرا ، فحاشى لله أن تقول : أنا الحق ، ومع ذلك فأنت فى الحق دائما مستغرق. وكل ماله ظل هنا كان نتيجة ظهور ذلك الشئ هناك أولا ، وعليك أن تنظر فى قلبك فهو مرآة الحق.

حكايـــة : (١٠٧٠-١١٠٢)

كان ملك جميل لايقدر أحد على مشاهدة جماله ، وذات ليلة ساق جواده الأسود خارج المدينة ، وأسدل برقعا داكنا على وجهه، وكل من شاهده مات لتوه ،ولابد من النظر إليه ، إذ لايمكن الصبر معه ، ولا الصبر بدونه ، ولما لم يظهر من الخلق من هو جدير به فقد مات الجميع وقلوبهم مفعمة بالآلام . فى هذا الوقت أمر السلطان بإحضار مرآة قبالة قصره ، وصعد فوق القصر، ونظر فى التو فى المرآة ، حتى أدرك كل شخص منه علامة ، فإن ترغب فى رؤية جمال الحبيب ن فاعلم أن القلب هو مرآة طلعته . انظر إلهك فىقلبك ، وانظر العرش فيما هو كائن حولك ولكن إن تضل الطريق وسط

الظل فأنى لك أن تدرك السيمرغ ، وإن ترى الظل يتلاشى فى الظل على الدوام فسترى أنك أنت الشمس والسلام .

حكايـــــة: (١١١٠-١١٣٢)

مرض إياز غلام السلطان محمود ، فأرسل خادمه يسأل عنه لأنه لايطيق البعد عنه وطلب من الخادم الإسراع ، فأسرع الخادم كالبرق ، ولما وصل إلى إياز ، وجد السلطان محمود هناك ، فأقسم الخادم أنه أسرع فى الطريق ، فصدقه السلطان ، ثم قال للخادم إن لى طرقا خفية بينى وبين الناس ،أروح وأجئ منها ، وإن أخف سرى عن الشيخ والشاب فإن روحى فى ذهاب بيننا وإياب.

المقالة الرابعة عشر:

سؤال الطيور الهدهد فى قطع الطريق : (١١٣٣-١١٥٨)

لما سمعت الطيور هذا الكلام ، حتى أدرك الكل الأسرار القديمة ، ووجد الجميع نسبا يربطهم بالسيمرغ ، ثم سألوا الهدهد عن كيفية سلوك لطريق ، فأجابهم بأن العشق هو الذى يمكنهم من ذلك ، وفيه تنثر الروح فداء للمعشوق ،والعشق أعلى مكانة من الكفر والإيمان ، ولابد مع العشق من آلام، فالعشق يفتح طريقا نحو الفقر والفقر يظهر لك طريقا صوب الكفر .

حكايـــــة الشيخ صنعان وعقدة الزنار لعشقه الفتاة المسيحيــة (١١٥٩-١٥٦٤)

كان الشيخ مجاورا للكعبة خمسين عاما وله مريدون من أحبابه وتلاميذه ، ولكنه ذات مرة رأى فى المنام أنه يلبس الزنار ويسجد للأصنام ، وتكررت هذه الرؤيا مرات ، فأخبر أصحابه بأنه لابد من الذهاب إلى بلاد

الروم ، فتبعوه ، حتىوصلوا هناك، حتى وقعت عيناه على فتاة من بنات النصارى تفوق البدر فى جمالها، فخر صريع عشقها ، وظل مريدوه يحاولون معه إثناءه عن هذا الغى فرفض ن فعلمت الفتاة بحاله فعرضت عليه أن يدخل دينها ويشرب الخمر ويسجد للصنم ففعل ،ثم طلبت منه مهرها تربية الخنازير سنة ففعل ،ولما يئس منه مريدوه ، عادوا إلى الكعبة ، وكان له مريد آخر لم يك حاضرا وقت رحيله ، فلم علم الخبر وبخ زملاءه الذين قصروا فى حق شيخهم ، وعاد معهم إلى بلاد الروم وأخذ يدعو الله أن يفك أسر شيخه حتى تراءى له النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بنجاة شيخه ، فذهبوا إلى الشيخ مسرعين ، فوجده قد حل الزنار وخلع مسوح الرهبان ، وارتدى خرقة التصوف وعادوا به إلى الكعبة ، غير أنهم فوجئوا بالمحبوبة تلحقهم ، وتقابل الشيخ ، وتعلن إسلامها ، وتموت بين يديه .

المقالة الخامسة عشرة :

اتفاق الطير على السير إلى السيمرغ (١٥٦٥ – ١٥٩٠)

ماإن سمع الطير هذه القصة حتى عقدوا العزم على الرحيل إلى السيمرغ ، غير أنهم رأوا أن يختاروا لهم هاديا ، فاقترعوا علىذلك، وخرجت القرعة على الهدهد العاشق ، فقادهم فى الطيران ، وأخذت جيمع طيور العالم تفد حتى حجبت السماء ،ولما وجدوا الطريق خاليا ، سألوا الهدهد عن السبب، قال : ذلك من عز البارى .

حكايـــــة: (١٥٩١-١٦٠٠)

خرج بايزيد (البسطامى) مرة الى الصحراء ليلا والقمر يملأ الدنيا، ولم يجد أحدا غيره ، فاتجه إلى الله يسأله عن سبب خلو المكان . من

المشتاقين اليه ، بينما قلبه يضطرب شوقا إليه ، فكان الهاتف: أيها الحائران الله لايهب الطريق لكل شخص ، وقد ظل الخلق منتظرين سنوات وسنوات ، حتى يسمح لواحد من ألف أن يحظى بالرفقة.

المقالة السادسة عشرة:

فى قطع الطير للطريق: (١٦٠١-١٦٥٨)

تأوهت الطيور من هول الطريق ، فتقدمت إلىالهدهد : ياعالما بالطريق ياصاحب سليمان ، يامن خبرت خدمة الملوك، كلمنا بشئ يزيل مابأنفسنا بقية من شبهة ، حتى يمكننا سلوك الطريق فعلا الهدهد كرسيا ومعه القمرية وشدا بأعذب الألحان ، حتى تردد شدوه فى جميع الأوطان ، حتى كان الطيور بين صحو وسكر ، ثم بدأ الكلام.

المقالة السابعة عشرة:

اعتذار طائر: (١٦٢٩-١٦٣٨)

خاطب طائر الهدهد قائلا : لماذا أنت وحدك لك السبق من بعيننا، ونحن جميعا طيور من جنس واحد؟ فأجاب الهدهد : كان سليمان يديم النظر الى ، وماحصلت ذلك بذهب أو فضة ، وإنما كانت فى هذه المكانة بنظرة واحدة ، فالزم الطاعة ،واطرد إبليس ، ولاتطع نفسك ، وبذلك تحظى بأكثر مما أقول .

حكايـــــة: (١٦٣٩-١٦٦٣)

كان السلطان محمود يمر بشـاطئ البحـر ، فـرأى غلامـا يصيـد وهـو مهموم، فسأله السلطان عن سبب حزنه ، فشكا له حال فقره ، فقـال السـلطان سأشاركك الصيد ، وصاد له أول يوم ، فكان السمك الكثير ، فقال للغـلام هـو لك ، وغدا تصطاد وحدك ، وفي اليوم التالى استدعى الملـك الغـلام وأجلسـه معه علىالعرش لأنه شريكه ، فلما اعترض بعض الحاضرين قال السـلطان : مادمت قد قبلته شريكا ، فلا يمكن رده ، فسأل أحدهم الغلام : من أين لك هذا الفضل ، قال الغلام : لأن صاحب الحظ قد مر بى .

حكايـــــة : (١٦٦٤-١٦٧٩):

قتل أحد الملوك مجرما سفاكا للدماء ، فرآه صوفى فىالمنام تلك الليلة فى جنة عدن . فسأله عن السبب ، مع أنه كان سفاكا ، فقال فـى تلـك اللحظـة التى سأل فيها دمى ، مر بى حبيب العجمى([1]) فرمقنى بنظـرة ، فسـعدت بهـا ،ولذلك لابد لكل سالك من شيخ يهديه الطريق ، والسلوك بلا شيخ عبث.

حكايـــــة : (١٦٨٠-١٧٠٧)

رأى السلطان محمود فى إحدى رحلاتـه حطابـا قـد سـقط حطبـه مـن على ظهر حماره، فعرض السلطان المساعدة دون أن يعرفه الحطـاب ، فقبل ،

([1]) حبيب العجمى ، كان مرابيا وتاب على يدى الحسن البصرى ،وذات مرة رفض الحسن الصلاة خلف حبيب لأنه لايحسن العربية ، فعوقب الحسن البصرى لذلك (أنظر : تذكرة الأولياء : ج ١ ، ص ٤٣-٤٨ ، وكشف المحجوب ، الترجمة العربية ، ج ١ ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨) نقلا عن بديع محمد جمعة : التعليق علىمنطق الطير ، ص ٢٤٨ ، هامش (١) .

ووضع السلطان الحطب على ظهر الحمار وانصرف ، ثم أمر جنوده يقطع الطريق على الخطاب ، حتى يضطر إلى سلوك طريق واحد تجاه السلطان، ولما وصل الحطاب إلى السلطان عرفه ، فطلب منه السلطان أن يشترى حطبة ، فطلب الحطاب الثمن (غرارة من ذهب) فاستكثر الحراس ذلك . فقال الخطاب : إن حطبى بعد أن وضع السلطان يده عليه قد تحول إلى ورد، ومع أن هذه الأشواك بحة الثمن ،ولكن بفضل يده ، فهى تساوى مائة روح.

المقالة الثامنة عشرة :

عذر طائر آخر : (١٧٠٨-١٧٤٢)

تقدم طائرآخر بعذر يريد أن يقطع الطريق فى السفر ، لأنه ضعيف لايستطيع تحمل المشاق ، وربما يموت فىالطريق . فأجابه الهدهد : على فرض موتك فى الطريق ، فإن الدنيا لابد منقضية ، والدنيا نجسه ، فلأن تموت فى الطريق خير لك من الموت فى النجاسة ، فالأفضل أن تموت فى العشق ، علىأن تموت فى معاصيك .

حكايـــة: (١٧٤٣-١٧٦٢)

رحل الخرقانى(١) إلى نيسابور ، فاشتد به الجوع ، واعتكف فىزاوية أسبوعا بلا طعام ، فسأل الله ، فقال الهاتف إكنس ميدان نيسابور ، وسنجد نصف دانق ذهبا فاشتر به الخبز ، فاستعار غربالا ومكنسه وأخذ فى العمل،

---

(١) على بن جعفر ، وكنيته أبو الحسن ، ولد بمدينة خرقان ، وتوفى عام ٤٢٥هـ أو ٤٢٦هـ، وينتسب فى تصوفه إلى أبى يزيد البسطامى (انظر : تذكر الأولياء ، للعطار ، طبعة ليدن ١٩٠٧، ج ٢ ، ص ٢٠١-٢٠٥) نقلا عن وديع محمد جمعه : مرجع سابق ص ٢٥٣.

وفى آخر غربال وجد الدانق ، ففرح وأسرع بشراء الخبر ، ونسى الغربال والمكنسة ، فجلس حزينا فى خرابة ،وإذ بالغربال والمكنسه معه . فقال له الهاتف : ياسئ الطوية ، لايطيب الخبز من غير إدام ، وقد أعطيتك الخبز والادام . فكن ممتنا .

حكايـــــة: (١٧٦٣--١٧٧٥)

كان هناك عاشق يمشى عريانا ، فسأل الله أن يعطيه ثوبا مثل غيره من الناس ، فأجابه الهاتف أما يكفيك الشمس؟ فقال العاشق : إن الشمس لديك ارخص من الثوب . فقال الهاتف اصبر على هذه الحال ،وبعد عشرة أيام يأتيك الثوب . وبعد عشرة ايام جاء رجل بمرقعة . فقال العاشق رب انك غنى أما تملك هذه المرقعة ؟ فقال الهاتف : العمل ليس سهلا ، وماأكثر الذين وفدوا على هذه الديار ، فاحترقوا بناره ، ومأن وصلوا إلىمقصودهم بعد عمر مديد حتى وقعوا فى الحسرة ، دون أن يروا المقصود .

حكايـــــة: (١٧٧٦-١٧٨٧):

سلكت رابعة إلى الكعبة سبعة أيام زاحفة ، ولما وصلت ، توجهت إلى الكعبة وقالت : بعد هذا التعب ، إما أن تمنحنى القرار ، والا فدعنى فى دارى ، وأنت طالما تظل فى بحر الفضول فأحيانا يوجهونك إلى الكعبة ، أو إلى الدير ، وإما أن تظل فى الدوامة .

حكايـــــة: (١٧٨٨- ١٧٩٣)

سكن أحد المساكين العاشقين ركنا ، فأراد أحدهم أن يساعده ، فقال المسكين إن إيزاء البعوض والبراغيث والذباب يمكن أن يكون ذلك اختيارا ،

فلعلى نمروذ زمانى، حتى يكون تصيبى من حبيبى الناموس والبعوض والذباب .

المقالة التاسعة عشرة :

عذر طائر آخر (١٧٩٤-١٨٠١)

قال طائر آخر للهدهد : كيف أسلك الطريق إلى السيمرغ ، وأنا كثير الأثام . فقال الهدهد : إن باب التوبة مفتوح .

حكايــــة (١٨٠٢-١٨١٤)

أذنب أحدهم ذنوبا كثيرة، ثم تاب ، ثم نقض توبته ، ولكنه بعد ذلك أراد أن يتوب فظن أنه لن يقبل ، فركبه الهم . فسمع الهاتف : إن الباب مفتوح دائما .

حكايــــة : (١٨١٥ - ١٨٣٣)

كان جبريل فىالسدرة ، فسمع عبدا يقول : لبيك، فأخذ يبحث عنه فى السموات والأرض مرات دون أن يعرفه ، فلجأ جبريل إلى الله ليعلمه ومكان ذلك العبد ، فقال الله : إذهب إلى بلاد الروم فىالدير ، فذهب جبريل فإذا برجل يناجى صنما . فعجب جبريل ، واتجه إلى الله يساله السر ، فقال الله: هذا عبدالمطلب الطريق ، فضل ، وقد فتحنا له الطريق ، فأسلم العبد .

حتى تدرك أن أصول تلك الملة هى السير إلى الأعتاب بلا عذر؟

حكايــــة: (١٨٣٤-١٨٤٢)

كان رجل فى طريقه الى بغداد ، فسمع رجلا يقول من يشتر العسل السمن بثمن بخس ؟ فقال السالك: أتعطى شيئا بلا ثمن ؟فأجابه البائع : إنك

مجنون هل هناك من يبيع بلا ثمن ؟ قال هـاتف : أيهـا الصوفـى تقـدم ، فلقـد منحناك كل شئ دون مقابل .

حكايـــــــة: (٨٤٢-١٨٥٠)

استنجد قارون بموسى فلم ينجده ، فقال : الله : إن من يرحـم عديمـى الرحمة يجعل أهل الرحمة أولياء نعمته .

حكايـــــــة : (١٨٥١-١٨٧٦)

مات أحد الفساق ، فوضع تابوته فى الطريق ، فتجنب أحد النساك هذا الطريق حتى لايصلى على الفاسق . وفى الليل رآه الزاهد فى الجنة ، فسأله ، فأجابه : إن الله رحمنى من أجل قسوتك .

فى طريقه توجد الألوف من مظـاهر الحكمـة ، وأنـت أيهـا الآدمـى ، الكل فى خدمتك حتى الملائكة . فروحك الكل.

حكايـــــــة: (١٨٧٧ - ١٨٨٤)

قالت العباسه (١): يوم القيامه تسود وجوه العاصين ، ويبقى من ليـس له رصيد فى حيرة ، فيأخذ الله من نـور الملائكـة ويطرحـه علـى الآدمييـن ، فيسأل الملائكة عن السبب ، فيقول : إن هذا لن يضركم ، ولن ينفعكم ، فمـن الأفضل أن يفيد منه الآدميون ، كما يلزم ،الخبز دائما للجائعين.

---

(١) المقصود عباسة الطوسية . أنظر : وديع محمد جمعه : التعليق علىمنطق الطير ، مرجع سابق ، هامش ، ص ٢٦٢.

المقالة العشرون :

عذر طائر آخر : (١٨٨٥-١٨٩٦)

قدم طائر آخر عذرا بانه أحيانا يطيع وأحيانا يعصى ، فأجابه الهدهد: إن هذا هو شأن الخلق ، فلو كان الناس بلا خطايا ، فلم بعث الله الأنبياء؟

حكايـــة: (١٨٩٨-١٩١٢)

اختفى الشبلى([1]) من أعين مريديه ، فبحثوا عنه ، فوجدوه فى بيت فسق ومجون ، فتعجبوا لذلك، فقال : إن هؤلاء الفسقة سائرون فى طريق المعنى، وأنا سائر فى طريق الدين ، ولست امراة ولا رجلا أكثر منهم ، ولذا فإننى أخجل من آدميتى . كل من آثر رد جعل لحيته مفرشا لخوان الحبيب ، وإن ترغب فى أن تكون محط أنظار الخلق ، فأنت أسوأ من الصنم.وإن يتفاوت مدحك وذمك لنفسك ، فأنت صانع صنم . فكيف تدعى أنك صوفى أمام الخلق ، فيا أيها المخنث لاترتد أردية الرجال .

حكايـــــة: (١٩١٣- ١٩٢٣)

تخاصم صوفيان أما القاضى ، فانتحى بهما جانبا ،وقال : إما أن تخلعا الرقعة، وإما أن تتركا الخصومة،ومن الأفضل لهما وضع قناع

([1]) الشبلى : أبوبكر جحدر ، مالكى المذهب ، كان أول أمره واليا على دوماند ، ثم انصرف إلى الزهد ، اعتقل فترة بمستشفى المجانين ،وهو من أصحاب الشطحات ، لذا انتهى أمره بالقتل كالحلاج عام ٢٤٧هـ، انظر : تذكرة الأولياء للعطار، ليدن ، ١٩٠٧، ج ٢ ، ص ١٦٠ ، ١٨٢ ، نقلا عن بديع محمد جمعة ، مرجع سابق ، ص ٢٦٤، هامش رقم (١).

على مفرقيهما والآن لاترفع رأسك بالدعوى أكثر من هذا ، حتى لاتظل في عارك هكذا .

حكاية: (١٩٢٤-١٩٣٩)

عشق رجل فقير حاكما من حكام مصر ، فخيره الحاكم بين مغادرة البلاد وبين قطع رأسه ، فاختار الأولى ، فأمر الحاكم بقطع رأسه ، فلما روجع في هذا قال: إنه ليس بعاشق ، فلو كان يتصرف كالرجال لاختار قطع الرأس في هذا المجال .

المقالة الحادية والعشرون :

عذر طائر آخر: (١٩٤٠-١٩٥٤)

قال طائر آخر : إن نفسي لاتطاوعني في خوض الطريق ، فأجابه الهدهد : يامن خدعك الكلب (أي نفسك) لايمكن أن تحظى بالمعرفة قبل أن تميت هذا الكلب. لقد ماتت ألوف القلوب عما، وهذا الكلب الكافر لم يمت لحظة.

حكاية: (١٩٥٥- ١٩٥٨)

سئل حفار قبور أما وجدت لك موعظة طول عمرك المديد ، قال : رأيت عجبا ، وهو أن نفسي لم تتعظ طيلة سبعين سنة ، ولم تطع لي أمرا.

حكاية: (١٩٥٩- ١٩٧٢)

قالت العباسة : إن الدنيا تغص بالكافرين والمنافقين ، فإما أن تتبع هذه النفس الكافرة الإسلام، وإما أن يصيبها الفناء.

حكايـــة : (١٩٧٣-١٩٩٤):

قابل السلطان رجلا صاحب طريقة ، فسأله السلطان أنا أفضل أم أنت ؟ فأجابه : إن تمدح أنفسنا، انعدم الطريق ، ومـع ذلـك فأنـا أفضـل منـك مائـة الف مرة لأن كلبك يركبك وهو نفسك ، أما أنا فإنى أركب هذا الكلب.

حكايـــــة: ١٩٩٥،-١٩٩٨)

وقع الثعلبان المتزوجان فى شرك الصياد ، فقال الأنثى للذكر : إلـى أين المصير أيها الباحث عن التقوب ، قـال : إن كـان فـى العمـر بقيـة ، ففـى دكان الفراء بالمدينة .

المقالة الثانية والعشرون :

عذر طائر آخر: (١٩٩٩- ٢٠٠٦)

قال طائر آخر : إن ابليس قد زين فى قلبى زهـوا وغـرورا وأنـا فـى الطريق إلى هنا ، فكيف أستطيع مواصلة الطريق . فأجابه الهدهد : إن نفسـك هى مساعدة إبليس فمادامت فيك ، ففيك ألف إبليس وإبليس.

حكايـــة: (٢٠٠٧-٢٠١٤)

جاء عامل الى صومعة عابد ، واشتكى له مـن إبليـس ، فقـال العـابد: لقـد جـاء إبليس قبلك يشكوك وقـال: إن الدنيـا كلهـا اقطــاعى ، ومــن يعــاد إقطاعى، فليس خليقـا بـى ، فقـل لـه : تجنـب إقطـاعى ، فكـل مـن خـرج مـن إقطاعى بسلام لايكون لى معه أى أمر والسلام.

حكايـــــة :(٢٠١٥ - ٢٠٣٧)

قال العزيز لمالك بن دينار([1]): إننى أطعم الخبز على خوان الحق ، ثم أنقذ جميع أوامر الشيطان . فقاله مالك : مادمت ملتصقا بالدنيا ، فستظل فى إسارها.

حكايـــــة: (٢٠٣٨-٢٠٤٦)

قال أحد السادة وقت الصلاة : إلهى ، امنحنى التوفيق والرحمة، فسمعه أحد الوالهين ، فقال له : كيف تطلب الرحمة ، وأنت صاحب الأموال والقصور والخدم ، طلق الدنيا واطلب الرحمة .

حكايـــــة: (٢٠٤٧-٢٠٥٠)

قال رجل متدين : إن جماعة حولوا وجه أحدهم عند موته إلى القبلة، كان الأجدر به قبل الموت أن يظل وجهه إلى القبله .

المقالة الثالثة والعشرون :

عذرطائر آخر: (٢٠٥١-٢٠٧٨)

جاء طائر آخر وقال لا إننى أستطيع الاستغناء عن الذهب ، فإنى أحبه فأجابه الهدهد : إنك لاتستطيع مواصلة الطريق وفى قلبك ذرة من حب الدنيا.

([1]) كان عبدا ثم جاءه هاتف وهو سادر فى غيه فتاب على يدى الحسن البصرى . انظر : تذكر الأولياء ، ج ١ ، ص ٣٦ - ٤١ ، وكشف المحجوب ، الترجمة العربية ، ص ٢٩٨-٢٩٩ . نقلا عن بديع محمد جمعه ، مرجع سابق ، ص ٥٧٢.

حكايـــــة: (٢٠٧٩-٢٠٩١)

ملك أحد المريدين شيئا من ذهب ، فأخفاه عن شيخه ، ولكن شيخه كان يعلم ، فأثناء سيرهما ، كان هناك طريقان أحدهما مظلم. فقال المريد لماذا هذا الطريقان . فقال الشيخ من لم يملك من فضة أو ذهب فلايخاف أى طريق .

حكايـــــة: (٢٠٩٢-٢١٠٥)

طلب الحسن البصرى من رابعة أن تحكى لـه طرفـة نـادرة . فقالت نسجت حبلا وبعته بدرهمين . ولم أمسك بهما فى يد واحدة ، بل وضعت كـلا منهما فى يد مخافة اللصوص .

عابد الدنيا قلبه وروحه مليئان بالهموم . يامن بعت السيمرغ بـالذهب سيحترق القلب كالشمعة بعشق الذهب.

حكاية : (٢١٠٦- ٢١١٩)

عابد عبدالله أربعمائة سنة ،وكان له بستان ،وفى أحد الأشجار عشش أحد الطيور ذى ألحان طرية فشغف العابد بصوته الجميل ، فـأوحى اللـه إلـى نبى ذلك الزمان بأنه كيف يشغل عنى هذا العابد بصوت الطائر؟.

المقالة الرابعة والعشرون :

عذر طائر آخر: (٢١٢٠ - ٢٢٢٩)

قال طائر آخـر : إننـى أعيش فـى قصـر مطلـى بـالذهب ، وأنـا سـيد الطيور فيه، فكيف أتخلى عن هذا النعيم وأسلك ذلك الطريق ؟ فأجابه الهدهد:

مأأنت إلا كلب فوق موقد ، وماقصرك إلا سجن ،وإن لم يكـن المـوت مسـلطا على الحقائق، لكان استقرارك فى هذا القصرمن اللائق .

حكايـــــة : (٢١٣٠ - ٢١٤٤)

شيد ملك قصرا مطليـا بالنضـار ، وصـار أعجوبـة ، وذات مـرة قـال لجلسائه هل هناك عيب فى هذا القصر ، فقالوا لا . إلا أن أحد الزهاد قال له: إن فيه عيبا ، فتعجـب الملـك وسـأله عـن العيـب . فأجـاب الزاهـد : عيبـه أن عزرائيل سيعود .

حكايـــــة : (٢١٤٥-٢١٥٠)

شيد أحد التجار قصـرا ، وكـان معجبـا بـه ، ودعـا النـاس ليروا هـذا القصر ، وكان سريع الخطـا فـى جنباتـه ، فـرآه مجـذوب ،فقـال لـه : يـاعديم النضج ، لاتتعب نفسك كثيرا .

حكايـــــة : (٢١٥١- ٢١٧٢)

العنكبوت ينصب حباله للذبابة لتقع فى نسيجه فيقتلها لتكون غذاءه ، وفجأة يأتى صاحب الدار فيزيل خيوط العنكبوت والعنكبوت والذبابة . وهكذا الدنيا يامن قصرك وحديقتك هما سجنك ، إن ثروتك هى بلاء روحك .

حكايـــــة : (٢١٧٣-٢١٨٤)

قصد رجل الصحراء مسرعا فلقى صوفيا بها ، فسأله الرجـل : كيـف تملك أيها الصوفى زمام أمرك ؟ فقال الصوفـى : لقد عشـت فـى ضنـك هـذه الدنيا حتى ضاقت بى . فقال الرجل : هل ضاقت بك الصحراء؟ فقال : إن لـم يكن هذا المقام ضيقا لما عثرت على هنا .

حكايـــــــة : (٢١٨٥- ٢١٩١)

سار أبله خلف ابنه المتوفى، فى جنازته وهو يصيــح : ولـدى ، يـامن مضيت ولم تر الدنيا . فسمعه مجذوب فقال : لقد رأى الدنيا مائة مرة ، وأنـت لو حملت الدنيا معك ، فستكون كمن لم يرها كذلك.

حكايــة : (٢١٩٢- ٢١٩٣)

كان رجل يطلق زفرات وهو يحرق الأعـواد ، فقـال لهـم أحدهـم إلـى متى تطلق الزفرات والأعواد تخترق؟.

المقالة الخامسة والعشرون:

عذر طائر آخر (٢١٩٤-٢٢١٩)

انبرى طـائر آخـر يشـكو مـن العشـق ، إنـه لايسـتطيع مفارقـة جمـال معشـوقه ، فكيـف لـه أن يسـير فـى الطريـق وقلبـه معلـق بالمعشوق. فأجابـه الهدهد: يامن عشـق الصـورة دون المعنـى . إن الصـورة عبـارة عـن أخـلاط ودماء ، فإذا بهت ذلك الجمال لايبقى الحسن . أمـا الحسـن البـاقى فهـو حسـن الغيب .

حكايـــــــة : (٢٢٢٠- ٢٢٢٧)

كان رجل يبكى أمام الشبلى ، فسال الشـبلى عـن السـبب ، قـال : إنـه كان له محبوب ،ومات . فقال الشـبلى : عليـك بـأن تختـار محبوبـا لايمـوت، وبذلك لاتموت عليه كمدا .

حكايـــة : (٢٢٢٨-٢٢٣٩)

باع رجل جاريته ، ثم ندم لأنه يحبها ، فذهب إلى المشترى، وعرض عليه ألف دينار ليعيدها إليه . فرفض المشترى ، فهام على وجهه كمدا وحزنا. فاحص بنفسك نعماء جيبك ، حتى تعلم عمن بعدت .

حكايـــــة : (٢٢٤٠- ٢٢٦٠)

كان لملك كلب سلوقى يصطاد به ،وهو مزين بالحرير والذهب والجواهر ، وأثناء سير الكلب خلف الملك فى الصحراء ، مر ببعض العظام، فوقف الكلب عندها عن متابعة الملك . فاستاء الملك ، فاقترح عليه الحراس تجريد الكلب من زينته فقال : اتركوه حتى يتذكر ذات يوم من ألبسه هذه النعم فربما يعود الى رشده .

حكايـــــة : (٢٢٦١-٢٢٧١)

عندما علق الحلاج على الأعواد ، واخذوا فى تقطيع أوصالـــه ، وأخذت الصفرة تدب إلى وجهه ، سرعان ماحك وجهه بيده المقطوعة ليظل وجهه مشربا بالحمرة ، حتى يلقى الجلاد كالأسد ، لأن من استطاع أني رقد ، ويطعم مع الحية ذات المرءوس السبعة فى شهر تموز ، قد صادف الكثير من هذه الترهات ، وأقل شئ أصابه هو الشنق .

حكايـــــة : (٢٢٧٣-٢٢٧٩)

كان الجنيد يعظ الناس ،وكان له ابن جميل قطعت رأسه أمام أبيه فلم ينطق بحرف ،وقال مستمرا فى وعظه : ذلك القدر العظيم الذىوضعته الليلة من الأسرار القديمة اذا كان احتياج إلى نار تطهيه ، فلن يحتاج إلى أقل من هذا ولا أكثر.

المقالة السادسة والعشرون :

عذر طائر آخر: (٢٢٨٠-٢٢٩٤)

قال طائر آخر : إنى أخاف الموت من هذا الطريق . فأجابه الهدهد: بأن كل شئ مآله إلىالموت ، طال عمره أو قصر . فما خلقنا إلا للموت.

حكايـــــــة: (٢٢٩٥-٢٣٢٨)

القفنس الطائر الجميل ذو الصوت العذب الذى عاش الف عام وحيدا فى البنجاب من بلاد الهند ،عندما حانت ساعته جمع أكوام القش واخذ يغنى بصوت جميل جمع حوله الطيور والحيوانات ،كلها حزنت لحزنه ،ولما حان خروج روحه أخرج نارا من جناحيه أحرقته وأحرقت الحطب. وأصبح الكل رمادا فى مهب الريح .

لا أحد ينجو من الموت .

حكايـــــة : (٢٣٢٩- ٢٣٣٤)

ذهب طفل الى قبر أبيه يندبه فقال له صوفى إن الحزن هو أبوك وليس أنت وهكذا كل من أتى إلى الدنيا سيرحل ، ولو جلس فى صدر المملكة.

حكايـــة (٢٣٣٥-٢٣٤٤)

عندما أسرع الموت إلى عازف الناى ، سئل عن حاله ،قال : لايمكن التعبير عن حالى .وليس لى من داء سوى مواجهة الموت .

حكايـــــة : (٢٣٤٥- ٢٣٥٩)

شرب عيسى من ماء النهر فوجده حلـوا ، وجـاء رجـل ومـلأ الجـرة من ماء النهر فشرب منها عيسى فوجدها مرة . فتعجب ، وسأل اللـه فيذلـك، فقالت الجرة إن هذا مصيرى مهما عشت من زمان .

الحى مآله الفناء ، فقد ولد خليقا بالآدمية ، لكنـه حـاد عنهـا بعـد ذلـك فمئات الألوف من الحجـب تقـف فـى طريـق السـالك ، فكيـف يسـتطيع إدراك نفسه بعد ذلك؟.

حكايـــــة : (٢٣٦٠-٢٣٦٤)

عندما حضر الموت بقراط ، قال له تلميذ : فى أى مكان مـن الأرض ندفنك ؟ فقال : إذا كنت ترغب فيالعثـور علىمـرة أخـرى ، فـادفنى فـى أى مكان .وعند الفناء لن تعرف أى شعرة من رأسى أى خبر عنى.

المقالة السابعة والعشرون :

عذر طائر آخر: (٢٣٦٥-٢٣٧٦)

جاء طائر آخروقال : لن أستطعي سلوك الطريـق ، لأنـى فـى حـزن دائم . فقال الهدهد: انفض عنك الدنيا بفرحها وترحها ،وبذلك تستريح.

حكايـــة :(٢٣٧٧- ٢٣٩١)

لم يشرب أحد السالكين شربة واحدة من أى مخلوق ، فسئل فى ذلك، فقال : إنى أرى الموت يقف متأهبا فى كل لحظة ، ولذلك ليس لأى شئ طعم، فكل شئ زائل .

حكايـــة: (٢٣٩٢-٢٤٠٥)

أعطى أحد الملوك غلاما له فاكهة فأكل منها فقال : إنهاحلوة ، فـاراد الملك الأكل منها فوجدها مرة ، فقال للغلام كيف هى حلوة فى فمك ومرة فـى فمى قال الغلام : لا أستطيع رد نعمك على حتى ولو كانت مرة .

حكايـــة: (٢٤٠٦-٢٤١٣)

قال أحد العظمـاء لصوفـى : كيف تمضـى وقتـك ؟ قـال : فـى موقـد حمام، لكنى لم أشرب فيه ولم آكل . إن كنت باحثا عنالسعادة فىهذا العـالم أو نائما فكلاهما سواء .

حكايـــة: (٢٤١٤-٢٤١٩)

قـالت عجـوز لشـيخ ميهنـة([1]) ادعـى لـى بالسـعادة ، أو علمنـى دعـاء السعادة ليكون لى وردا . قال : ليس هناك دواء لمرض السعادة .

حكايـــة: (٢٤٢٠-٢٤٢١)

سئل الجنيد : كيف يحصل الإنسان السعادة ؟ قال : فـى نفـس السـاعة التى يكون فيها واصلا.

حكايـــة : (٢٤٣٢-٢٤٤٥)

شكا الخفاش مـن عدم وصـول شـعاع الشـمس إلـى عينيـه . فقـال لـه مبصر : إن بينك وبينه آلاف السنين . قال الخفاش : سـأواصل الطـيران حتـى

([1]) الشيخ أبو سعيد ميهنة ، ولد بقرية ميهنة من أعمال خارون عام ٣٥٧هـ وتوفـى عـام ٤٤٢ هـ ، وهـو أول من أبـدع الشـعر الصوفـى ،وأول مـن اسـتخدم فـن الربـاعى فـى الأغراض الدينية . (وديع محمد جمعه : مرجع سابق ، ص ٣٠٠ ، الهامش (١).

أصل إليه ولما لم يصل قال: لعلى قد تجاوزت شعاع الشمس ، فقال له : أحد العقلاء أنت لاتبصر الطريق ، فكيف تقول تجاوزته ؟ شعر الخفاش بالذل ، فتوجه إلى الشمس بالروح ، فجادت الشمس عليه بتحقيق الأمل ، وأصبح الضياء من نصيب الضرير .

المقالة الثامنة العشرون :

سؤال طائرآخر: (٢٤٤٦-٢٤٥٦)

قال طائر آخر : بالرغم مما فى الطريق من آلام ، فسأنتظر تنفيذ الأمر قال الهدهد : إن هذا غايةالكمال ، لأن من يفعل شيئا دون أمر ، هو مثل الكلب.

حكايـــة : (٢٤٥٧-٢٤٨٢)

كان أحد الملوك عائدا إلى مدينته ، فتزين الكل للقائه حتى المساجين. ومر الملك بكل هذا، ولم يتوقف إلا عند هؤلاء المساجين حيث هش لهم ، فسئل : لماذا المساجين بالذات . قال :لأن هنا تنفذ أوامرى.

حكايـــة: (٢٤٨٣-٢٥٠٠)

تدور هذه الحكاية حول وجوب امتثال أمر الله من المريد.

حكايـــة: (٢٥٠١-٢٥١٠)

تدور حول إخلاص العبودية لله .

حكايـــة : (٢٥١١-٢٥١٥)

تدور حول : أن من لاحرمة له فى بساط السلطان لاقيمة له.

المقالة التاسعة والعشرون :

سؤال طائر آخر (٢٥١٦-٢٥٣٠)

تقدم طائر آخر ، وقال : إننى أتخلص من كل شئ أملكه ، فمتى أرى وأنا فى طهرى هذا وجهه؟ قال الهدهد: عليك بتخليص نفسك من الكل ثم اعقد العزم على المسير ، وإن لم يتم لك فى البداية التطهر، فلست أهلا لهذا السفر.

حكايـــة: (٢٥٣٨-٢٥٥٢)

حول بذل روح أعز مالدى السالك من أجل التخلص مما فى الدنيا من مطالب .

حكايـــة: (٢٥٥٣-٣٥٦٩)

حول الفناء فى الله . حكاية ذى النون والقتلى فى الصحراء ودفع الله دينهم .

حكايـــة: (٢٥٧٠-٢٥٧٤)

سحرة فرعون أعظم حظا من أى إنســان ، وضعـوا قدمـا فـى طريـق الدين ، وأخرجوا الثانية من طريق الدنيا .

المقالة الثلاثون :

سؤال طائر آخر : (٢٥٧٥-٢٥٨١)

تقدم طائر وقال : وإن كنت ضعيفا طاعتى قليله ، فإن له همة زائـدة.
فقال الهدهد: الهمة أساس ملك العوالم ، والهمة جناح الروح وريش طائرها.

حكايـــة: (٢٥٨٢-٢٥٩٦)

حكاية العجوز التى تقدمت لشراء يوسف بعشرة حبال ، بعد ماعرض المصريون كنوزا فى شرائه ، وماذاك إلا لأنها تريد أن ترتفع إلى مرتبة المشترين . مثال للهمة العالية.

حكايـــة : (٢٥٩٧-٢٦٠٦)

حكاية من يشترى نفسه بالدنيا كلها خلاصا لروحه وتطهيرا لها .

حكايـــة: (٢٦٠٧-٢٦١٩)

حكاية الشيخ الغورى مع سنجر([1]) الذى رفض أن يكون مع أصحاب الهمم العالية تحت القنطرة من المشايخ.

حكايـــة : (٢٦٢٠-٢٦٢٦)

حول الاستعداد للطيران فى عالم الروح ، قبل أن يفوت الأوان بانتهاء الأجل للإستعداد .

المقالة الحادية والثلاثون :

سؤال طائر آخر: (٢٦٢٧-٢٦٣٤)

تقدم طائر يسأل عن الانصاف والوفاء : لقد أنصفنى الحق كثيرا، كما لم أجنح الى عدم الوفاء مع أحد ، فكل إنسان له هذه الصفة ، فما منزلته فى طريق المعرفة؟ أجاب الهدهد : إذا وصل انصافك إلى حيز الوجود ، فهذا افضل من قضاء عمرك فى الركوع والسجود .

([1]) سنجر : آخر ملومك السلاجقة فى إيران .

حكايـــة: (٢٦٣٥-٢٦٤٢)

تدور حول اعتراف الامام أحمد بن حنبل أمام بشر الحافى بأنـه وإن كان أوسع علما من غيره، فإنه يتعلم من بشر الحسن والطهر ، كما أن بشـرا يعرف الله أفضل منه .

حكايـــة: (٢٦٤٣-٢٦٦٣)

حول ملك الهند الذى أسره السلطان محمود ، فاسلم الملك ، فـأخذ يبكى ، فظن محمود أنه يبكى لضياع ملكه ، فعرض عليه رد ملكه إليه، فقـال الملك : لا إننى أبكى خجلا من الله الـذى سيقول لـى أيـن الوفـاء والإنصـاف فلولا مجئ محمود لما طرقت بابى .

حكايـــة : (٢٦٦٤-٢٦٨٧)

حكاية الملك الغازى المسلم مع الملك الكافر ، حيـث حضـرت المسـلم الصلاة ، فطلب من الكـافر المهلـة حتـى يصلـى ، فوافـق الكـافر ، ثـم حضـر الصلاة الكافر ، فطلب المهلة هو الآخر ، فوافق الغازى المسلم ، فسجد الكافر للصنم ، فحدثت نفس الغازى المسـلم بالانقضـاض عليـه فجـاءه هـاجس : أنـه بذلك خائن للعهد غير وفـى ، فـامتنع وانخـرط فـى البكـاء ، فسـأله الكـافر ، فأخبره السبب ، فأعلن الكافر إسلامه وفاء لهذا الإله المحب للوفاء.

حكايـــة : (٢٦٨٨-٢٧٦١)

حـول إخـوة يوسـف العشـرة، لمـا أخـبرهم يوسـف بمـا فعلـوا عنـد حضورهم اليه بسبب القحط الذى أصابهم.

المقالة الثانية والثلاثون :

سؤال طائر آخر: (٢٧١٧-٢٧٣٢)

تقدم طائر آخر وسأل : كيف تكون الجرأة هناك ؟ قال الهدهد: من تتوافر فيه الكفاءة فهو موضع الأسرار الالهية ، فالجرأة مقبولة منه . ولكن كيف يتجرأ العالم بالسر الحافظ له !! فإذا تجرأ فمن فرط الحب، ثم يصير كالمجنون من شدة العشق فإذا كانت آثار الجنون قد بدت ، فكل ماتقوله يقبل سماعه منك .

حكايـــــة : (٢٧٣٣-٢٧٤٧)

كان لعميد خراسان مائة غلام فى غاية الجمال والأبهة فى الزينة ، فرآهم يوما وله (شديد الحب) فسأل عنهم فقيل غلمان العميد ، فقال الوله : ياذا العرش المجيد لتتعلم تربية عبيدك من العميد .

إذا كنت ولها به ، فتعلم الجرأة . فما أجمل جرأة الولهين ، لكن لن يستطيعوا إدراك الطريق إلا إذا أنعم عليهم ذو العرش بالتوفيق .

حكايــة: (٢٧٤٨-٢٧٥٣)

حكاية الوله الذى كان عاريا جائعا والمطر والبرد شديدان، فاختبأ بخرابة ، فنزلت عليه آجره ، فقال : إلى متى تدق طبول السلطنة ؟ الأفضل الا تستطيع الضرب بالأجر.

حكايـــة : (٢٧٥٤-٢٧٦٥)

حكايـة الولـه الـذى اسـتعار حمـارا فنـام عنـه واكلـه الذئـب ، فذهـب صاحب الحمار إلى القاضى ، فقال القاضى : كل ذئب جائع فى الصحراء فهو المذنب .

حكايـــة : (٢٧٦٦-٢٧٧١)

نزل مصر قحط شديد حتى أكل النـاس بعضهم بعضـا ، فقـال أحد الولهين : يامالك الدنيا والدين ، إن كنت لاتملك رمقا ، فقلل من الخلق. كل من يتجرأ فى هذه الأعتاب ، سيطلب المعذرة عندما يثوب إلى رشده.

حكايـــة: (٢٧٧٢-٢٧٨٥)

حكاية الوله الذى قذفه الأطفال بالحجاره فاختبأ فى كوة موقد حمام فتسلل منها البرد إلى رأسه كأنه أحجار ، فلم يفرق بين البرد والأحجار فقـال: لم تقذفوننى بالأحجـار والمدر ؟ ففتحت الكوة ، وتبيـن أن ذلك بـرد فقـال : إلهى! بدرت السباب منى سهوا ، فإن يصدر هذا القول من والـه ، فـلا تعاقبـه بسبب رعونته .

حكايـــة : (٢٧٨٦-٢٧٩٢)

مر الواسطى بمقبرة لليهود ، فقال هـؤلاء اليهود معذورون ، ولكـن لايمكنهم قول هذا السر لأحد ، فسمع أحد القضـاة هـذا الكـلام ، فـاعترض ، فقال له الواسطى إن كانوا غير معذورين أمـام حكمك ، فهـم معذورون أمـام حكم الله علام الغيوب .

المقالة الثالثة والثلاثون :

سؤال طائر آخر: (٢٧٩٣-٢٨٠٥)

تقدم طائر آخر معلنا عشقه الصافى للسيمرغ ، وأنه طرح الكل من أجل عشقه ، فقال الهدهد: إن ادعاءك هذا ليس فى مقدور أحد ، ولكن إذا ماهبت نسائم الحظ ، فإنها تطرح الحجب عن وجوه الأعمال ، والأفضل لك أن تسلك الطريق إليه فلتكن محبتك له هى شغلك الشاغل.

حكايــــة: (٢٨٠٦-٢٨٢٠)

لما مات بايزيد سأله أحد فى المنام : ماذا فعلت مع منكر ونكير ؟ فقال : قلت لهما إن كنت جديرا بعبوديته ، أقول له ياإلهى . إن يبادر بالعشق من جانبه فإنه تكون جديرا بعشقه ، أما العشق الصادر عنك ، فإنه يليق بوجهك فقط.

حكايــــة: (٢٨٢١-٢٨٣٤)

حكاية العاشق الذى هام فى الطرقات ، فجاءه الهاتف بالتزام الأدب

حكايــــة : (٢٨٣٥-٢٨٦١)

زار السلطان محمود الرجل الموكل بوقود الحمام، فظن السلطان أن العامل سيطلب منه عطيه ثم غادره دون أن يطلب ، ثم عاد لزيارته ، وسأله إذا كان له حاجة، فقال حاجتى أن تكرر زيارتى فهذا خير لى من أن تجعلنى سلطانا .

عشقه ضرورة لك، أما عشقك له فغم وهم ، إن كان لك عشقه ، فاطلبه هو أيضا .

حكايـــة: (٢٨٦٢-٢٨٧١)

كان أحد السقاة على كفه ماء ، فتقدم إلى سقاء آخر يطلب منـه مـاء ، فقال له الآخر : اشـرب مـافى يـدك أولا . فقـال الأول : اعطنـى المـاء ، فقـد عاف قلبى مامعى مـن مـاء إن آدم رمـى كـل مامعـه مـن أجـل حبـه حنطـة ، وعندما تلاشى كل شئ فى ضياء العشق تلاشى القديم والجديد.

المقالة الرابعة والثلاثون :

سؤال طائر آخر: (٢٨٧٢-٢٨٩٣)

تقـدم طـائر آخـر بقولـه : إننـى وصلـت إلـى الكمـال فـى الرياضــات والمجاهدات، ولا حاجة لى بسلوك الطريق . فأجابه الهدهد: بأن ذلـك محـض خيال وإن الشيطان ونفسك قد تغلبا على روحك . إذ لابد من المعاناة والجهاد.

حكايـــة: (٢٨٩٤-٢٩١٢)

خرج الشيخ أبوبكر النيسابورى على حماره وخلفه المريدون ، وفجأة ضرط الحمار ، فهاج الشيخ ، فسأله المريدون ، فأجاب : كنت أظننى وصلت وأصبحت فى مرتبة بايزيد ،وخلفى المريدون . وفجأة خرط الحمـار، فعرفت أن ما أنه فيه هراء فى هراء ، فطالما كنـت فـى عجبـك وغـرورك ، فستظل بعيدا عن الحقيقة .

حكايـــة : (٢٩١٣-٢٩١٨)

بذور حول نفى السالك ماقاله إبليـس (أنـا) فهـى تحـول السـعيد إلـى شقى.

حكايـــة : (٢٩١٩- ٢٩٣١)

تدور حول شيخ لم يحترز من الكلب النجس ، فسئل عن ذلك ، فقـال: إن هذا الكلب نجس ظاهرا ، لكنه طاهر باطنا ،وربما كنت بعكسه.

حكايـــــة: (٢٩٣٢-٢٩٤٥)

فى عهد موسى ، كان هناك شيخ متأله يمشط لحيته ، ولكن لـم يصـل إلى حال ، فسئل موسى عن ذلك ، فسأل موسى ربه ، فقال إنه مشغول بلحيته عنا ، فلما عرف المتأله ذلك أخذ فى نتف لحيته ، فأخبر الله موسى بأنه أيضا مشغول بلحيته .

حكايـــــة: (٢٩٤٦-٢٩٥٩)

سقط الأبله ذو اللحية فىالمـاء ، فقـال لـه رجـل فـاضل علىالشـاطئ: مادمت لك هذه فسنعوقك عن النجاه ، مادام فى قلبك نفس وشيطان .

حكايــــه: (٢٩٦٠-٢٩٦٥)

كان صوفى كلما اتسخ ثوبه غسله فيكفهـر الكـون ، وذات مـرة ذهـب ليشترى الصابون فبدأ الكون بالتغير ، فقال الصوفى : لماذا أيهـا الكـون إننـى سأشترى زبيبا وليس صابونا .

المقالة الخامسة والثلاثون :

سؤال طائر آخر: (٢٩٦٦-٢٩٧٤)

تقدم طائر آخر وسأل : ما الذى يجعلنى أشـعر فـى السـفر بالسـرور؟ قال الهدهد : مادمت موجودا معه ، فستشعر بالسرور.

حكايـــة: (٢٩٧٥-٢٩٨١)

كان أحد المجانين يعيش فيالفلاة وحده ، وسيطرت عليه حالة من السرور فأخذ يرقص ويقول : كلما كنا نحن الاثنين بمفردنا ، ساد السرور كلـــه.

حكايـــة: (٢٩٨٢-٢٩٩٠)

كان أحد العاشقين على فراش الموت ، فأخذ يبكى ، فسئل : لماذا تبكى، فأجاب: كيف يموت قلبى وهو متعلق به ، فقيل له :إن ذلك أفضل ، قال: كيف يموت كل من تعلق قلبه بالله؟

حكايـــة: (٢٩٩١-٢٩٩٧)

حول عدم صحة من يشغل بالعيب ،وهويطلب حسن الغيب.

حكايـــة: (٢٩٩٨-٣٠٠٧)

اشتد السكر بشارب للخمر ، فأخذه أحد العقلاء ليوصله إلى ادارة ، وفى الطريق طهر شكران آخر يشيع الاضطراب ، فناداه من بالغرارة : قلل مماأنت فيه ، حتى لا تفقد حريتك مثلى .

حكايـــة: (٣٠٠٨-٣٠١٩)

عشق أحدهم امرأة خمس سنوات ، وكانت سحابة بيضاء على عينها، دون أن يراها هذا العاشق ، ثم فتر عشقه لها ، فرأى السحابة، فسألها: حتى بدأت هذه السحابة ، قالت : منذ أن فتر عشقك لى .

حكايـــة: (٣٠٢٠-٣٠٢٣)

اشتد المحتسب فى ضرب السكران، فقال لـه السكران : قلـل ، فـأنت أشد سكرا، يسبب المال الحرام الذى فى هذه الأعتاب.

المقالة السادسة والثلاثون :

سؤال طائر آخر : (٢٤٠٣-٣٠٣٠)

تقدم طائر آخر : إذا وصلت إليه ، فماذا سأطلب منه ، فأجابه الهدهد: إذا وصلت إليه، فاطلب منه المعرفة ، فإن وجدت منه المعرفة فى كل العالم ، فإنك ستطلب منه ماتريد أن تعرفه .

حكايـــة : (٣٠٣١- ٣٠٤٤)

عندما حضرت الوفاة أبوعلى الروذبارى ، وظهر له مقامه فى الجنة، فقال: ومع ذلك فإن روحى لايد طولـى لهـا فىالتحقيـق. وقـال مخاطبـا اللـه : إننى لست مثل أصحاب الرشوة ، لذلك لاعلم لى بالجنة أو النار ، ولاعلم لـى بالدين أو الكفر ،وأنت حاجتى فى كلا العالمين .

حكايـــة : (٣٠٤٥-٣٠٥٦)

قال الحق: ياداود ، قل لعبادى : إن لم تكن لى جنة أو نار ، لما كانت العبودية مستهجنة لدى . وتدور الحكاية حول طرح ماسوى الله .

حكايـــة : (٣٠٥٧-٣٠٨١)

حول جعل محمود غلامـه إيـاز ملكـا ، وحسـد الجند لإيـاز ، وحـزن إياز، ولما سئل من سبب حزنه ، قال : إن السلطان يريد أن يشغلنى عن نفسه

بالملك . (ويعلق العطار على ذلك): إن كنت طالبا ولله عارفا ، فتعلم كيف تكون العبودية من إياز .

حكايــة : (٣٠٨٢-٣٠٨٩)

حول رابعة ورفضها الدنيا والآخرة ، والاكتفاء بعشق الله .

حكايــة : (٣٠٩٠-٣٠٩٩)

نادى الله داود ، وقال : كل شئ له عوض إلا أنا ، ولما كنت بلا عوض ، فلا تكن بدونى .

حكايــة : (٣١٠٠ - ٣١١٦)

لم عرض الهنود علىمحمود ذهبا كثيرا ، حتى لايهدم صنمهم فى معبد (سمنات) ورفض محمود ، وأحرق الصنم خرج من داخله ذهب أضعاف ماعرض الهنود فلتحطم كل ماتملك من أصنام ، حتى تجد بحارا من الجواهر .

ويامن أقررت (الست) أولا ، أتنكر (ألست)([1]) آخر؟

حكايــة : (٣١١٧-٣١١٨)

نذر محمود إن هو انتصر علىالهنود ليعطين الغنائم لفقراء الطريق ، فكان ماغنم يفوق الحصر ، فأراد تنفيذ النذر ، فاعترض الأصحاب ، فاستشار المجذوب أبا الحسين . فقال : قد وصل أمرك إلى هذه الديار بدانقين ، فإن ترغب فى ألا تكون على صلة به ، فلا تفكر فى هذين الدانقين.

([1]) إشارة إلى آية الميثاق من سورة الأعراف: " وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ..." الآية (الأعراف:١٧٢) وقد سبق الحديث عنها فى الفصل السابق.

المقالة السابعة والثلاثون :

سؤال طائر آخر: (٣١٣٩- ٣١٤٨)

تقدم طائر آخر يسأل الهدهد عن الهدية التى يمكن حملها إلى السيمرغ. فقال الهدهد: إن تطع الأمر ، فلن يكون هناك شئ ناقص فكفاك حمل حرقة الروح وآلام القلب.

حكايـــــة : (٣١٤٩-٣١٦٧)

لما أمرت زليخا بإلقاء يوسف فى السجن ، أمرت حارسا بضربه ضربات تسمع هى :اوهاته من مكان بعيد ، فأخذ الغلام يمثل ضرب معطف، ويوسف يصرخ (تمثيلا) ولكن الغلام قال ليوسف ، لابد من ضربه واحدة تجرحك حتى إذا رأتك زليخا صدقت ، فهوى على كتفه بضربه حقيقية ، شجت كتفه فتأوه يوسف ، فأمرت زليخا بإيقاف الضرب ، وقالت : هذه آهة متألم حقا . فالمآتم فيه الباكون المجاملون ، أما صاحب المأتم فبكاؤه هو الذى يؤثر .

حكايـــــة: (٣١٦٨-٣١٧٦)

كان لأحدهم غلام زنجى طاهر ، يقوم بالليل يصلى ، فطلب منه مالكه أن يوقظه ليصلى معه ، فقال الغلام : إن الراغب فىآلام الطريق لاحاجة به إلى من يوقظه .

حكايـــة : (٣١٧٧-٣١٩٥)

قال الشيخ أبو على الطوسى(١): غدا يتأوه أهل النار الما ، لما يـرون أهل الجنة فى نعيمهم،فيقول لهم أهل الجنـةإن نعيـم الجنـة لايسـاوى شـيئا بعـد مارأينا الحبيب فيقول أهل النار برؤيتنا الحبيب أنستنا الحسرة لهيب النار..

حكايـــة : (٣١٩٦-٣٢٠١)

طلب رجل من الرسول أن يصلى فى مصلاه ، فرفض طالبـا منـه أن يصلى على الرمل المحرق ، لأن لكل عاشق إلهى أثر جرح فى وجهه.(٢)

المقالة الثامنة والثلاثون :

سؤال طائر آخر: (٣٢٠٢-٣٢١٢)

تقدم طائر آخر ، فسأل الهدهد عن طول الطريق ، فأجابه الهدهد: إن فى الطريق سبعة أودية ، بعدها الأعتاب العالية. ولم يعد مـن سـلوك الطريـق أحد حتـى الآن ، ولـذا لايعرف أحد طـول هـذا الطريـق ، فـإن كـانوا يفنـون بالكلية، فكيف يخبرونك بحقيقته ؟ وهذه الأودية هى :

---

(١) أبـو على الطوسـى الفـارمدى ، شـيخ الغزالـى ، واسـمه الفضـل بـن محمـد بـن علـى الفارمدى، وفارمد من قرى طوس ، وكان شيخ شيوخ خراسان ، وتلميذا للإمام القشيرى ، ومريدا للشيخ أبى القاسم الجرجانـــى ، توفـى عـام ٤٧٧هـ. أنظـر : سـفينة الأوليـاء ، ص ٧٥، ونفحات الأنس ، ص ٣٧٠ نقلا عن بديع محمد جمعه ، مرجع سابق ، هـامش، ص ٣٥٥.

(٢) كان يجب على الرومى التحرز فى ذلك ، فمن كذب على الرسول ، فليتبوأ مقعده من النار كما جاء فى الحديث .

وادى الطلب ، ثم وادى العشق ، ثم وادى المعرفة ، ثم وادى الاستغناء عن الصفة، ثم وادى التوحيد الطاهر ، ثم وادى الحيرة الصعب ، ثم وادى الفقر والفناء. ثم بعد ذلك لن يكون لك سلوك فى الطريق ، فإن تدرك نهايته ، يتلاش مسيرك ، وإن تكن لك قطرة ماء ، فإنها تصبح بحرا خضما.

بيان الوادى الأول:

وادى الطلب : (٣٢١٣-٣٢٢٨)

واد ملئ بالعقبات والصعاب ، وستتخلى فيه عن كل ماتملك ، ولن يبقى لك علم بأى شئ وتنسى كلا العالمين ، وستقبل كلا من الكفر والايمان حيث لن يبقى هذا ولاذاك .

حكايـــة: (٣٢٥٩-٣٢٥٣)

قال عمرو بن عثمان المكى[1] الذى دون فى كتابه (كنج نامه) فى مكة : إن إباء إبليس السجود كان بهدف معرفة السر ، وهو نفخ الروح فى طينة آدم ، فسجدت الملائكة دونه ، فطرده الله لأنه كان جاسوسا على السر ، وأصر الله على قتله ، فطلب منه إبليس إمهاله فأمهله ، فكان فعل إبليس نقصا فى الطلب .

([1]) أبو عبدالله عمرو بن عثمان المكى، أستاذ الحسين بن منصور الحلاج ، اتصل بالجنيد ،وصحب الخراز ، كان عالما فى علوم الحقائق وأصله من اليمن ، أقام فترة فى مكة ، ثم رحل إلى بغداد ، حيث توفى فيها عام٢٩٦هـ/ أو ٢٩٧هـ. انظر : نفحات الأنس، ٣٣٥ ش ، ص ٨٥،٨٤ ، نقلا عن بديع محمد جمعه ،مرجع سابق ، هامش ص ٣٥٩.

حكايـــة : (٣٢٥٤-٣٢٦٨)

عندما حانت وفاة الشبلى ، حزن حزنا شديدا ، وقال : إننى أغار من إبليس ، فكلما حظى باللعنات ، تحسرت . إن كان هناك فرق بين مايأتيك من الله سواء أكان حجرا أو جوهرا ، فلست بصاحب طريق ، فليسا ولديك الجوهر والحجر لأن الكل من صنع يده .

حكايـــة: (٣٢٦٩-٣٢٧٣)

حكاية بحث مجنون ليلى عن ليلى فى التراب ، ولما قيل له: كيف تجدها فى التراب فقال : إننى أبحث عنها فى كل مكان .

حكايـــة : (٣٢٧٣-٣٢٨٣)

حكاية يوسف الهمدانى([1]) ، وماكان يطلب يوسف فى كل شئ مثل يعقوب ، وهكذا ينبغى أن يكون الطلب .

حكايـــة : (٣٢٨٤-٣٣٠٠)

ألم بشيخ ضيق عظيم فخرج إلى الصحراء ، فرأى شيخا يشع منه النور فسأله فقال الشيخ : من لاطلب له ، يظل أسير الحيرة .

حكايـــة :(٣٣٠١-٣٣١٠)

حكاية السلطان محمود ، وناخل التراب ، وإلقاء السلطان أسورته فى التراب ليعثر عليها الناخل ، وفى اليوم التالى وجد السلطان الناخل مستمرا فى

([1]) توجه من همدان إلى بغداد ، ولازم العلماء ثم سار فى طريق الله حتى توفى فى الطريق من هراة إلى مرو عام ٣٣٥ هـ، انظر نفحات الأنس ط طهران ، ١٣٣٦ ش ، ص ٣٧٥- ٣٧٧ ، نقلا عن بديع محمد جمعة ، مرجع سابق ، هامش ص ٣٦٢.

عمله ، فعجـــب ، وسأل الناخل : امعن مجتهدا فى الطلب ، فى أغلـق البـاب بعـــد .

حكايـــة : (٣٣١١-٣٣١٢)

سأل أحد الوالهين الله: افتح لــى البـاب ، وكـانت رابعـة تجلس هنـاك فقالت: أيها الغلام إن الباب مفتوح .

المقالة التاسعة والثلاثون :

فى وصف وادى العشق : (٣٣١٣-٣٣٣٤)

من يصل هنا ، يغرق فى الحرقة ، فالعاشق من يكون فىنار وحرقـة، العاشق من لايفكر لحظة فى العاقبة، وفـى لحظـة لايعـرف الكفـر والإيمـان ، كما لايعرف ذرة من شك أو يقين ، الخير والشر متساويان ، العشق نار، أمـا العقل فدخان وحتى لو اطلعت على عـالم الغيب ، فلـن تـدرك مـن أيـن ينبـت هناك أصل العشق .

حكايـــة: (٣٣٣٥-٣٣٤٤)

عشق أحدهم غلاما فقيرا يبيع الفقاع ، حتى باع كل مايملك مـن أجـل عشقه واشترى به فقاعا . ولما ليم على ذلك ، قال : العشق هو أن تبيـع مائـة عالم من المتاع مقابل كأس واحدة من الفقاع .

حكايـــة : (٣٣٤٥-٣٣٦٧)

مجنون ليلى ، حرم أهل ليلى ديارهم عليه ، فلجأ إلى راع ، واسـتعار منه فرو خروف يلبسه ، ويندس وسط الغنم لينعم بالنظر إلى المحبوب ، ومن

يومها أصبح يفضل فرو الخروف علىالحرير والديباج . فالعشق ضرورة ، حتى يحررك من عقلك .

حكايـــة : (٣٣٦٨-٣٤٠٥)

حكاية الوله المسكين الذى وقع فى عشق إياز ، وأخذ يتابعه وهو يلعب الصولجان وفى حديثه مع السلطان محمود شبه نفسه بالكرة ، بل الكرة أفضل منه لقربها من إياز وأخيرا يقول المفلس هو العاشق الحق لأنه لايملك سوى نثر الروح من أجل المحبوب . عند ذلك تأتى المعرفة الحقيقية.

حكايـــة: (٣٤٠٦-٣٤٢٧)

حكاية الأعرابى الذى ذهب إلى بلاد العجم ، ودخل دار (القلندرية)[1] حتى سكر مثلهم ،وضاع ماله ، وعاد مجنونا إلى بلاده عاريا، فلم سئل : لم يدر شيئا وكل ماقاله : ادخل وتخل عن كل شئ ، وانثر الروح.

حكايـــة : (٣٤٢٨-٣٤٤٢)

حكاية الرجل الذى عشق فتاة فمرضت ،وأوشكت علىالموت ، فحمل العاشق سكينا لذبحها بها ، فلما ليم فى ذلك قال أقتلها فيقتلوننى قصاصا ويوم القيامة يحرقوننى فأحب أن أسمى مقتولا أو محروقا .

([1]) القلندرية فرقة مثل الملامتية ، والصوفية . الأولى تعتبر الكمال فى التجريد والتفريد، ويجتهد فى تخريب العادات ، والملامتية تجتهد فى كتم العبادات والصوفى ، فقلبه أصلا غير مشغول إلا بالحق (فرهنك مصطلحات عرفا ، نقلا عن تعليقات الدكتور جوادمشكور على منطق الطير ، ط طران ١٣٤١ ش ، ص ٣٣٤ وذلك نقلا عن بديع محمد جمعه ، مرجع سابق ، هامش ص ٣٧١.

حكايـــة : (٣٤٤٣ - ٣٤٥٥)

عندما حضرت الوفاة خليل الله رفض تسليم الـروح لعزرائيـل ، لأن عزرائيل تدخل بينه وبين حبيبه ، فإذا قد رفض تدخل جـبريل عـن إلقائـه فـى النار فكيف يسمح بتدخل عزرائيل الآن؟

المقالة الأربعون :

بيان وادى المعرفة (٣٤٥٦-٣٤٨١)

هذا واد لابداية له ولا نهاية ، وفيـه يختلـف كـل طريـق عـن الآخـر ، وفيه يختلف السالك بالجسد عن الســالك بـالروح ،وفيـه تـداوم الـروح والجسـد الترقى والزوال وذلك عن طريق النقصـان والكمـال ، وكـل سـالك علـى قـدر طاقته ، ولن يكون كـل طـائر فيـه سـالكا.وهنـا تتفـاوت المعرفـة، فهـذا يـدرك المحراب ، وذاك يدرك الصنم.

حكايـــة : (٣٤٨٢-٣٤٩٨)

حكايـةالرجل الـذى فـى الصيـن يكسـر الحجــارة ، ودموعـه تتســاقط فتتحول إلى أحجار وعنده المعرفة فاطلب الحكمة ولو فى الصين .

حكايـــة : (٣٤٩٩-٣٥٠٩)

أصيب عاشق من فرط العشق بالاضطراب ، فقام ، فمر به معشـوقه، فكتب ورقة ووصعها علـى كمـه وفيهـا : إن كنـت تـاجرا للفضــة ، فـانهض ، واسع ،وإن كنت زاهدا ، فتهجـد بـالليل ،وكـن للـه عـابدا، وإن كنـت عاشـقا ، فليعترك الخجل ، فمتى جاز لعين العاشق أن تنام ؟ وإن كنت لا هذا ولا ذاك، فقلل من التفاخر الكاذب بعشقنا .

حكايـــة : (٣٥١٠-٣٥٣٧)

حكاية الحارس العاشق ،واتفاق العشق مع الحراسة فـى عـدم النـوم . فكن على الدوام حارسا فى محراب القلب ، فمـا أكـثر اللصـوص المـتربصين بالقلب ، فما أسرع ظهور العشـق فـى المعرفـة ، ومـن بـدا لـه ذوق العشـق ، سرعان ماوجد مفتاح العالمين.

حكايـــة: (٣٥٣٩-٣٥٥٠)

حكاية العباسـة وبيانهـا أن كـل مـن يكـون ثمـلا بعـالم العرفـان يكـون بالنسبة لخلق الدنيا جميعا بمثابة السلطان .

حكايـــة : (٣٥٥١-٣٥٥٧)

مضى السلطان محمود صوب خرابه فرأى مجنونا بها ، وقـد أصابـه الهم والغم ، ومأن رأى السلطان، حتى قـال : ابتعـد عنـى ياكـافرا بنعمـةربك لست سلطانا. فاستفسر منـه السـلطان عـن ذلـك ، قـال : لعلـك تعلـم عـن مـن ابتعدت ، فأنت لست إلا ترابا ورمادا .

المقالة الحادية والأربعون :

فى وصف وادى الاستغناء (٣٥٥٨-٣٥٨٠)

هناك الهـول والعظمـة والجـلال . وهنـاك هـذا الـوادى خـال مـن كـل دعوى ومعنى، البحار السبعة ليست سوى بركة ماء، والكواكب السبعة مـاهى إلا ومضة، الجنات السبع فى موت مطبق ، والنيران السبعة كالثلج المتجمـد ، ... الجديد والقيدم هنا لا قيمة لهما ، فلا ترغب فـى شـئ هنـا مطلقـا . إذا لـم يبق أى أثر الناس والشيطان ، فكأنما سقطت قطـرة واحـدة ، وإذا سـار الكـل

الى التراب فكأنما اختفت شعرة واحدة ، وإذا ضاع الجزء والكل هنا ، فقد نقصت ورقة تبن واحدة من على وجه الأرض ...

حكايــة: (٣٥٨١-٣٥٤٩)

حكاية الولد الوحيد الجميل الذى سقط فى البئر وانهال عليه التراب ، ثم أخرجوه ، وكان اسمه محمد ، فناداه أبوه : يامحمد ، فقال الولد : من محمد ؟ ومن الغلام ؟ ومن الإنسان ؟ قال هذا واسلم الروح .

إن كل ماعدا الله لاشئ.

حكايــة: (٣٥٩٥-٣٦١٥)

إن عملك قل أو كثر لاقيمة له ، عملت أم لم تعمل لاقيمة لذلك تبين خحقيقة عدم الاحتياج ، وامعن النظر إلى الاستغناء ، سواء كنت فرحا أو نائما.

حكايــة : (٣٦١٦-٣٦٢٦)

ذلك الرسام الذى رسم لوحة وزينها ، ورسم فيها الثوابت والسيارة وبين عليها الأفلاك والأرض ،وهو يوجه أوامره لهذه أو تلك ويكتب النحس أو السعد لهذا أو ذاك ، فى العالم إلا هذه اللوحة.

حكايــة: (٣٦٢٧-٣٦٣٨)

جاء الهاتف إلى الشيخ صاحب السر: انهض ،واطلب كل ماتبغى فقال الشيخ : إذا كان الأنبياء هم أصحاب البلاد ، فكيف بالصغار مثلى فلست بطامع فى عزه أو ذله .وليتك تتركنى أسير عجزى .

حكايـــة : (٣٦٣٩-٣٦٥٢)

نظرت ذبابة جائعة إلى خلية العسل وقـالت مـن يـأخذ دانقـا ويدخلنـى الخلية فجاءها من أخذ منها الدانـق وأدخلهـا ، وإذا بهـا قـد كبـل العسـل يديهـا ورجليها ، فقالت : من يأخذ دانقين ويخرجنى .

فانهض واقطع الوادى الصعب ، وتخلص من الروح ، واقطع صلتـك بالقلب .

حكايـــة: (٣٦٥٣-٣٦٦٩)

كان صوفى قد وقع فى حب ابنة الكلاب ، فعرقـت أمهـا ، فعرضـت عليه الاشتغال بمهنة الكلاب عاما ثم تزوجها له ، فاعترض عليه صاحب لـه، فقال: ياغافل إن الحق تعـالى يعلـم بهـذه الأسـرار ، وبإمكانـه إصـابتك بمثـل ماأصابنى .

حكايـــة : (٣٦٧٠-٣٦٧٢)

قال مريد لشيخه ألا تقول لنا نكتة ؟ قال : فإن تغسلوا وجوهكـم أقـدم لكم النكتة . ولكن أى جدوى من العطر فى النجاسة ؟

المقالة الثانية والأربعون :

فى وصف وادى التوحيد : (٣٦٧٣-٣٦٨٠)

بعد ذلك يأتيك وادى التوحيد ، فيقبـل عليـك منـزل التجريـد والتفريـد وسواء رأيت كثرة أو قله ، فسيكون الكل واحدا ، فإن يكثر تداخل الواحد فـى الواحد دواما ، فسيتوحد الواحـد فـى الواحـد تمامـا ، ولـن يتـم لـك هـذا الفـرد الأحد، لأن مايتم لك هو الفرد المتعـدد ، واذ أخـرج ذلـك عـن الحـد والعـد ،

فاقطـــــع النظر عن الأزل والأبد ، واذا تلاشى الأزل فالأبد خالد وما الكل إلا عدم .

حكايــــة : (٣٦٨١-٣٦٨٥)

قال أحدهم لواله : ماهذا العالم ، وماتلك الدار ؟ قال : إذا كان أحديا، فلا يمكن أن يكون ثنائيا .

حكايــــة : (٣٣٨٦- ٣٧١٨)

قالت العجوز لأبى على : خذ هذه الصحيفة الذهبية ، فقـال : عـودت نفسى ألا آخذ من أحد شيئا إلا مـن اللـه، فقـالت : مـن أيـن لـك هـذا الحـول ، فلست صاحب حـل وعقد فـى هذا الطريـق ، فكيـف تـرى الغير إن لـم تكـن أحول؟ ليس فى عين الإنسان هنـا إلا شـئ واحـد . حيث لاوجـود للكعبـة أو الدير وسيأتى يوم فىالنهاية وتضمـه الشـمس الـى حوزتهـا: إن فنيـت أدركـت العشق والمحبة . وأنت ياعطـار ، متـى تتخلص مـن هـذا الكـلام المجـازى ، وتعود إلى اسرار التوحيد ؟ فعندما يصل السالك إلـى ذلـك المكـان ، يتلاشـى الرجل والمكان من الطريق . فإذا انعدم هذا الشخص بـالكل ، فـالكل هـم هـذا الشخص، وسواء كان العدم أو الوجود ، فهذا الشخص موجود .

حكاية : (٣٧١٩-٣٧٣٠)

قال لقمان السرخسى([١]): إننـى شـيخ طـاعن فـى السـن ، وقـد ضـللت الطريق ، والعبد يكافأ بوثيقة عتقه . فقال الهاتف : إن كل من يطلب الخلاص

([١]) جاهد كثيرا وفجأة أنعم عليه بالكشف ، وولى منه العقل ، انظر : اسرار التوحيد فـى مقامات الشيخ أبى سعيد ، لمحمد بـن المنـور بـن أبـى سـعيد ، ترجمـة إسـعاد عبدالهـادى قنديل، ص ٤٠-٤١ نقلا عن بديع محمد جمعة : مرجع سابق ، هامش ص ٣٩١.

من العبودية ، عليه أن يفنى عقله وتكليفه معا. فأجاب بالموافقة ، فأخذ يرقص ويقول : لا أعلم أأنا أنت، أم أنت أنا ، فقد فنيت فيك ، وتلاشت الإنية .

حكايـــة : (٣٧٣١-٣٧٣٩)

سقط عاشق فى الماء، فألقى معشوقه نفسه فى الماء وراءه ، فقال له العاشق : لماذا فعلت ذلك . قال : لأنى لم أعرف نفسى من نفسك . افن نفسك فى الله ، فهذا هو التوحيد ، وافن الفناء نفسه ، فهذا هو التفريد .

حكايـــة :(٣٧٤٠-٣٧٧٨)

لما استعرض السلطان محمود جيشه العظيم ، قال لإياز هذا الجيش لك . فلم يحرك ساكنا ، وكان الوزير حسن جالسا ، فأبدى امتعاضه من عدم كلام إياز . فقال له إياز إن إجابة امتعاضك من طريقين:

أحدهما : أننى لا أستطيع مقابلة معروف السلطان مهما فعلت ومهما تكلمت فقال . حسن : أحسنت . فهات الطريق الثانى . فقال : لايحسن ذلك وأنت حاضر . فتنحى حسن ، وذاب وسط الجيش ، فقال محمود : ماذا تقول ياإياز ؟ قال إياز : شملنى السلطان بعطفه ونظره وفى ضياء ذلك يمحى وجودى .ومادام وجودى ينمحى فكيف أشكرك ولو بالسجود . فليس هذا الشخص أنا إنما هو السلطان .

المقالة الثالثة والأربعون :

فى وصف وادى الحيرة : (٣٧٧٩-٣٧٩١)

عندما تصل إلى هذا الوادى تتوزعك الآلام .وإذا قيل للعبد : أأنت موجود أم لا ؟ أأنت فان أم باق أم كلاهما معا ؟ . فإنه يقول : إننى لا أعرف كنهى . إننى عاشق ولكن لا أعرف من أعشق .

حكايــــة : (٣٧٩٢-٣٨٧١)

كان هناك ملك ، له ابنة ليس كمثلها فى الجمال . وجاء غلام مثل أمام الملك من أجل الخدمة ، وكان كالبدر فى طلعته . فرأته ابنة الملك ، فوقعت فى حبه وأصابها الحزن ، فباحث لمغنياتها بالسر ، فذهبت إحداهن ، وأعطت الغلام كأسا من خمر به مايغيب الوعى، ولما غاب عن وعيه فى الماء ، حملته المغنيات فى فراشه إلى ابنة السلطان ، فأفاق نصف إفاقة على الغناء والألحان،ووجد ابنة الملك ، وظل هكذا طول الليل بين الألحان والقبل ، حتى أصبح الصباح فنام ، فأعدنه إلى مكانه . ولما استيقظ ، قال : لا أدرى ماذا أقول ، هل كنت فى حلم أم يقظة ، هل مارأيته حقيقة أم خيال ، وظل هكذا فى حيرة لايقر له قرار .

حكايــــة : (٣٨٧٢-٣٨٨٤)

فقدت إحدى الأمهات ابنتها ، فوقفت على قبرها تبكيها . فقال أحد السالكين : إن هذه الأم فاقت الرجال ، لأنها تعرف من ترثيها ، أما أنا فلا أعلم من فارقت ، ولماذا أبكى ، وماسبب ذلك الحزن فى قلبى فى مثل هذا المنزل يزول القلب ، بل يزول هذا المنزل ، ومن يصل إلى هنا يصبه الفناء، وإذا أدرك أحد طريقا هنا ، فقد أدرك سر الكل فى لحظة .

حكايـــــة: (٣٨٨٥-٣٨٩٨)

سمع صوفى رجلا فقد مفتاح بابه ، وهو يقول : كيف أدخل الباب وقد فقد المفتاح . فقال له الصوفى اذهب إلى الباب ، ولابـد أن بفتـح البـاب يومـا. أما أنا فلا أعرف لى بابا أو مفتاحا . كل من تردى فى وادى الحـيرة ، تـردى كل لحظة فى مائة عالم من الحسرة . وهنا يحق للرجل أن يسـتعذب الشـكاية، فقد صار الكفر إيمانا ، والإيمان كفرا .

حكايـــــة: (٣٨٩٩-٣٩١٢)

الشيخ نصر أباد([1])، حج أربعين مرة ، ثـم أبيـض شـعره ونحـل ، ثـم عقد الزنار وطاف حول النار ، فعوتب : لقـد أسـأت سمعة القـوم . فقـال : لا حيلة لى ، ولم أعد أعرف شيئا ، وإذا كانت النـار قـد سيطرت علـى روحـى فكيـف يبقـى لـى اسـمى وشـهرتى ، وإن تصبـك الحـيرة ، فسـتصاب بمئـات الحسرات مثلى .

حكايـــــة: (٣٩١٣-٣٩١٩)

سأل مريد شيخه فىالمنام بعد موت الشيخ : إننى فى حيرة ، فما هـى حالك هناك . فأجاب الشيخ : نحن هنا أشد حيرة منكم .

([1]) اسمه إبراهيم بن محمد بن محمويه ، ولد فى نيسابور ،وأقام بهـا ،وكـان شـيخ زمانـه فى الحقـائق . تتلمذ علـى ابراهيـم الشـيبانى ، ورأى الشـبلى والواسـطى ورحـل إلـى مكـة واستقر بها إلى أن مات هناك عام ٣٧١هـ (أنظـر : نفحـات الأنـس ، ط طهران ، ص ٢٣٠) نقلا عن وديع محمد جمعه : مرجع سابق ، هامش ص ٤٠٢.

المقالة الرابعة والأربعون :

في وصف وادى الفقراء والفناء : (٣٩٢٠-٣٩٣٦)

ويأتى بعد ذلك وادى الفقراء والفناء، ولايجوز الكلام هنا ، فعين هذا الوادى هو النسيان والبكم والصمم ، وذهول العقل والوجدان ، وسترى مئات الظلال الخالدة تتلاشى أمام شعاع واحد من شمسك ، وإذ هاج وماج البحر الكلى ، فهل تبقى نقوس على صفحة ذلك البحر؟ وكلا العالمين مجرد نقش على سطح هذا البحر ... وكل القلب فى هذا البحر الملئ بالفناء لا يجد شيئا سوى الفناء ، فإذا منح الفناء ثانية ، أحاط علما بالخلق ، وتكشفت له أسرار كثيرة .

وإن أصاب السالكون الفناء من أول خطوة ، فاعتبرهم من الجماد، ولو كانوا من الخلق . وإن يفن نجس فى بحرالكل يهبط إلى القاع ذليلا ، ولكن إن ينزل إلى هذا البحر رجل طاهر ، فسيفنى فناء حقيقيا، وحين يحدث ذلك يكون فانيا وهو موجود ، وهذا يخرج عن نطاق الخيال والعقل.

حكايـــة : (٣٩٣٧-٣٩٧٥)

كلام الشيخ معشوق الطوسى([١]) عن الفناء.

حكايـة : (٣٩٥٨- ٣٩٧٥)

([١]) اسمه محمد ، وكان من عقلاء المجانين ، عاش بمدينة طوس ، وبها دفن عاصر الشيخ أبا سعيد ميهنة ،أن الصديقين يوم القيامة يتمنون أن يكونوا ترابا تطؤه قدماه (نفحات الأنس ص ٣٠٩) نقلا عن بديع محمد جمعة ، مرجع سابق ، هامش ص ٤٠٥.

أرادت الفراشات أن تعرف الخبر من الشمعة ، فطارت واحدة ، ودارت حول الشمعة ، ثم عادت ووصفت الحال . فقيل لها لم تأت بخبر صحيح. فطارت الثانية واقتربت جدا من الشمعة ، ثم عادت ووصفت ماعرفته ، فلم يعجب ذلك الناقد البصير ، فطارت ثالثة ، ودخلت شعلة الشمعة حتى احترقت وتحولت الى نار . عند ذلك قيل:إنها عرفت الخبر الصحيح . فمن أصبح بلا خبر ولا أثر ، فهو الذى يعرف الخبر.

حكايــــة: (٣٩٧٦-٣٩٩١)

كان أحد الصوفيه يسير ، فصفعه جاهل على قفاه ، فقال له الصوفى: إن من صفعته مات منذ ثلاثين سنة ، فقال له الصافع : قلل من الدعوى، فمتى كان الميت يتكلم؟ مادمت تنطق ، فلست رفيقا، ومادام لك وجود فلست محرما للأسرار.

حكايــــة: (٣٩٩٢-٤٠٩٧)

حكاية الملك الذى له ابن غاية فى الجمال وعشقه مسكين حتى افتضح أمره لقائد الجند فأبلغ الملك بذلك ، فحكم الملك بصلبه ، وما أن حانت الساعة، حتى لجأ المسكين إلى الله، فسمع الوزير شكايته ، فابلغ الملك ، فرق له ، وأمر ابنه أن يذهب إليه ، فلماذهب إليه ، ولما سمع منه كلاماورفع رأسه إلى وجهه ، خر صريعا وفارق الحياة .

حكايــــة: (٤٠٩٨-٤١٠٣)

سأل أحد الصالحين النورى : كيف يكون الطريق حتى يتم الوصال؟ فقال إن لنا سبعة بحار من نور ونار ، وعندما تعبرها ، ستجذبك السمكة فى لحظة وإن تجذب فى لحظة كل الخلق أجمعين .

المقالة الخامسة والأربعون والأخيرة:

في سلوك الطير الطريق صوب السيمرغ :(٤١٠٤-٤١٥٣)

بعد سماع ذلك كله حزنت الطيور ، وما أكثر الطيور التى ماتت، ومابقى منها اندفع بفعل الحيرة ، ولم يستطع الوصول إلى عتبات الحضرة غير ثلاثين طائرا ، بعد أن كانوا الوفا . وصل الثلاثون ، وقد عدموا الأجنحة والريش . وأخيرا جاء حاجب العزة من الأعتاب . وسأل الطيور عن سبب مجيئها ، فقالت : جئنا إلى هنا ليكون السيمرغ لنا ملكا . فقال : إنه الملك سواء أكنتم موجودين أم لا . يئس كل واحدمنها وقال: كيف ينعم علينا السلطان بالذل فى نهاية الطريق ، ولو حدث هذا فإن الذى منه ليس إلا العز والسؤدد.

حكايـــة: (٤١٥٤-٤١٦٣)

قال المجنون لا أريد أحدا أن يمدحنى ، بل أريد ليلى أن تهجونى فهذا هو قمة سعادتى .

وبذلك رضيت الطيور بهذا الذل من الحبيب .

حكايـــة: (٤١٦٤-٤١٧٥)

لامت الطيور الفراشة على محاولتها الاقتراب من النور دون جدوى، فرفضت هذا اللوم. ثم جاء الحاجب ، وفتح الباب ، وأزاح مائة حجاب ، وظهر النور ،وأجلس الحاجب الجميع على مسند القربة ، ووضع رقعة أمام الجميع ، وقال : اقرءوها ، ولما علم القوم ما بالرقعة تملكهم الاضطراب.

حكايـــة: (٤١٧٦-٤٢٣٢)

يوسف الذى أصبح عزيـزا بعـد أن اشـتراه العزيـز مـن إخوتـه بثمن بخس، وكان قد أخذ عليهم وثيقة ببيعه . لما حضر إخوة يوسف إليـه يطلبـون منه القوت طرح عليهم الوثيقة ليقرأوها وهى بالعبرية ولايعرف العبريـة أحـد غيرهم ، فلما نظروا فيها، لم يستطيعوا قراءتها ، لأن فيهـا ذنوبهـم . وعندمـا نظر الطيور الثلاثون فى الرقعة ، وجدوا فيها أعمالهم ، ورحلتهم ، ومـاحدث لهم أما تعلم أيها المسكين أنك تبيع يوسف فى كل لحظة . فنيت أرواح الطيور من الخجـل ، فلمـا تطهـرت ، ظهـر لهـم السـيمرغ ، فنظـروا إليـه ، فـإذا هـو الثلاثون طائرا ، ونظروا إلـى أنفسـهم فـإذا هـى السـيمرغ ، فبـدت حـيرتهم . جـاءهم الخطـاب مـن الحضــرة : إن صــاحب الحضــرة هــو مــرآة ســاطعة كالشمس، فكل من يقبل عليه يرى نفسه فيه ، ومن يقبل بالروح والجسد ، يـر الجسد والروح فيـه ، لأنكـم وصلتـم ثلاثيـن فبدوتـم فـى المـرآة ثلاثيـن ، ولـو حضـرتم أربعين ، لبدوتم أربعين أو خمسين أو أكثر .

كل ماأدركته وما رأيته هو أنت ليس ذلك الشئ، وماقلته وسـمعته هـو أنت وليس ذلك الشئ.

كنت أتكلم ، ماداموا يسلكون ، ولكن ماإن وصلوا ، حتى لم يعد للقول بدايـة ولانهايـة ، فـلا جـرم أن نضـب معيـن الكـلام هنـا ، حيـث فنـى السـالك والرشد والطريق.

حكايـــة: (٤٢٣٣-٤٢٤٠)

أقبـل أحدهـم بعـد أن احـترق الحـلاج وأصبـح رمـادا ، وجلـس علــى الرماد، وقال : قولوا الحق . أين من نطق بقوله (أنا الحق)؟.

حكايـــة: (٤٢٤١-٤٢٦٢)

بعد قرون طوال أسلمت الطيور نفسها إلى الفناء ، حتى ثابوا ثانية إلى رشدهم فقد وصلوا إلى البقاء بعد الفناء . وهذا البقاءيلزمه كتاب جديد ، ولكن من الذى يدرك أسرار البقاء؟

فامض إلى العدم ، حتى تدرك الحياة فى إثر ذلك .

حكايـــة: (٤٢٦٣-٤٤٢٣)

كان هناك ملك ،وله وزير ، وللوزير فتى يعجز الواصفون عن وصف جماله ، فأغرم به السلطان ، ولم يكن يفارقه لحظة ، حتى أن أباه وأمه لم يكونا يحظيان بنظرة منه ، لأنه كان دائما مع السلطان . وكانت هناك فتاة مجاورة للسلطان ، وقع الفتى فى حبها ، وكانا يتلاقيان سرا، وفاجأهما السلطان ، فاشتدت به الغيرة ، فأقسم ليصلبنه بعد أن يفصل رأسه عن جسده، ويسلخ جلده ، وأمر غلمانه بذلك ، فسعى الوزير الوالد فى السر إلى الغلمان بهدايا ، نظير استبدال سفاح فى السجن بابنه وفعلا تم له ذلك ، وأخفى ابنه، ونفذ الأمر فى السفاح ، والناس يحسبونه ابن الوزير ، فعم الحزن الجميع ، إلا الملك الذى اشتد سروره . ولكن بعد فترة اشتد شوق السلطان إلى الفتى فعاوده الحزن ، وتضاءل جسده ، وزاد الطين بلة أن رآه فى النوم يعاتبه .ولما وصل الحزن إلى مداه ، أخفى الوزير نفسه وأظهر ابنه أمام الملك ، فما أن رآه حتىسقط مغشيا عليه، وكذلك الفتى ولا أستطيع أن أصف ماحدث لهما. لأن ذلك يفوق الوصف . ولأنه مضى وقت الكلام، وجاء وقت العمل ، فكثيرا ماتكلم والسلام .

خاتمة الكتاب: (٤٤٢٤-٤٤٧٦)

يفاخر العطار بكتابه هذا (منطق الطير) فقد ملأ الدنيا عطره ، لأنه عطار . ويدعو الناس إلى قراء الكتاب إلى العشق والحزن ، وألا يسمحوا لأنفسهم ولو لحظة بالفرح والسرور ، لأن طريق العشق هو طريق الأحزان ويدعو الله أن يحرم أهل العشق من أى دواء . لأن الدواء هو الداء وداؤك فى كلا العالمين هو دواء رواء روحك. أهل الصور غرقى بحار كلامى ، وأهل المعنى رجال أسرارى.

وإلى يوم القيامة لن يكتب إنسان قط كلاما مثل كلامى أنا الولهان فقد نثرت الدر من بحر الحقيقة، كما ختم الكلام على ، وهذه هى الوثيقة .

لقد نثرت الورد من هذا البستان ، فتذكرونى بالخير أيها الأصدقاء/ جلوت طائر الروح على النائمين .. وإن كنت قد قضيت عمرا مديدا فى سبات ، فلعل قلبك يتنبه إلى الأسرار بهذا الكلام ذات لحظة .

لست أفاخر أحدا بهذا ، وإنما أشغل نفسى بهذا .

حكايــة : (٤٤٨٨-٤٤٩٢)

حول كثرة الكلام بلا فائدة ، المهم هو الصمت .

حكايــة : (٤٤٩٣-٤٥١٥)

لقد قلت لك لغة الطير وكلامها كله ، فافهم أيها الجاهل الأبله ، وبين الطيور تنفق بعض الطيور ، لذا فهى تطير من أقفاصها قبل أن يدهمها الأجل، ولهذا كله شرح وبيان آخر ،وذلك لأن للطير لغة ولسان آخر ،وذلك الشخص قد صنع إكسيرا أمام السيمرغ ، وذلك لأنه عرف لغة الطير كلها.

أنى لك أن تعرف عالم الروحانيين من بين حكمة اليونانيين ، وإن لم تستطع التخلى عن هذه الحكمة ، فكيف تستطيع أن تكون رجلا لما فى الدين من حكمة ، وكل من يتمثلها فى طريق العشق ، فهو فى مجال الدين ليس خبيرا بالعشق ، وبحق المعرفة ، إنى أفضل فى هذا المجال كاف الكفر على فاء الفلسفة، وذلك إن تتكشف الحجب عن الكفر ، فإنك تستطيع أن تحترز من الكفر ، ولكن إذا قطع علم الجدل الطريق ، فما أكثر مايقطع على العارفين الطريق ... فيارجل الدين حسبك حكمة يثرب ، ثم انثر التراب على اليونان من طريق الدين .

حكايــة : (٤٥١٦-٤٥٥٠)

قال شيخ مسن لصوفـى : إلام تتحدث عن رجال الحق؟ قال لأنه يطيب للسانى الحديث عنهم وإن لم يكن للسانى غير الذكر.

ديوانى كله ضرب من جنون ، وإلا أبحث عن شئ لم يضـع . الخلق كله بلا وفاء ويكفينى قطعة من خبر جاف أبللها بدموعى ، وجبريل ضيفى . يكفينى أن الحقيقة كنزى ... فشكرا لله ، أننى لم ألجأ إلى قصر ، ولم أكن ذليلا لأى حقير ولم أربط قلبى بأى شخص ،ولم أطعم من خوان أىظالم ، ولم أهد أى كتاب لأى شخص . فممدوحى هو الهمة العالية فقط .

حكايــة: (٤٥٥١-٤٥٦٩)

يتحدث فيها عن استعداده للموت .

حكايــة: (٤٥٧٠-٤٥٨١)

ابتهالات تعبيرا عن عجزه وحزنه وأسفه .

حكايـــة : (٤٥٨٢-٤٥٩٩)

استمرار فى الابتهالات سائلا الله أن يهديه الطريق.

حكايـــة : (٤٦١٢-٤٦١٩)

مازال مستمرافى طلب العفو من الله .

حكايـــة : (٤٦٢٠-٤٦٢٨)

استمرار فى المناجاة .

حكايـــة : (٤٦٢٩-٤٦٣٧)

استمرار فى المناجاة وطلب المغفرة .

حكايـــة : (٤٦٣٨-٤٦٤٧)

استمرار فى طلب المغفرة والستر من الله .

*****

التحليـــــــل

أصبح من الواضح لـدى الدارسين ، أن حملـة الغزالـى علـى الفلسـفة والفلاسفة ،كان إيذانا بأفول نجم هذه الفلسفة فى المشرق الإسلامى. غير أنـه يجب الملاحظة ، أن هذه الحملة لم يكن المقصود بهـا الفلسـفة بوجـه عـام أو الفلاسفة على إطلاقهم ، بل كان المقصود هو اتجاه معين فى البحث الفلسـفى ، وهو مانعرفه بالفلسفة المشائية Peripatetic Philosophy تلك التى أثـرت عن أرسطو وتلاميذه عند اليونان أوفى العالم الإسلامى ، ولا سـيما ابـن سـينا والفارابى . ولـم يكـن الهـدف منهـا القضـاء علـى الاتجـاه العقلـى فـى الفلسـفة عموما . فمن المعروف أنه بالرغم من حملة الغزالى العنيفة هذه فإن الغزالـى قد أعلى من شأن العقل ،وجعله " ميزان الله فى الأرض " فى أكثر من كتـاب من كتبه . غير أن الغزالـى قـد وضعـه فـى حجمـه الطبيعـى بحيـث يـزن بـه الإنسان المسائل غير الميتافيزيقية .

على أية حال ، ففى الوقت الذى ضرب فيه الغزالى ضربته هذه كـان قد أعلى من شأن الاتجاه الآخر فى البحـث الفلسـفى وهـو الاتجـاه الاشـراقى وفتح الباب أمام الإشراقية التى جاءت متخفية وراء التصوف ، ثم أسفرت عن وجهها الحقيقى لدى شهاب الديـن السـهروردى المقتـول ٥٤٩هـ - ٥٨٧ هـ/ ١١٥٣م - ١١٩١م.(١)

ومن هنا فإن الدراسـات الفلسـفية الإشـراقية ظلـت حيـة فـى الأوسـاط الشيعية ، أما فى الأوساط السنية ، فقد كان الحـال مختلفـة تمامـا ، فقد كـانت

---

(1) Sayyed Hossein Nasr: Three Muslim Sages, Suhail Academy, Lahore, Pakslan . 1969, p.56.

النظرة إلى الاتجاه الإشراقى من خلال ماأطلق عليه اسم التصوف الفلسفى([1]) ويقصد به " التصوف الذى يعمد أصحابه إلى مزج أذواقهم الصوفية بأنظارهم العقلية ، مستخدمين فى التعبير عنه مصطلحا فلسفيا استمدوه من مصادر متعددة ، وقد ظهر هذا التصوف بوضوح منذ القرنين السادس والسابع الهجريين، وهما القرنان اللذان شهدا ظهور أقطابه ، واستمر بعد ذلك عند أفراد من متغلسفة الصوفية حتى عصر ليس ببعيد".([2])

وفى الواقع تبين مدى الأثر البعيد بعدالقرون السابع الهجرى والرابع عشر الميلادى لكل من الفلسفة المشائية والإشراقية فى الحضارتين الإسلامية والغربية. فعلى حين تم رفض الاتجاه المشائى فى العالم الإسلامى بسبب الحملة الغزالية ،ومن بعده حملة الفخر الرازى، فإن انتصار ابن رشد فى غرب العالم الإسلامى ، والذى لم يكن له سوى أثر قليل لدى المسلمين ، فإن مبادئه قد أثرت فىالعالم الغربى مايعرف بالرشدية ، تلك المبادئ التى استطاعت القضاء على الاتجاه الإشراقى هناك الذى أوجده أوغسطين ، بل إنها فى النهاية استطاعت التغلب على الاتجاه المدرسى ، ومن ثم ساد الاتجاه العلمى للمذهب العقلى والمذهب الطبيعى أثناء حركة الإحياء فى أوربا.([3])

ويمكننا تبين مدى سيادة المذهب الإشراقى من خلال استعراض هذه التواريخ دون أن نعثر على أية تواريخ لفلاسفة مشائين عدا ابن رشد .

([1]) التفتازانى، أبو الوفا الغنيمى : مدخل إلى التصوف الإسلامى ، القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨٣، ص ١٨٥ ومابعدها .

([2]) المرجع السابق : ص ١٨٧.

([3]) Sayyed H. Nasr. Op. Cit., p. 54, 55.

ولد الغزالى ٤٥٠هـ ، وتوفى ٥٠٥هـ ، وولد السهروردى ٥٥٠ هـ وتوفى ٥٨٧هـ وولد العطار بين ٥٤٥ و ٥٥٠ ق ، وتوفى حوالى ٦٢٧ هـ ، وابن عربى توفى سنة ٦٣٨ هـ، وفخر الدين العراقى الشاعر الصوفى توفى ٦٩٦ هـ، وأوحد الدين الكرمانى توفى ٦٩٧ هـ، كما أن العطار اجتمع مع جلال الدين الرومى ، وكان الأخير مازال فى طور الشباب وذلك سنة ٦١٦ ، أو ٦١٧ هـ.(١)

أما عن منطق الطير للعطار ، فإنه يمكن القول إنه رغم آن آثار الغزالى واضحة فى هذا الكتاب ، فإنه فى نفس الوقت ، لايمكن حرمان العطار عن آثار من اصطنعوا الرمز بالطيور فى هذا المجال غير الغزالى ، فالعطار يتخذ من الهدهد دليلا لسائر الطيور ، واصفا إياه ، على ألسنة الطيور ، ومن خلال تساؤلاتهم الكثيرة له ، بأنه العاشق الذى سبق له ارتياد الطريق ، فهو بذلك خبير . وهنا يبدو من الواضح أن العطار قد أفاد إفادة ليست بالقليلة ، من وصف إخوان الصفاء ، لهذا الهدهد ، من خلال ترشيح الطاووس (الوزير) له أمام السيمرغ ليكون هو رسوله إلى ملك الجان ، فى المحاكمة بين الحيوانات وبنى الإنسان .

ومن الغريب أن نجد العطار وشهاب الدين السهروردى المقتول ، يكادان يتفقان فى النظر إلى الهدهد على أنه هوالهادى والمرشد ، وكما رأينا سلفا فى قصة (الغريبة الغربية) فإنه يطير به من مكان إلى مكان عبر العالم،بل فى عصور مختلفة ، تتفق هذه الأماكن ،وتلك العصور ، مع مصادره الفكرية الى ينعتها بأنها مصادر (الحكمة العتيقة) ويوضح ذلك كله

---

(١) جامى: نفحات الأنس ، تعريب النقشبندى ، ورقة رقم ٣٦١، نقلا عن بديع محمد جمعة ، مقدمة منطق الطير ، مرجع سابق ، ص ٣٨.

فى كتابه (حكمة الإشراق) حيث يتحدث عن مصادره بأنها الفلسفة المشائية والأفلاطونية ، والأفلوطينية (الموروثة) والفلسفة الفارسية القديمة ، والصابئة وقدماء المصريين ، والهرمسية.([1])

وقد سبق أن رأينا أن الغزالى يعتذر عن أصحاب الشطحات ، لكننا نرى هنا أن العطار ، لايقف عند حد الاعتذار عن هؤلاء ، بل إنه يتجاوز ذلك إلى مدحهم والإشادة بمواجيدهم ، وكثيرا مايذكرنا بهم عبر حكاياته التى تتخلل مقالاته ، ومراحل الطريق لديه . والاتفاق جد عجيب بينه وبين السهروردى المقتول فى هذه الناحية أيضا . إذ يمدح هذا الأخير كلا من البسطامى والحلاج ، ويطلق على الأخير لقب " فتى البيضاء([2]). كما أنه يمدح أبا الحسن الخرقانى وهو من المتصوفة الفلاسفة([3]).

أما الهيكل القصصى عند العطار ، فقد تتبع فيه الغزالى فى قصته (رسالة الطير) تتبعا تاما، وقد سبق الإلماع إلى أن (منطق الطير) للعطار إن هو إلا شرح مسهب لما ذكره الغزالى فى رسالته . ولعل السبب فى هذا الشرح المسهب هو طبيعة النظم الشعرى الذى صب العطار فيه قصته .أما الغزالى ، فهو فى مندوحة عن هذا التطويل لامتلاكه ناصية اللغة العربية من جهة ، ولاختياره القالب النثرى من جهة أخرى.

([1]) السهروردى: حكمة الإشراق ، ج ١ ، طهران ، ١٣١٦هـ، ص ١٠.

([2]) مجموعة فى الحكمة الإلهية ، نشر هنرى كوربان ، استنبول ، ١٩٤٥، ص ٥٠٥.

([3]) نيكلسون : الصوفية فى الإسلام ، ترجمة نور الدين شريبة ،القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ٨٥.

فهل هذا الجانب هو الذى اصطلح عليه البعض بأنه المقصود به التصوف السنى ؟ وجعلوه يستمر حتى القرن الخامس ، بل إلى مابعد هذا القرن([1]).

لماذا يصاب الباحثون بهذه الحساسية الزائدة عن الحد بحيث يفرقون مابين تصوف سنى وغير سنى ، أو فلسفى، لماذا لايكون التصوف كله فلسفيا؟ ويكون الفيصل بين المتصوف الملتزم بالإسلام وغيرالملتزم بالإسلام هو اتفاقه أو تصادمه مع مبادئ الإسلام. إن معالم العقيدة الإسلامية واضحة، والسلوك الإسلامى العملى الإسلامى طبقا للكتاب والسنة واضح تمام الوضوح . وبذلك يمكن أن يحكم على هذا الصوفى بأنه متفق مع حقائق الإسلام أو غير متفق معها .

إن الغزالى مثلا وهو فى رأى الكثرة من الباحثين خير من يمثل التصوف السنى ، غارق فى الآراء الفلسفية من رأسه إلى أخمص قدميه ، وإذا كان قد هاجم الفلاسفة ، فلم يهاجم إلا تيارا واحدا من التيارات الفلسفية وهو التيار المشائى كما سبق ، ولكنه لم يهاجم أصحاب هذا التيار إلا لمخالفتهم لحقائق الإسلام فى رأيه .أما منهجه الصوفى فلا يخلو من اتجاه إشراقى واضح على نحوماسبق الإلماع إليه . فهل الإشراقية ليست مذهبا فلسفيا ؟

([1]) التفتازانى، أبو الوفا الغنيمى : مدخل إلى التصوف الإسلامى ، مرجع سابق ، ص ١٤٥.

اذا كان الأمر كذلك، فانـه يمكـن القـول بشـئ مـن الجـرأة إن العطـار متصوف لايخالف حقائق الإسلام ، وفى نفس الوقت غـارق فـى الفلسـفة بهـذا المعنى المشار إليه سلفا.

إنه يبنى صوفيته على أساس مـن العشـق ، وهـو وسـيلته إلىالمعرفـة الحقة ، ومن المعرفة يصل إلى الفناء ، ومن الفناء يصل إلى البقاء.

غير أن فناءه لايصل إلى حد مخالفة حقـائق الإسـلام فلـم يـنزل الإلـه إلى مستوى الخلق ، ولم يرتفع بالخلق إلى مسـتوى الإلـه ، ولـم يجعـل الخلـق والحق شيئا واحدا ، ولم يجعل الإله يتجسد فى أحد من خلقه فليس حلوليـا ولا اتحاديا ، ولا قائلا بوحدة الوجود ، أو الوحدة المطلقة،ومن خلال تعبـيره عـن طريقه الصوفى هذا ليس ببعيد عن الآراء والمذاهب الفلسفية التـى أعلـن أنـه يعاديها . وكان الأمر أصبح تقليدا بعدما فعل الغزالى مع الفلاسفة مافعل .

إنه يلتزم بما التزم بـه الصوفيـة جميعـا بأنـه لابـد للمريـد مـن شـيخ ، وماذاك إلا حرصا منهم على ألا يضل المريد ، إذ لابد له من هذا الشيخ الذى يأخذ بحجز المريد وخاصة فى هذا الميدان الروحـى البعيـد الغـور ، الـذى قـد يظنه شيئا ما صحيحا وعلامة من علامات الرضا الإلهى. ولكنه قد يكون فـى الحقيقة وهما أو خيالا و شيطانا ، أوخداعا من خدع النفس الأمارة بالسوء.

ويتحدث عن الولاية بأنها منحة من اللـه ، وهبـة منـه لعبـده ، ويتبيـن ذلك من رد الهدهد على ذلك الطائر الذى سأله عن سبب هـذه المكانـة العاليـة التى له . فقال " أيها الطائر لقد كان سليمان يديم النظر صوبى فى كل آونـه " والصوفية علىاختلافهم يترددون بين كون الولاية وهبا أو كسبا .

وليس هذا تناقضا فيالواقع بين متصوف وآخر ، بل إن هو إلا نتيجة تجربة كل صوفى ، فالتجارب الصوفية متعددة تعدد هؤلاء المتصوفة، وكل يعبر حسب ذوقه ......، بل إن الصوفى الواحد فى الموقف الواحد قد يبدو مترددا بين الجانبين . فقصة إبراهيم بن أدهم ، فى تحوله من اللهو واللعب - إذ كان من أبناء الملوك - إلى طريق الله والإقبال عليه ، وترك الدنيابمباهجها تشعر بالوهب والاختصاص والاصطفاء ، إذ يفاجئه الهاتف ، وهو فى قمة لهوه ، إذ كان يقوم بالصيد والقنص:" ألهذا اختلقت ! أم بهذا أمرت !" ويجيبه الهاتف نفسه ، وكأن الهاتف من داخله ، والمجيب من داخله أيضا " والله مالهذا خلقت ، ولابهذا أمرت " فلم يملك ابن أدهم إلا أن يترجل، ويترك فرسه ، ويصادفه راع لأبيه ، فيأخذ جبة الراعى التى كانت من الصوف ، ويعطيه الفرس ، ويهيم على وجهه فى البادية ، إلى أن يصل إلى مكة حيث يصحب فيها سفيانا الثورى ، والفضيل بن عياض .([1])

وبعد هذه التجربة الحافلة التى تقول من أولها إلى آخرها: إن ماحدث ليس سوى هبة من الله عز وجل ،ومنة منه عليه ، نجده يطوف حول الكعبة، ويقول لأحدهم أثناء الطواف :" اعلم أنك لاتنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات : أولاها تغلق باب النعمة ، وتفتح باب الشدة ، والثانية تغلق باب العز ، وتفتح باب الذل ، والثالثة تغلق باب الراحة، وتفتح باب الجهد ، والرابعة تغلق باب النوم ، وتفتح باب السهر ، والخامسة تغلق باب الغنى ، وتفتح باب الفقر ، والسادسة تغلق باب الأمل، وتفتح باب الاستعداد للموت".([2])

([1]) القشيرى: الرسالة ، القاهرة ، مكتبة صبح ، ١٩٧٢ ، ص ١٣.

([2]) المرجع السابق : نفس الصفحة.

موقف العطار من التصوف :

هل كان العطار متصوفا سنيا ، أو متصوفا خلط تصوفه بالفلسفة؟

ماهى الحدود التى ينبغى أن يقف عندها الصوفى لكى يكون سنيا ؟ وبالتالى إذا ماتجاوزها يكون تصوفه فلسفيا؟.

الحق أن هناك خطا يكاد يكون وهميا يفصل بين هذين المنحيين . وربما كان البحث فىأصل كلمة تصوف مما يزيد الأمر تعقيدا . فما الفرق بين المتصوف السنى مثلا ، وبين رجل تقى مثل عالم من الأئمة الأربعة مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد؟ لو كان التصوف مجرد سلوك يتميز بالتزام منهجية سلوكية صارمة فى إطار الكتاب واسنة لـلزم أن يكون هؤلاء الأئمة متصوفة ، ولكن لم يقل أحد بذلك ولا حتى هؤلاء الأئمة قد ادعوه . بينما يعاصرهم أناس طيلة القرن الثانى والثالث والرابع قد اختاروا هذا اللقب (صوفى) لأنفسهم ، دون أن يدعوا أبدا أن المعرفة هى هدفهم ، أو أن الجمال والعشق هومقصدهم ، أو أن الفكر أو النور هو الهدف من مسعاهم. لكن " السمات المميزة لحياتهم هى التقوى ، وعدم التعلق بالدنيا ، والتوق الشديد إلى الله ، وهو التوق الذى ينبع من الشعور بالذنب ، وغايتهم ليست التفلسف، بل العمل أساسا على استنباط مثل خاصة للحياة" ويعلق أحد الباحثين على هؤلاء بأنهم قد التزموا الجانب التوحيدى.([1])

([1])إقبال، محمد : تطور الفكر الفلسفى فى إيران ، ترجمة حسن محمود الشافعى ، ومحمد السعيد جمال الدين ، القاهرة ، الدار الفنية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، ص ٩ .

فالصوفية كل حسب تجربته يذهبون فى تفضل الله بالولاية بين اتجاهيين اتجاه الكسب واتجاه الوهب ، وإن كانوا ، إذا نظروا إلى الكسب وجدوافيه معالم للوهب ، وإذا نظروا إلى الوهب وجدوا فيه شيئا غير قليل من الكسب . ومثلهم فى ذلك مثلهم فى النظر الى الحال والمقام، فالأصل فى الأول الوهب لكنه لايخلو من الكسب ، والأصل فى الثانى الكسب لكنه لايخلو من الوهب.(1)

موقف العطار من الحلول والاتحاد ووحدة الوجود .

إن العلاقةبين الله والإنسان والعالم طبقا لعقيدة الإسلام ، هو أن الله هو الرب والخالق ، وماعداه مخلوق سواء أكان إنسانا أو عالما. فهل العطار يخالف هذه العقيدة ؟ الحق أن الناظر فى منطق الطير لايشعر بأية مخالفة لذلك . فالله خالق الإنسان من طين وروح ،وخالق الكون كله . غاية ما هناك أن الصلة بين الله والعالم ، والإنسان صلة روحية قد لا تدرك إلا بالذوق. فالله هو الحق أو الكنز والعالم طلسم ، والله هو البحر والعالم قطرة، والله هو الشمس والعالم ظل . وكلها عبارة عن تعبيرات أقرب الى الشعر منها إلىالعلم أى أن التعبيرات الشعرية كما هو شأن الشعر الذى هو القالب الذى اختاره العطار ليعبر به عما يختلج فى روحه . ومن ثم فإن العطار ، لايكاد يأتى بجديد يخالف الصوفية المعتدلين الذين سبقوه .

أما ماجاء فى آخر (منطق الطير) من أن الطيور الثلاثين قد وجدت نفسها فى السيمرغ والسيمرغ هو فعلا موجود فى الطيور الثلاثين مع مهارة العطار فى استخدام الجناس اللغوى بين الرقم ثلاثين (سى مرغ) وبين العنقاء

---

(1) السهروردى : عوارف المعارف ، القاهرة ، مكتبة القاهرة ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م.

بالفارسية(سيمرغ) فلا يكاد يذلك يخالف من جاء قبله ، ولاسيما عند الغزالى عندما ذهب – على نحو ماسبق – إلى إن قلب المؤمن مرآة ([1]) إذا ماتم لها الجلاء والصفاء ، فإن الإنسان يستطيع أن ينظر فيها الكون ، بل يرى فيها الله . ومع شهود الله الواحد وتلاشى كل ماعداه يصل الصوفى إلى الفناء فى التوحيد . وهو مايطلق عليها الباحثون ، بل الصوفية أنفسهم (وحدة الشهود).([2])

*****

([1]) الغزالى : احياء علوم الدين ، القاهرة ، ١٩٣٤، ج ٣ ، ص ١٢-١٣ .

([2]) التفتازانى : مدخل إلى التصوف الإسلامى ، مرجع سابق ، ص ١٧٦-١٧٩.

المصادر والمراجع

المصادرالمراجع العربية والمعربة

١- الابشيهى :

المستطرف من كل فن مستظرف ، بيروت ، دار إحياء التراث العربى ، د.ت.

٢- ابن أبى أصيبعة :

طبقات الأطباء، بيروت ، د.ت .

٣- ابن خلكان :

وفيات الأعيان ، القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٢٩هـ.

٤- ابن رشد :

تهافت التهافت ، تحقيق سليمان دنيا ، القاهرة ، دار المعارف .

٥- ابن سينا :

أ- الإشارات والتنبيهات ، تحقيق سليمان دنيا ، القاهرة ، دار المعارف ، د.ت .

ب - التعليقات ، تحقيق عبدالرحمن بدوى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣م .

ج - رسالة العهد (ضمن مجموعة : أرسطو عند العرب) نشر عبدالرحمن بدوى ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، ١٩٧٨م.

د - رسالة فى إثبات النبوات وتأويل رموزهم وأمثالهم (ضمن مجموعة: تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات) القاهرة ، مطبعة هندية ، ١٩٠٨م.

هـ - رسالة فى الأجرام العلوية(ضمن المجموعة السابقة).

و - رسالة القدر ، ليدن ، ١٨٩٩م .

ز - سلامان وإيسال (ضمن مجموعة : تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات) القاهرة ، مطبعة هندية ، ١٩٠٨م.

ح - الشفاء - الطبيعيات (٦) تحقيق جورج قنواتى وسعيد زايد، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ط- منطق المشرقيين ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩١٠م.

٦- ابن طفيل :

حى بن يقظان (ضمن مجموعة : " حى بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردى) نشر أحمد أمين ، القاهرة ، دار المعارف ، د.ت.

٧- ابن عربى :

عنقاء مغرب ، القاهرة ، الحلبى ، د.ت.

٨- ابن عطاء الله السكندرى :

التنوير فى إسقاط التدبير ، القاهرة ، المطبعة الأزهرية ، ط ١ ، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م.

٩- ابن عمران ، حاتم :

رسالة الأصول والأحكام (ضمن مجموعة : خمس رسائل إسماعيلية) تحقيق عارف تامر ، سوريا ، دار الانصاف ، ١٩٥٦م.

١٠- ابن منصور اليمن ، جعفر :

أ - البيان لمباحث الإخوان ، تحقيق مصطفى غالب ، سلمية ، سوريا ، ١٩٥٦م.

ب - رسالة العالم والغلام(ضمن مجموعة : أربع كتب حقانية) تحقيق مصطفى غالب ، بيروت .

١١- أبوريان ، محمد على :

أصول الفلسفة الإشرافية عند شهاب الدين السهروردى ، القاهرة، منكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٩م.

١٢- إخوان الصفاء:

- رسائل إخوان الصفاء ، تصحيح خير الدين الزركلى ، القاهرة ، المطبعة العربية ، ١٩٢٨م.

- رسائل إخوان الصفاء ، بيروت، دار صادر ، د.ت.

١٣- أدهم ، على :

الجمعيات السرية والحركات الهدامة ، القاهرة، دار المعارف ، ١٩٥٤.

١٤- إقبال ، محمد :

تطور الفكر الفلسفى فى إيران ، ترجمة حسن محمود عبداللطيف ومحمدالسعيد جمال الدين ، القاهرة ، الدار الفنية ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

١٥- أمين ، أحمد :

حى بن يقظان لابنسينا وابن طفيل والسهروردى ، القاهرة ، دار المعارف ، د.ت .

١٦- الأهوانى ، أحمد فؤاد :

المدارس الفلسفية ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٦٥م.

١٧- بدوى ، عبدالرحمن :

أفلوطين عند العرب ، الكويت ، وكالة المطبوعات ، ١٩٧٧م .

١٨- بريستيد ، جيمس هنرى :
تطور الفكر والدين فى مصر القديمة ، ترجمة زكى سوس ، القاهرة، دار الكرنك ، ١٩٦١م.
١٩- تامر ، عارف :
حقيقة إخوان الصفاء ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٥٧م.
٢٠- التفتازانى ، أبو الوفا الغنيمى :
مدخل الى التصوف الإسلامى ، القاهرة، دار الثقافة ، ١٩٨٣م.
٢١- توملين ، أ.د.ف :
فلاسفة الشرق ، ترجمة عبدالحميد سليم ، القاهرة ، دار المعارف ، د.ت .
٢٢- الجاحظ ، أبوعثمان عمرو بن بحر :
الحيوان ، تحقيق عبدالسلام هارون ، القاهرة ،١٣٥٦هـ - ١٣٦٦هـ.
٢٣- جعفر ، محمد كمال :
التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ، القاهرة ، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٠م.
٢٤- جمعه، بديع محمد :
منطق الطير لفريد الدين العطار - ترجمة ودراسة، بيروت ، دار الأندلس ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
٢٥- الجيلانى ، على بن فضل الله :
توفيق التطبيق ، تحقيق محمد مصطفى حلمى ، القاهرة ، د.ت.
٢٦-الجيلانى ، عبدالقادر :
الفتح الربانى والفيض الرحمانى ، القاهرة ، الحلبى ،١٩٧٩م.

٢٧- حسين ، محمد كامل:
طائفة الاسماعيلية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٩م.
٢٨- الخمينى ، روح الله :
الحكومة الإسلامية ، نشروتقديم حسن حنفى، القاهرة ، د.ن، د.ت.
٢٩- الدسوقى ، عمر:
إخوان الصفاء ، القاهرة ، الدار القومية ، ١٩٥٦م.
٣٠- دى تريصى :
فى تداعى الحيوانات على الإنس عند ملك الجن ، برلين ، ١٨٨٩م.
٣١- الذهبى ، محمد حسين :
التفسير والمفسرون ، القاهرة، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦١م.
٣٢- الروبى ، ألفت كامل :
نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين - من الكندى حتى ابن رشد، بيروت ، دار التنوير ، ١٩٨٣م.
٣٣- السهروردى ، شهاب الدين يحيى بن حبش بن أميرك
أ- حكمة الإشراف ، طهران ، ١٣١٦هـ.
ب - الغريبة الغربية(ضمن مجموعة : حى بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردى) نشر ودراسة أحمد أمين ، القاهرة، دار المعارف ، د. ت .
٣٤- الشهرستانى ، محمد بن عبدالكريم :
الملل والنحل ، تحقيق عبدالعزيز محمد الوكيل ، القاهرة ، مؤسسة الحلبى ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م.
٣٥- العوا ، عادل :
منتخبات إسماعيلية ، دمشق ، ١٩٨٥م.

٣٦- غالب ، مصطفى:

تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، دمشق ، دار اليقظة العربية ،١٩٥٣م.

٣٧- الغزالى ، حجة الإسلام محمد بن محمد :

أ - إحياء علوم الدين، القاهرة ، عثمان خليفة ، ١٩٣٣.

ب -إلجام العوام عن علم الكلام(ضمن مجموعة : القصور العوالى) القاهرة ، مكتبة الجندى ، د.ت

ج - أيها الولد (ضمن المجموعة السابقة)

د - بداية الهداية (ضمن مجموعة) القاهرة ، مكتبة الجندى ، د.ت.

هـ - فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية ، تحقيق عبدالرحمن بدوى ، القاهرة، الدار القومية ، ١٩٦٤م.

و- قانون التأويل (ضمن مجموعة) القاهرة، مكتبة الجندى ، د.ت

ز - فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة (ضمن مجموعة القصور العوالى)، القاهرة ، مكتبة الجندى ، د.ت.

ح - المستصفى من علم الأصول ، القاهرة ، بولاق ، ١٣٢٢.

ط - معيار العلم ، تحقيق سليمان دنيا ، القاهرة، دار المعارف ، ١٩٦٤م.

ى - مشكاة الأنوار (ضمن مجموعة القصور العوالى).

ك - المنقذ من الضلال ، القاهرة ، مكتبة الجندى ، د.ت .

ل - المضنون به على غير أهله (ضمن مجموعة القصور العوالى).

م - معارج القدس إلى مدارج معرفة النفس ، تحقيق محمد مصطفى أبو العلا، القاهرة ، مكتبة الجندى ، د.ت .

ن – القسطاس المستقيم (ضمن مجموعة القصور العوالى).

س – القسطاس المستقيم (ضمن مجموعة القصور العوالى).

٣٨- الفارابــــى :

أ – فصوص الحكم (ضمن مجموعــة رسـائل الفـارابى) القـاهرة، مطبعة السعادة ، ١٩٠٧م.

ب – رسالة فى معانى العقل (ضمن المجموعة السابقة).

٣٩- قاسم ، محمود :

فى النفس والعقل ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦١م.

٤٠- القشيرى :

الرسالة ، القاهرة، مكتبة صبيح ، ١٩٧٢م.

٤١- القفـــطى :

إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، القاهرة ، الخانجى، ١٣٢٦هـ.

٤٢- الكرمانى ، أحمد حميد الدين :

راحة العقل ، تحقيق محمد كامل حسين وآخر ، القاهرة ، د.ت.

٤٣- مدكور ، ابراهيم بيومى :

الفلسفة الإسلامية – منهج وتطبيقه ، القاهرة ، دار المعارف .

٤٤- المعدل ، الداعى الشيخ حسن :

معرفة النفس الناطقة والعلوم الغامضـة (ضمـن مجموعـة : اربـع كتب حقانية) ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٤٥- النشار ، على سامى : بالاشتراك

قراءات فى الفلسفة، القاهرة ، الدار القومية ، ١٩٦٧م.

٤٦- نيكلسون :
الصوفية فى الاسلام ، ترجمة نور الدين شريبة ، القاهرة ، ١٩٥١م.
٤٧- هلال ، محمد غنيمى :
أ - ليلى والمجنون بين الأدبين العربى والفارسى، القاهرة ، دار المعارف، ١٩٦٢م .
ب - مدخل الى النقد الأدبى الحديث ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦١م .
٤٨- الوادعى ، على بن حنظلة المحفوظى:
رسالة ضياء الحلوم ومصباح العلوم (ضمن مجموعة أربع كتب حقانية) تحقيق مصطفى غالب ، بيروت ، ١٩٨٣م.
٤٩- وورنر ، ركس:
فلاسفة الإغريق ، ترجمة عبدالحميد سليم ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥م .

*****

المراجع الأجنبية

1- Forster, E.M.:

Aspects of the Novel, London, 1949.

2- Gibb, R.:

The B.S.O.S., 1952-XIV/3.

3- Leighton, Joseph A.:

The Field of Philosophy, N.Y. London, 1930.

4- Nasr, Sayyed Hossein:

Three Muslim Sages, Suhail Academy, Lahore, 1969.

5- Panayiotis L. Vatikiots:

The Fatimed Theory of State, Lahore, Kashmiri Bazar, First Edit.

6- Plato:

On the Trial and Death of Socrates, Lan Cooper Trans, I Thaca, N.Y., Conrnell University Press, 1941.

7- Spinoza:

Correspondance, English Trans, by A. Wolf, Allen and Union, 1927.

*****

المحتويـــــات

*****